عبد السلام البسيوني

aalbasuni@hotmail.com

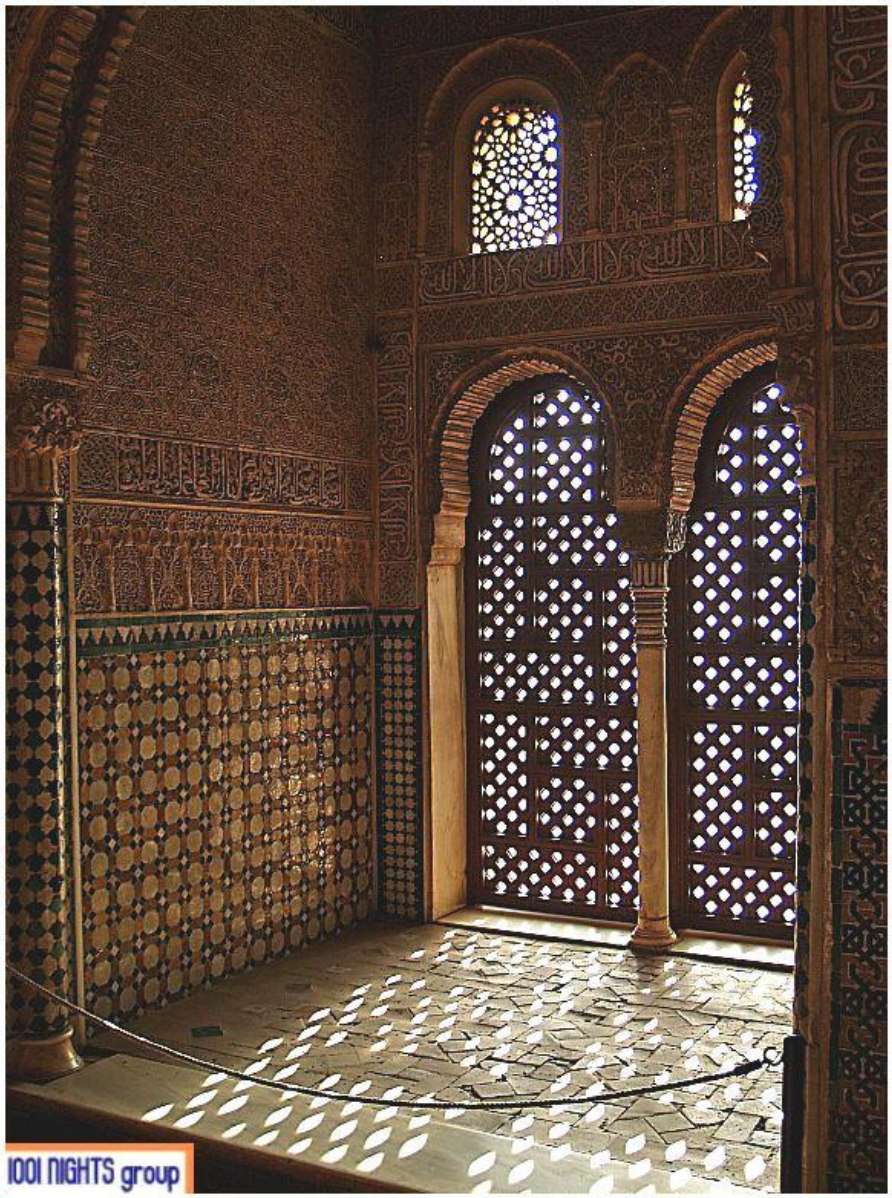

علماء ومشاهير عرفتهم

قال تبارك وتعالى:

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط

قال القرطبي رحمه الله: (في الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته كما قرن العلماء).

وقال تعالى: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟

وقال صلى الله عليه وسلم:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ فِي الْبَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ) الترمذي وغيره

(فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا و لا درهمًا، ولكنهم ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر) رواه أحمد

الإهداء

إلى أساتذتي العظام

الذين نهلت من علمهم وفضلهم؛

أو بشكل غير مباشر مباشرة،

اعترافًا بمنتهم عليّ وأيديهم البيض

عبد السلام البسيوني

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب

أستاذ الفقه والأصول والكاتب والمؤرخ الكبير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه الطاهرين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين. وبعد:

فإن المتأمل لواقعنا الثقافي، ولحياتنا الأدبية، يجد أن من يملكون مقاليدها، ويسيطرون على أجهزتها، ووسائل إعلامها، كلهم من المتغربين، الذين لا يدرون عن ثقافة هذه الأمة وثوابتها شيئًا، وهم لذلك في عداءٍ صريح مع دين الأمة، الذي هو ملاك ثقافتها (فدين الأمة أي أمة، هو مصدر ثقافتها)، ليس هذا قول رجلٍ متعصب (متطرف)، وإنما هو قول (إليوت) الشاعر الناقد، الذي شغف به أدباؤنا ونقادنا، وسبحوا بحمده، ورتلوا قصيدته (الأرض الخراب) ترتيلاً.

هؤلاء المسيطرون على منابع فكر الأمة، ومراكز توجيهها، كيف تنسى لهم ذلك؟ ومن الذي مكّن لهم؟ وكيف احتلوا هذه المواقع وهم شيوعيون أو متشيعون، ثم ظلوا فيها، بل ازدادوا منها تمكنًا بعد أن (تأمركوا) (وتهوّدوا، أو (تأسرلوا)؟

كيف ذلك؟ هذه ظاهرة في حاجة إلى من يدرسها، ويكشف عن جذورها وأسرارها!

في هذا الجو الخانق، تنبت أقلامٌ شابة قوية، مؤمنة نقية، تحاول أن تبدد هذا الظلام، وتدفع عن دينها وعرضها.

وعلى قلة وسائل هؤلاء الشباب، وقلة المعين والناصر، استطاعوا أن يشقوا طريقهم، وأن يعلنوا كلمتهم، وأن يرفعوا صوتهم.

ولما كانت أمتنا لا تنادَي إلا بالإسلام، ولا تخاطب إلا بالقرآن، وجدناها أصاخت السمع لهؤلاء البررة، ولبت نداءهم، وأدارت ظهرها لهذه (الأجهزة) الجبارة بكل هيلها وهيلمانها، وبكل الهالات الساطعة، من سدنتها ونجومها.

حتى وجدنا هذه (الأجهزة) بكل جبروتها، وما وراءها من سطوة وسلطة، تفرغ من هذه الأقلام قليلة الحيلة، عديمة الإمكانات، فراحت (الجهات إياها) تتربص بهذا وذاك، وما جنى ذنبًا، وما ارتكب جرمًا، ولكنه حمل (قلمًا)
والله غالب على أمره.

قلم عبد السلام البسيوني أحد هذه الأقلام الصادقة، المؤمنة، التقية، التي تفتح القلوب والعقول قبل الآذان.

وقلم عبد السلام البسيوني قلق، دائم الحركة، لا يستقر على حال، ولا يثبت في مكان، ولكنه (القلق) البنّاء، رأيناه يفضح تدليس المتغربين، ويكشف تضليل الإعلاميين، ورأيناه يتتبع خلل المبتدعين، ويحارب آفات المشعوذين والدجالين، وينهض ليرد هجمة المنحلّين الذين يتحككون بحرية المرأة، ليتحككوا بالمرأة، ثم يلتفت ليجلّي عقيدة الإسلام، ويبين بهاءها وصفاءها.

جندي شاكي السلاح، في حومة الوعي، دائم اليقظة والحركة، يسد ثغرة هنا، ويضرب متسللاً هناك، لا يكل ولا يمل.

واليوم يدخل مجالاً جديدًا، غفل عنه الغافلون، وهو مجال الوفاء والعرفان، جانبٌ هام أغفله الإسلاميون والدعاة، فقلما وجدناهم يعرّفون بأصحاب الضل، وينوهون بأصحاب الجهد (وهذه ظاهرة أيضًا في حاجة إلى دراسة وعلاج)، يحاول عبد السلام البسيوني اليوم أن يقدم هذه الشخصيات، نوعًا من الوفاء في جملتها، ولونًا من النقد في بعضها.

وأنت واجدٌ في هذا الباب أن عبد السلام البسيوني يتقن فنًّا جديدًا غير ما عرفناه من فنون يتقنها، فالترجمة للأشخاص، وكتابة سيرتهم فن قائم برأسه يحتاج إلى مقومات

يعرفها النقاد ودارسو الأدب، وستجد أن قدم عبد السلام البسيوني راسخة ثابتة في هذا الباب أيضًا، كما سترى أسلوبه المتميز بحرارة العاطفة، وجودة الصياغة، وطرافة الصورة، وبخاصة حينما ينحو بها نحو السخرية.

اقرأ ودقق ترجمته البديعة لنزار قباني، وسترى مع ما قلتُه لك الآن إحاطةً بشعر نزار، إحاطة فهم ووعي، وتذوّق، وإعجاب (رغم رفضه له) كما ترى ملامح ناقد أدبي واعٍ.

وأكتفي بهذا الآن.

وأتوجه إليه سبحانه أن يعيننا وإياه على سلامة القلب وإخلاص النية، وأن يحمينا من شرور أنفسنا، وأن يجعل قولنا وعملنا خالصًا لوجهه الكريم.

أبو محمود

عبد العظيم محمود الديب

14ربيع الأول 1419هـ

العلامة القرضاوي، فالشيخ عبد المعز عبد الستار، فالممثل حسن يوسف، فالدكتور الديب، فالبسيوني، فالإعلامي صلاح خليفة.. رحم الله الجميع منذ نحو 18 سنة.

شهادات.. للحق.. والتاريخ

كما تتفاوت همم الناس تتفاوت هم الأمم، وكما تتفاوت أقدار الناس تتفاوت أقدار الأمم، وإنك لواجدٌ في عباد الله تعالى رجلاً يساوي ألف رجل، ورجلاً يساوي مائة رجل، ورجلاً ربما لا يساوي الثياب التي تستر جسده.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مثل قوله تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) (النحل:120)، وقوله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب:21)، وأشار إلى مثل ذلك المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله الذي رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح: (لو وزن إيمان أبي بكر وإيمان الأمة لرجح بها)، ولمثل ذلك أشار الشاعر حين قال:

وفي الناس أقمارٌ.. وفي الناس أنجمٌ	وفي الناس ألف.... لا تُعد بواحدِ

وقال آخر:

ما أكثر الناسَ، لا بل ما أقلّهمُ	ويعلم الله أني لم أقل فَنَدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها	على كثيرٍ.. ولكن لا أرى أحدا

وكذلك الأمم أقدارٌ ومنازل، فأمةٌ همتها في الثريا، وأمة تقنع بأن تأكل من المزابل، وترضى بأن تتسول اللئام.

ومن ملامح الأمم المتردية الحسيرة وإن كانت تلبس قشرة براقة زائفة أنها تهتم بهواها أكثر مما تهتم بعقلها، وتنفق على ملذاتها وشهواتها أكثر مما تنفق على معاملها ومدارسها وجامعاتها، وتعظم من يلهيها أكثر مما تعظم من يعليها، وتستغرق في حاضرها في حين تسطو بماضيها.

وإني لأجد في تاريخنا المعاصر مئات بل ألوفًا من العلماء الأعلام وأهل الفضل في العلوم كلها ممن يحتجون أن نقف أمامهم، ونتأمل سيرتهم، ونستفيد من تجاربهم؛ لأنهم في سياق المنطق الانتهازي: منطق الماضي احنا مالنا وماله، منطق اللي يطول

حاجة ياخدها، و"أحيني النهارد" ضاعوا، وابتلعت أسماءَهم أسماءٌ لآخرين لا تنهض بهم الأمة كثيرًا، ولا تعلو، إن لم تتردّ وتتسفّل وتُخلد إلى الأرض.

كثير من هذه الأسماء العظيمة ضاع في الزحام، ولم يجد من يعطيه بعض حقه، أو يوفيه شيئًا من قدره، منهم من تجد عنه إشارات خافتةً حيية، ومنهم من لا تجد له ذكرًا، في حين تطنطن وسائل الإعلام لأسماء ما هي بأسماء، وأشخاص لا يزنون كثيرًا في سوق المكارم، والمروءات، والعلم، والفضل.

وخذ عندك يا سيدي من المتاريك المظاليم في قرننا هذا بحسب اهتمامي، وثمّ كثير جدًا من غيرهم من الفائقين في العلوم المختلفة محمد الصادق عرجون، ومحمد الأمين الشنقيطي، ومصطفى صبري، ومحيي الدين عبد الحميد، وأبو زهرة، وضع معهم مصطفى السباعي، ومحمد رشاد سالم، ومحمد عبد الخالق عضيمة، ومصطفى طحان، وعبد الحميد مدكور.

وخذ أيضًا النديم والبارودي وشوقيًا وحافظًا والعقاد والمنفلوطي وحمزة فتح الله، وأحمد محرم وباكثير، وضع معهم عبد العظيم الشناوي، وعلي الطنطاوي، وإقبالاً، ونجيب الكيلاني، وهاشم الرفاعي، وعبد الرحمن العشماوي، وحلمي القاعود.

وخذ ابن باز، والألباني، ومحمد حامد الفقي، وعبد الرحمن الوكيل، ومحمود خطاب السبكي، وعبد الوهاب النجار، ووحمد جميل غازي وخليل هراس، وضع معهم حسن عيسى عبد الظاهر، ووأحمد بن حجر، والمحلاوي، ومحمد أحمد إسماعيل.

وخذ أحمد ومحمود شاكر، وأحمد تيمور، وفؤاد عبد الباقي، وعبد السلام هارون، والسيد صقر، والبجاوي، وأبو الفضل، وضع معهم عبد العظيم الديب، وأكرم العمري، والأرناؤوط، وبنت الشاطئ، ودرويش الفار.

وخذ يا سيدي وخذ.. وخذ.

أسماء كثيرة غير هذه تحتاج على من يكثرون الكتابة عنها، والتعريف بها، تعليمًا للأجيال، ووفاءً بالحق، وربطًا بين الماضي والحاضر والمستقبل، وردًا على حملات

تغييب عقل الأمة، وسلبها ثقتها بنفسها، وإراحةً للآذان من واغش الأسماء التي لا تفتأ تفرض نفسها على العقول والقلوب والضمائر.

والحق أنني لم أرد بهذه المقالات* التأريخ والترجمة المستوعبة لبعض الأعلام، بقدر ما عُنيت بالتركيز على موقف أو مواقف، أعتقد أننا في أمس الحاجة لأن نتأملها، وأن نفيد منها، وأن ننبّه عليها الأجيال، إيجابيةً كانت أو سلبية.

وأكثر المترجَمين شخصيات قابلتها، وجالستها، وتفاعلت معها، فهذه الورقات هي أشبه شيء بالشهادة، أسأل عنها بين يدي الله تعالى، عالمًا أن شهادة الزور من أعظم الكبائر الموبقات، لذا فلقد تحريت جهدي ألا أكتب عن بعض الأعلام القريبين مني كالقرضاوي، وعبد العظيم الديب، ومحمد قطب، وعمر عبيد حسنة، ولا عن بعض من أخشى أن يداخل شهادتي عنهم شيءٌ إن كتبته أغضبت الخلق، وإن كتمته أغضبت خالق الخلق سبحانه وتعالى.

وسيلحظ قارئي الكريم بسهولة أن هذه الشخصيات المترجمة لا تنضوي تحت لافتة واحدة، ولا يجمع بينها غير أنها ذات مواقف تحتاج للتأمل، فأنا دائمًا أهرب من العصبية، ومن اللافتات، ولا يعنيني إلا أن أحترم الكبار وأنزلهم منازلهم، وآخذ منهم وأدع، كما وصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما فعل سلفنا الصالحون عليهم رحمات الله ورضوانه.

هذا وإني لأعلم أن الذين كتبت عنهم جميعًا بشر من البشر، يخطئون ويصيبون، ويؤخذ من كلامهم ويترك، لكنني أكتب عنهم ما أعلم، وما رأيت مثل الشمس، والله يتولى السرائر.

فإن كنت أصبت فمن الله تعالى وله وحده الفضل والمنة وإن كنت تجاوزت، واستحققت أن يحثى في وجهي التراب، أو أن يؤخذ من حسناتي لإخواني لا قدر الله

* أصل المادة : مقالات نشرت بالوطن الإسلامي تحت عنوان : " والحق أقول " ، بعناية الصحفي القدير محمد صبرة ، وبعضها في المصريون الإلكترونية.

فأسأل الله العفوّ الغفور أن يتجاوز عني، فما أردت إلا الخير والإصلاح، وحسبي نية صادقة، أشهد بها لأهل العلم والفضل، وحسبي الله ونعم الوكيل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

عبد السلام البسيوني

الدوحة في 1998/7/6م

في حديقة قصر يلدز باستانبول من اليمين: د. خليفة الكواري، فالدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو، فالبسيوني، فالأستاذ أحمد النعمة، فالدكتور محمد شريفي

صلاح أبو إسماعيل: الشيخ الحليم الرشيد

هل نسيتم أبا حازم عليه رحمات الله؟ لقد كان معنا في الدوحة قبل مدة وجيزة..

نعم؟ مدة وجيزة؟! لقد فجعت حين فتشت عن تاريخ وفاته، فوجدته قد تركنا منذ أكثر من ثمانية آلاف يوم تقريبًا، مثل هذه الأيام منذ نحو اثنتين عشرين سنة كاملة (2851990م) حين ترك قطر، مارًّا بأبو ظبي، ليلقي بعض الدروس الرمضانية، ثم المحاضرات العلمية، وفي المطار فاضت روحه إلى بارئها الرحمن الرحيم، لنُفجع في عَلم من الأعلام الذين لا عوض عنهم، كنت أظن أنه مات منذ ثلاث أو أربع سنين، عليه رحمات الله ورضوانه.

على بشاشة وجهه، ورقة نفسه، ولطف طبيعته، كان صقرًا من صقور العمل الإسلامي؛ لا يرضى لدينه بالدنيّة، بل يناضل ويبذل لتعلو كلمة الإسلام؛ عبر المنابر السياسية الرسمية، وكانت له صولاته وجولاته في مجلس الشعب، دفاعًا عن الشريعة، ومناداة بتطبيقها.

الصقر:

شاغب، وقدّم طلبات إحاطة، ومشروعات قوانين، كما أعد مسودات لقوانين الشريعة الإسلامية، كانت جاهزة لتقديمها عند الطلب: وخد عند حضرتك:

قدم استجوابًا لرئيس الوزراء عن تصريح الرئيس السادات رحمه الله – كما كتب الشيخ المجذوب رحمه الله بأنه لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين، وحشد في هذا الاستجواب الأدلة على كمال السياسة الإسلامية، وتفوقها على كل نظام؛ في تأمين العدالة والأمن، لأصناف البشر؛ على اختلاف معتقداتهم. ولما جبن رئيس مجلس الشعب

عن تقديمه كما عبر الشيخ ذهب به إلى د. زكريا البري وزير الأوقاف، ليبلغه الرئيس، منددًا أيضا بقوله إن قدوته مصطفى كمال أتاتورك!

واستجوب جمال ناظر وزير السياحة لسماحه بالخمر بالمدرسة الفندقية في بلد دينه الرسمي الإسلام!

واستجوب الدكتور عبد المنعم الصاوي وزير الإعلام، الذي صرح في زيارة لأميركا، بأن مصر لن تطبق الشريعة الإسلامية! وكان الاستجواب سببًا في إخراجه من الوزارة؛ اتقاء للحرج البالغ الذي كانت ستتعرض له الدولة لو نُظر هذا الاستجواب!

واستجوب د. عبد المنعم النمر لتفريطه في استرداد أموال الأوقاف المنهوبة.

وتصدى لقانون الأحوال الشخصية المسمى، بـ(قانون جيهان) مواجهًا أصحاب الفضيلة الدكاترة: عبد المنعم النمر وبيصار وجاد الحق رحمهم الله أجمعين.

وانتهز وجود نحو ثلاثمائة من أعضاء مجلس الشعب في مكة لأداء العمرة في يناير 1979 ليعاهدوا الله أمامه في الحرم الشريف أن تكون أصواتهم لشرع الله، لا يغلبهم على ذلك انتماء حزبي، فعاهدوه، فكان أن حل الرئيس السادات رحمه الله مجلس الشعب، وطار معظم هؤلاء عن كراسيهم.

ووقف بقوة مساندًا الشريعة الإسلامية، حتى نصت المادة الثانية من الدستور على أنها المصدر الرئيسي للتشريع، ولم يكن هذا النص موجودًا من قبل.

واستجوب وزير العدل حين خالف فضيلة المفتي الشيخ جاد الحق علي جاد الحق قرار مجمع البحوث الإسلامية، الذي يقضي بأن ثبوت هلال رمضان في بلد يوجب على جميع البلاد الإسلامية المشتركة مع بلد الرؤية في جزء ويسيرًا من الليل تصوم، وقد ثبت الهلال عامًا من الأعوام في العراق والكويت واليمن، فلم يعتمد المفتي هذا الثبوت.

واستجوب المرحوم المستشار أحمد سميح طلعت وزير العدل، في يناير 1977، بأنه لم يقدم ما عند وزارة العدل من تشريعات إسلامية خلال خمسة أشهر كما طلب منه

– فكانت النتيجة أن أجري تعديل وزاري، لم يخرج بمقتضاه من الوزارة سوى وزير العدل، ليسقط الاستجواب!

يوم من أيام الله

رغم اعتلال صحته، وخيانة عظامه له، كان يملك قلب أسد، ولم يكن كالشيوخ الآخرين الذين لم تزد علاقتهم بالشباب عن أن تكون تليفزيونية دعائية، بل كان دائمًا وسط الشباب: يستمع لهم، ويطمئنهم، ويجيب عن مسائلهم مهما كانوا غلاة أو مسيئين فقد كان يرى أن مواجهة الغلو والانحراف لا تكون بقتل أولئك، ولا مطاردتهم، ولا سجنهم، ولا القسوة عليهم، ولا جبههم وتعنيفهم، بل كان يرى أن الاستماع لهم ومحاورتهم خير دواء للغلو والانحراف، لذا فإنه لم يتردد لحظة في الوقوف بجانبهم لمَّا استدعي للشهادة، وكانت شهادته ذات ثقل هائل في إنقاذ شبان كثيرين من حبل المشنقة، وقت كان عديد من العلماء الكبار بعيدين عن الساحة، ومستمتعين بالمكيفات والبدلات والامتيازات، ولا يكتبون عن الشباب إلا لائمين، أو متهمين عائبين، مع حاجة الميدان لهم بشدة.

في مقالة كتبها الشيخ/ أسامة حافظ عنونها: كلمة حق، في زمن عز فيه الحق، جاء (باختصار مني يسير، رغم إطالتي في النقل هنا): في مثل هذه الأيام منذ قرابة الثلاثين عامًا مايو 1982 قدمنا لرئيس المحكمة المستشار عبد الغفار محمد قائمة سجلنا فيها أسماء بضعة عشر عالمًا من شتى أنحاء العالم الإسلامي، ندعوهم للحضور شهودًا في القضية؛ لمناقشة ما كانت تحمله القضية والأحداث والمحاكمة من فكر، ومدى مشروعيته.

كانت القائمة تحمل أسماءً من ذوي الوزن الثقيل ممن اشتهروا بالعلم، وطبقت شهرتهم الآفاق.

وترقبنا قرارها، وكلنا في قلق أن ترفض، كما رفضت المحكمة العسكرية قبلها بشهور، مكتفية بالخلفية الجنائية للحدث، متجاهلة أن القضية في ذلك الوقت كانت أكبر وأشهر قضية سياسية ودينية شهدتها المحاكم المصرية طوال تاريخها.

ولكن المحكمة والحق يقال كانت حريصة على استقصاء جوانب القضية، وخاصة الشق الديني الذي بني عليه الحدث.

حوار مع الشيخ سنة 1988

ورغم كثرة الأسماء المعروضة وشهرتهم العريضة إلا أن المحكمة راعت في اختيارها كلا الشقين الديني والسياسي فيمن وافقت عليه. فاستدعت الشيخ الجليل صلاح أبو إسماعيل ليدلي بشهادته في الشق الفكري في القضية، وما كان أعظمه من اختيار.

كنا نعرف الشيخ جيدًا من خلال سباحتنا في بحر الدعوة كعلم من أعلامها، وإمام من الأئمة المقتدي بهم؛ فقد اشتهر بجهاده في مجلس الشعب في سبيل تطبيق الشريعة، صادعًا بكلمة الحق. وقد عرفناه على المنابر، وفي قاعات المحاضرات، وفي المؤتمرات، يدافع عن الدين ويذود عن حياضه.

وقد حمل لواء الدعوة، وابتلي في سبيلها ولم يتراجع. والتقينا به كثيرًا، ودعوناه في معسكراتنا ومؤتمراتنا، وفي مساجدنا. وكنا نري فيه إماما من أئمة الهدى، وبقية من حملة هدي سلفنا الصالح تتلمذنا علي علمه ومواقفه وجهاده. وأمّلنا أن تكون المحاكمة وما كانت تلقاه من زخم إعلامي فرصة لطرح القضية الإسلامية، وقضية تطبيق الشريعة علي قمة هذا الزخم من خلال هذه الشهادة.

ولم يخيب الشيخ أملنا فيه، وقبل دون تردد رغم ما يحوط هذا القبول من محاذير وحمل مسؤولية هذه الشهادة أمام الله أولاً، ثم أمام الناس وفي يوم من أيام الله شهدت قاعة محكمة أمن الدولة بالعباسية الشيخ وهو يتقدم بتؤدة ووقار نحو موقفه أمام القاضي، بينما تصاعد هتافنا يزلزل القاعة: "الله أكبر الله أكبر، فليرتفع صوت الأزهر/ الله أكبر الله أكبر، فليرتفع شأن الأزهر".

وبدأت كلماته تتوالي، والكل صامت كأن علي رؤوسهم الطير؛ فما ترك كلمة حق له فيها مقال إلا قالها، لا يهاب فيها أحدًا، ولا ترك خللاً إلا سعى في تقويمه، ولا ترك موقفا لله فيه مقال وتردد لحظة في قوله! وقد كنا نشعر أنه لا ينظر في مقاله إلى أحد، ولا يشعر بأحد حوله، إلا نظر الله إليه واطلاعه على عمله.

مرت الجلستان التي أمتعنا فيهما كأنها لحظات، وشعرنا جميعا أن كلماته غزت القلوب، وحركت المشاعر، وكثيرا ما أشفقنا عليه من بعض ما قال، ولكنه لم يكن يشغله من ذلك شيء.

ولأن ما كان لله بورك فيه ووضع له القبول بين الناس، فإن شهادته هذه ما إن نشرت في حتى أحدثت دويًّا وحراكًا في المجتمع الإسلامي، وبادر عدد من العلماء الأجلاء يضيفون إلى ما أثار الشيخ من قضايا فيضًا من علومهم، ومزيدًا من الدعم.

الحليم الرشيد

هناك شيوخٌ شيوخ، يبدو عليهم السن، وضيق الصدر، والتبرم بما لا يعجبهم ولا يرضيهم، وهناك شيوخ شباب، شيوخ في أعمارهم لكنهم قريبون من الشباب في عقولهم،

يقدّرون العنفوان، ويعذرون أصحابه، تعلو وجوهَهم ابتسامة، ولهم في الأمور حُسن تأتٍّ، وفيهم صبر على خطايا الشباب وأخطائهم، ليسوا رسميين دائمًا، وليسوا متجهمين دائمًا، أسوتهم في ذلك الأعظمُ محمد صلى الله عليه وسلم، النبي الرؤوف الرحيم، الذي جاءه الشاب الفائر يستأذنه في الزنا، فلم يلعن جدوده، ولم يضربه بالحذاء، ولم يقل له: يا بن الأفاعي، ولم ير أنه كفر بهذه الفلتة الشبابية، بل مسح على صدره، ودعا له، ثم حاوره وأقنعه، حتى قام من بين يديه راضيًا طاهر الصدر!

أسوتهم الرؤوف الرحيم الذي رأى بعينه الرجل البدوي (يبول) في المسجد، فنهى الصحابة أن يقطعوا عليه بولته، وما نهره، ولا أمرهم أن يسحلوه، أو يجعلوا جلده (شوارع) ومِزَقًا.

أسوتهم النبي العظيم صلى الله عليه وسلم، الذي كان عنفوانُ الشباب يتجلى في حضرته صريحًا، في سلوك عمر وخالد وغيرهما، فاستطاع صلى الله عليه وسلم أن يكفكف اندفاعهم، ويكبح جموحهم، ويصوغهم بعدُ رحمةً تمشي على الأرض.

كذلك كان أبو حازم أحسبه والله حسيبه الرجل البشوش الودود الرفيق، الفذ في الصبر على الشباب، وفي احتمال جهالاتهم، الذي لم تفارق الابتسامة وجهه منذ رأيته لأول مرة في الجامع الأزهر عام 1980م حتى لقي الله تعالى وقد رأيته بين ذلك عشرات المرات وكان قبلها بأيام قد قال لجلسائه: وداعًا؛ فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، وكأنما ألهم هذه الكلمة إلهامًا.

ما رأيته رحمه الله تعالى إلا باشًّا، مبتسمًا، ضحوك الأسارير، يحسن الاستقبال، ويتلطف في المجاملة، لذا فقد كان مجلسه الرمضاني في فندق الواحة بالدوحة القطرية غاصًّا دائمًا بالشباب، ينصحهم، ويوجههم، ويبتسم لهم، ويصير على جرأتهم، حتى إنني أزعم وأرجو أن أكون صادقًا أنه لم يترك بعده مثله، في حلمه وسعة صدره.

كان بعض الجرآء من الشباب يجبهونه أحيانًا، ويجهلون عليه، فيبتسم، ويرد عليهم بمنتهى الهدوء، في حين كان يأتي غيرَهُ الشابُّ ليسأله، فيسبه، ولو كان بوسعه أن يضربه بـ(الجزمة) لفعل!

كان يتلقى الشاب فيرحب به كأنه صديقه الأثير، ويوسع له، ويهش في وجهه.. زرته الساعة الخامسة مساء، في بيته بالدقي القاهرة مع فريق من التلفزيون القطري، لتسجيل حلقات معه، فلم يخرجني ومن معي إلا في الثالثة صباحًا، عشر ساعات وهو جالس يسامرنا بمنتهى الحيوية واللطف والكرم.

ليلة صلاحية

أراد ليلتها أن "يعشينا" وكنا أربعة، فاتصل بأحد المطاعم الكبرى، وقال "للشيف": عندي أناس من قطر، كلما زرتهم ذبحوا لي أربعة خراف، وأريد منك أن تثبت لهم أن المصريين يمكن أن يكرموا الضيف، فهيئ لنا عشاءً يليق بك وبهم، وفعلاً كانت "العشوة صلاحية" باذخة، أكلنا حتى انتفخنا، وضحكنا حتى استلقينا، وصوّرنا، وانتفعنا، وتعرفنا على الأستاذ حازم لأول مرة، وتركنا الشيخ واسع الأفق، فلم نسجل معه!

وليلتها أبشَمَنا طرائف و"نكتًا" وحكايات جعلتني أتوسل إليه أن "يخف شوية" حتى أصل إلى بيتي سالمًا، فقال ضاحكًا: أقول لك حاجة أنيل من دا كله: بينما كنت جالسًا معه، دخل فلان علينا، قائلاً في قرف: تصور يا باشا، العيال ولاد الـ... بيقولوا إن الخمرة حرام! فانتفضت واقفًا وقلت له: همّا رجالتك بيقولوا إن الخمرة حلال؟!

وإيه رأيك انت يا.. يا باشا؟

وخرجت من مكتبه غاضبًا!

كان منتميًا للإخوان المسلمين، متعصبًا لهم، حتى إنه قال أمامي: لو قُتلت وسال دمي على الأرض لكتب دمي: الله أكبر ولله الحمد، وكان يقول: إن الإخوان إذا أغلقوا في وجهه الباب فإنه سيدخل عليهم من الشباك؛ ومع ذلك فقد كنت تجد في مجلسه

السلفي والتبليغي والإخواني والأزهري، لا فرق، ولا عصبية، وهذا فرق كبير بينه وبين غيره، لا يقدر عليه كثيرون غيره، ممن يتعصبون للافتات أكثر من عصبيتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم!

لنصلح الدنيا بالدين

وقد بدأت علاقته بهم، وبدأت رؤيته في التغيير عن طريق السياسة، إثر حديث سمعه من الشيخ المجاهد عبد القادر عودة وكيل جماعة الإخوان، ألقاه ذات خميس في المركز العام..

يقول رحمه الله: حضرت ذلك الاجتماع، وكان تقديري السابق أن الدكتور عودة كاتب ومفكر أكثر منه متحدثًا، ومع ذلك فقد استهواني حديثه ذاك، وترك في نفسي من التأثير ما جعلني أعتقد أن تغيير الفكر أساس لتغيير السلوك..

وكان مما قاله يومئذ:

"نحن في بلد يحكمه نظام دستوري، أساسه سلطة الأغلبية، فإذا استطعنا أن نحشد الأكثرية تحت شعار "لا حكم إلا بالقرآن" فذلك هو السبيل الدستوري لتطبيق الشريعة الإسلامية".

بهذه الكلمات الموجزات تحققت أن الأزهر يعلم ويفقه وينشر دعاته ووعاظه وخطباءه في كل مكان، ولكنه لا يهتم بمبدأ تجميع الأغلبية، للمناداة بالمطلب الواحد، الذي هو تطبيق النظام الإسلامي الحاكم، على حين يصب الإخوان الرأي العام في قوالب دستورية؛ أخذًا بالأسباب الموصلة إلى ذلك الهدف، دون التفات إلى أهواء الناس، بل التزامًا بقول الله تعالى: [إنما كان قول المؤمنون إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون].

ومن هنا بدأ يهتم بالسياسة، وآمن بالتغيير عن طريق القنوات الدستورية، فرشح نفسه فيما بعد لمجلس الشعب، واكتسح الآخرين، حتى إنه سبق منافسه بنحو أربعين ألف صوت، كما سمعت من فمه رحمه الله تعالى.

يقول رحمه الله: خضت المعركة الانتخابية في المرتين الأولى والثانية سنة 1976، 1979 تحت شعار "أعطني صوتك لنصلح الدنيا بالدين" وقلت لجماهير الناخبين: لو أن شيوخ الإسلام بعثوا من قبورهم، وانضموا إلى المعاصرين، وملؤوا الدنيا خطابة ومناداة بتطبيق الشريعة الإسلامية، ما استطاعوا غير تعبئة الرأي العام، وللرأي العام قوته وأثره، ولكن لا سبيل إلى تغيير القوانين الوضعية لتكون شرعية إلا عن طريق مجلس الشعب، الذي له وحده سلطة التشريع، واستجاب الناخبون بما يشبه الإجماع المنقطع النظير، وبحماسة متدفقة؛ على الرغم من موقف السلطات، التي كانت تستهدف إسقاطي في الانتخابات بتخطيط ظالم.

وكان الإخوان يُعجبون بموقفه السياسي، ويباهون به، ويدعمونه، ويرون سبيله السبيل، وقد صرح بذلك أستاذي القرضاوي في إحدى حلقات الشريعة والحياة عن الإسلام والسياسة، مع عبد الصمد ناصر، فقال:

أخونا وصديقنا رحمه الله الشيخ صلاح أبو إسماعيل كان داعية من الدعاة المتميزين، وله تأثيره في جمهوره، وله أسلوبه الخاص، ولكنه رأى أن يستغل حب الناس له في دائرته، وإقبال الناس عليه، ودخل البرلمان مرات عديدة، وحاولوا أن يسقطوه فلم يستطيعوا، الناس كانت تستقتل لتحمي الصناديق حتى لا تُغيَّر ولا تُزوَّر؛ فالشيخ صلاح أبو إسماعيل اشتغل بالدعوة واشتغل بالسياسة، لمَ لا؟!

تجاهله الإعلام المصري – كما تجاهل العلامة (أبو زهرة) بعد تحركه السياسي، ونيله عضوية مجلس الشعب فليس له تسجيل فيه ولو لخمس دقائق كما سمعت من فيه رغم أنه سجل خارج مصر مئات الحلقات، وعشرات البرامج، وشارك في تفسير كتاب الله تعالى، في تسجيل كانت تعرض حلقاته في كل دول الخليج في آنٍ معًا،

وكان شركاؤه في هذا التفسير الشفوي من كبار علماء الأزهر في هذا الوقت: الغزالي والقرضاوي وعبد المعز عبد الستار وحسن عيسى عبد الظاهر وسيد طنطاوي ومحمد المهدي، رحم الله من مات منهم ومتّع بمن هم بيننا! بجانب كمية هائلة من المحاضرات والدروس الوعظية والعلمية!

يقول في ذلك رحمه الله تعالى: ومما هو جدير بالذكر أن الإعلام المصري، الذي قدمت من خلاله الكثير من الأعمال الدينية في الإذاعة والتلفاز على مدى سنين، قد أدار لي ظهر المجن منذ دخلت مجلس الشعب، وارتفع صوتي بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، فقد صدرت الأوامر بمنع التعامل معي في الإعلام المصري منذ العام 1978، ولكن رحمة الله لا تنتظر أوامره..

لقد ردني ذلك إلى حديث كتبه المغفور له الإمام محمد أبو زهرة ذات يوم، وفيه يقول: إن بعض الفضلاء قد سأل مدير التلفاز المصري عن السبب في استبعاد أبي زهرة عنه، فكان جوابه: لأني لا أستريح إليه! وما كان أبلغ رد الإمام على ذلك الجواب العجيب حين قال: لقد نسي هذا المدير أن تلفاز مصر ليس ملكاً له، ولا هو غرفة من منزله؛ ليستقبل فيها من يشاء، ويقصي عنها من يشاء.

ضِخامٌ سِمان

كنتُ أدل عليه أحيانًا رحمه الله ويحتملني، قلت له ذات مرة:

أنت والقرضاوي والغزالي (ضِخامٌ سِمان) تسدون الأفق، ولا تتركون فرجة للدعاة الشبان، ولا تسمحون لهم بالتنفس، فهلا فسحتم لهم قليلاً ليشموا شيئًا من الهواء!؟ حرام عليكم.

فضحك ويقول: أنت صادق، ثم ينادي على شاب من الداخل: يا واد يا حازم.. ليدخل شاب رزين، يماثله في سمنته، وحركته، وفصاحته، وسعة ثقافته، وسعة ابتسامته، وحجم بشاشته، وكان الأستاذ حازم المحامي الداعية الرائع، والذي ارتفع صيته بعد ذلك، وصار مرشحًا لرئاسة مصر، وشرفني بزيارتي في بيتي قبل سنين مفاجأة جيدة

بالنسبة لي آنذاك، التفتّ له، وأعجبت به إعجابًا أنساني أباه، واستمتعت بحديثه، وسجلت له حتى كاد الفجر أن ينبلج، والشيخ يشارك (وينكّت) ويرضى بما يدور.

دخل شابان (قِفلان) جاهلان مندفعان فقرّعاه ولاماه، وقالا له: أنت تتحدث عن العلماء، فأين العلماء؟ أين هم؟ فخلع عمامته، ونحاها جانبًا، وأخذ يتلفت حوله ضاحكًا ويقول: فعلاً.. أين هم؟ أين هم؟ كأنما يصفع غباءهم وقلة أدبهم، بلطفه وحكمته.

كان يكثر من المزح، فيخلع عمامته ليظهر رأسه الأصلع، الخالي حتى من شبهة شعرة، ويقول: قريبًا سأعالج بالإبر الصينية في مستشفى حمد، وأعود شابًّا فتيًّا كابن العشرين.

ذهبت إليه مرة متضجرًا من عنفوان بعض الشيوخ، وقسوتهم على الشباب وسوء ظنهم بهم، وقلت له: لماذا أنتم غلاظ هكذا؟ فضحك وكان لماحًا وقال لي: اسمع.. واحد راح يسأل صاحبك:

أين أضع يدي يا مولانا في الصلاة: على صدري أو فوق السرة أو تحتها؟

فانفعل عليه، وقال: يا أخي حُطّها على بطنك، واللا على صدرك، واللا حتى في جهنم، الله يخرب بيتكم، ثم بدأ يعتذر عن الشيخ بما ينبغي لمثله من مثله.

حين أراد أن يتخنفس!

كان الشيخ داعية موهوبًا بشكل نادر، وقد رأيت من حسن تأتيه، وتلطفه في الدعوة الشيء الكثير، ومن لطيف نوادره ما أرسله لي الأستاذ الحبيب حازم أبو إسماعيل الداعية الكبير الرائع، مكتوبًا بخط يده وقد اختفى بين أوراقي للأسف، أثناء انتقالي من بيت لبيت، ولعلي أعثر عليه قريبًا لأنشره كما وصلني أن الشيخ كان ذات يوم في طريقه لخطبة الجمعة في الستينيات، فمر بمجموعة من الشبان (الخنافس) أيام هوجة أولاء الشبان، طوال الشعر قصار النظر، فأوقف سيارته، وحياهم، قائلاً: أنا معجب كثيرًا بطريقتكم، وبأسلوبكم..

وعايز أكون خنفس زيكم، أعمل ايه؟!

فضج الشباب ضاحكين، وظنوه يعابثهم، إذ رأوا أمامهم أزهريًّا معممًا مهيبًا، فإذا به يكرر سؤاله بجدية مغلفة بابتسامته الجميلة، واستنصحهم:

انتم قصدكو إيه؟ وعاملين كدا ليه؟ وإيه الفلسفة خلف هذا الأمر؟ لأني فعلاً عايز أكون معاكم!؟

فأجابوه بقدر ما يسعهم، فقال لهم: أنا عندي فكرة، أريدكم أن تتغدوا معي اليوم جميعًا، لنكمل حديثنا؛ فلعلي أقتنع بما تقولون، فأنخلع مما أنا عليه إلى ما أنتم عليه، فوجد فيه الشبان فريسة طريفة، أو مغامرة من نوع جديد، أو تسلية يقضون بها بقية اليوم، فاقترح عليهم أنه؛ لاضطراره أن يؤدي صلاة الجمعة بحكم الوظيفة – يا عيني أن يصحبوه للمسجد، وبعدها يتغدون، فرافقوه، ليغير هو موضوع خطبته إلى حديث خاص، نجح به في اختراق عقول المجموعة المتخنفسة وقلوبها، واستمالهم إليه، ثم تغدوا وعاد بهم إلى المسجد، ولم ينته النهار، حتى كان قد (فرمط) عقولهم وأعاد برمجتها، ليحلقوا شعورهم، وينظفوا عقولهم، ويغيروا اتجاههم، ويصيروا كائنات أخرى غير الكائنات التي طلع عليها صبح ذلك اليوم العجيب!

الطنطاوي والمجذوب

حضرت للشيخ عشرات اللقاءات في زياراته الرمضانية للدوحة، ورأيته بصحبة الغزالي، والقرضاوي، وعبد المعز عبد الستار، وحسن عيسى، وعبد العظيم الديب، وحسان حتحوت، وعبد التواب هيكل، وكثيرين غيرهم، ورأيت حبهم إياه، واحتفاءهم به، وازدحام مجلسه بالشباب ليليًّا حتى يؤذن للفجر!

وقد اعتبره العلامة الشيخ علي الطنطاوي من عباقرة المسلمين في هذا العصر، لما كان له من أثر في السياسة الإسلامية، وما أحدثه من تغييرات.

وكتب عنه الشيخ الشاعر الأديب محمد المجذوب في كتابه "علماء ومفكرون عرفتهم": كثيرون جدًّا أولئك الذين يريدون أن يقرؤوا سيرة الشيخ صلاح أبو إسماعيل، لأنه بات في أيامهم هذه من التحف النادرة التي قل أن يقعوا عليها في واقعهم.

ولعل معظم هؤلاء قد فوجئوا لأول مرة باسم هذا الرجل يوم ألقى بقذيفته المدوية أمام المحكمة المنعقدة لمحاكمة من يسمونهم "جماعة الجهاد" في القاهرة، فانطلق صداها يتردد في الصحف والإذاعات العالمية، ثم لم يتوقف دويها حتى اليوم.. وحق لهم أن يفاجؤوا، وحق لوسائل الإعلام العالمية أن تردد ذلك الصدى، لأنه كان نذيرًا بأنه لا يزال بين علماء الإسلام من يؤثر مرضاة الله على النفس والحياة والمنصب، فيعلن شهادة الحق في أحرج المواقف، يرسلها مجلجلة ناصعة لا تخاف في الله لومة لائم؛ حفاظًا على قلبه من أن يخالطه الإثم الذي أوعد الله به كاتمي الشهادة. وإنها لعمر الحق لبطولة تفوق سائر البطولات التي ألف الناس أن يروها ويقيموا لها الأنصاب والمعالم.. وبخاصة بعد أن خرست أصوات الصادقين، وطغت ضوضاء المنافقين، وأصبحت فنون البلاء موكلة بالألسن، فهي تتهيب أن تهمس بكلمة الحق، خشية أن تقطع أو تنزع!

رحمك الله يا أبا حازم، وأحسن مثوبتك، وأكرمك بكرامة الصالحين.. وبارك لك في حازم سرِّك وصلتكِ بالدعوة والجهاد الرشيد اللهم آمين.

الإمام الأكبر: يوسف القرضاوي

يقول العقلاء: إن المعاصرة حجاب، يحول بين الناس وبين تقدير الرجل العظيم، وإدراك جوانب تميزه وعظمته.

وهذا حق، لكنه ليس الحق كله فيما أحسب؛ فدون القرضاوي الفخيم حجُبٌ عديدة تحول بين بعض معاصريه، وبين إدراك قيمته الحقيقية، ومنزلته التي هو جدير بها.

- بينهم وبين الشيخ القرضاوي حجاب المعاصرة، والرسام يحب دائمًا أن تُرى الصورة عن بُعد؛ لا أن يلتصق المتفرج بها ليرى ضربات الفرشاة، وخطوط اللون على النسيج.
- وبينهم وبين القرضاوي حجاب العصبية الذي يجعلهم لا ينظرون إليه بعين الرضا، مهما رأوا من الخير منه، ومهما فعل ما يعجز غيره عنه، ومهما وقف، ومهما أبدى، ومهما تصدى! فإقدامه عند بعضهم تظاهر، وعلمه تساهل، ومواقفه استعراض، واجتهاده ثورة على الثوابت وانتقاض!
- وبينهم وبينه حجاب الغباء الذي يحول دون قراءته، والتعرف إليه، واكتشاف مكامن التفرد، والإبداع، والموسوعية فيه. فلا ميزان يرجعون إليه، ولا معرفة لهم بالشيخ ولا بالذي أفاء الله عليه، ولا منهج ينطلقون منه، إنما هو ضيق العطن، وسوء الظن، واستباحة لحوم العلماء!
- وبينهم وبينه حجاب القصور الذي يجعلهم يرون الصورة ناقصة، فلا يلمحون منها إلا نتفًا وشذرات لا تحكي واقعًا، ولا تغني من حاجة. فهو الذي تكلم في الغناء

والحجاب وبس وكأنما الشيخ لم يبذل من عمره سبعين عامًا مباركًا، في العلم والتعليم، والدعوة والجهاد، والحركة وأعمال البر، وكأنه لم يُخرج من العلم دررًا، ومن المؤلفات فرائد، ومن الأشعار خرائد في سهولتها وجدّتها وحسن سبكها!

- **وبينهم وبينه حجاب الكبر الذي يجعلهم يبخسون الناس أشياءهم، ويغمطون الناس أقدارهم، ويتسورون منازلهم وحرماتهم. فأحدهم يضعفه وغيره ويتتبعه، ويصحح له، ويرى نفسه رجلاً ويرى القرضاوي في أحسن تقدير رجلاً مثله، ولا يبالي أن يجهر بالكلمة الفاضحة: هم رجال ونحن رجال!**
- **وبينهم وبينه حجاب التربص والإرصاد، الذي يجعلهم يقلبون خيره شرًّا، ويجعلون حسنته سيئة، وسبقه تأخرًا، واجتهاده هباءً منثورًا!**
- **وبينهم وبينه حجاب الأحكام المسبقة، والآراء المستنسخة، وغياب المحاكمة العقلية، والضعف عن قراءة الواقع، والإدراك الكلي للأشياء!**

وما أعظم الله الذي قال: (ويل للمطففين)، والذي أمر: (ولا تبخسوا الناس أشياءهم)، وما أعظم المصطفي الذي قال: [ليس منا من لم..... ويعرف لعالمنا حقه]!

فمن للأمة برجل كالعلامة القرضاوي جمع أجزاء الصورة سنًّا ودربة، وعلمًا وخبرة، وممارسة وموهبة!؟

- ***إيتوني بمثله من الدعاة في القرن العشرين؛ بخلطته العجيبة النادرة!***
- ***إيتوني برجل جمع في إهابه الفقيه والمحدث، والداعية والمرشد، والمثقف والأكاديمي، والعالم والإعلامي، والشاعر والناثر، والناقد والرائد، والمحاور والمناظر، والمعلم والحركي، والتاريخي والواقعي والمستقبلي!***

إيتوني بشيخ تبارك الوهاب المنان بمثل ذاكرته، ومثل حفظه، ومثل يقظته، ومثل موسوعيته، ومثل خبرته، ومثل تطوافه ومواهبه، ومثل سرعة بديهته وقوة عارضته.

إيتوني بشيخ من الشيوخ جاب الأرض من أقصاها لأقصاها، وخبر الدنيا وحلب أشطرها، وعصَرته المحن وصهرته الخطوب، وعرف الحياة حنظلةً مريرة وسكّرةً حلوة!

إيتوني برجل له مثل أولياته ومشروعاته، ورياداته ومؤلفاته، وغزارته وتدفقه، وانصرافه عن السفاسف للمعالي، وعن الوهاد للقنن!

سيقول السفهاء: ما لك تغلو، وتبالغ، ولا تنظر إلا بعين الرضا؟!/ ما لك سميته الإمام، وجعلته فوق الأنام؟!/ سيقول السفهاء: ما لك جعلته كأنه الأوحد الفذ، الذي لا نظير له؟!

وسأقول حالفًا حلفة واثق: ما أزكي على الله أحدًا، لكنني أحسبه والله حسيبه، وما أغلو ولا أبالغ، وما لي مصلحة ولا أرب؛ فأنا وإن كنت أزعم من أقرب الناس منه، من أبعد الناس عنه، وفضيلته يعلم أن (راسي حجر) وأنني صاحب استقلالية تامة في رأيي ودعوتي؛ لم أنتم يومًا لشيء، ولم أغل في شيخ ولا لافتة؛ فإن دأبي الولاءُ للإسلام ذاته، ومنهجي حب المسلمين كلهم، وحب العلماء كلهم، وتقدير العظماء كلهم.. هكذا علمني العظيم محمد المختار الشنقيطي الكبير عليه رحمات الله ورضوانه، وهكذا نُشِّئت في الأزهر، وهكذا تلقيت من علماء الحرم..

يعلم الله أنني ما أغلو وما أبالغ.. لكن للأعلام الذين أثروا فيّ شأنًا آخر، فهم أصحاب فضل، وأصحاب يد، وأصحاب تمكّنٍ في القلب والضمير.

وللقرضاوي الذي أثّر فيّ ما لم يؤثر غيره شأنٌ آخر؛ لذا لا أفتؤ أذكر يوسف، ولا أملّ أعلن حبه وأسأل الله تعالى أن ينفعني ذلك فهو أهل للحب، وأهل للإكبار والثناء!

وحبي له ليس ذلك الحب التعصبي الذي يُعمي ويصم؛ بل هو نابع من مواقف، ومن مشاهدات، ومن ملاحظات، ومن أشياء رأيتها أنا وحدي أو مع غيري فأنا شاهدٌ معاين ولست متعصبًا، ولست راجيًا ولا راغبًا. بل كنت أولَ عهدي بالاستقامة قبل نحو ثلث قرن متحفظًا تجاهه شأن كثير من الشبان آنذاك، حتى بدأت أقرؤه، وأتأمل سعة واديه ومواهبه، فانتبهت إلى الحجب الصفيقة التي تحول دون كثير من الشباب والانتفاع منه. ولكم كتبت في ذلك ونبهت إليه!

ومن أبرز التجارب الدعوية التي نفعني الله تبارك وتعالى بها فيما أحسب حبي الزائد للاستيثاق والمعاينة، وعدم المجازفة في الأحكام؛ حتى أرى أو أسمع أو أقرأ دون لبس ولا احتمال؛ تصديقًا لما ورد في بعض الآثار: (على مثلها فاشهد، وإلا فدع.. يعني الشمس)، حتى لا أقع في أحد، ولا أسيء إلى أحد، ولا أضع أحدا في غير منزلته.

تعلمت هذا مقتبل تجربتي الدعوية، قبل نحو ربع قرن؛ بعد أن رأيت من يفسق أو يكفر، أو يبدع، أو يجهّل بالظن أو السماع، وبعد أن رأيت شبانًا أحداثًا يسبون (س) من العلماء لأنه يلبس البنطلون، ويلعنون (ص) من الدعاة لأنه يشرب العرقسوس، ويفسّقون (ل) من المفكرين لأنه يقرأ الشعر، ويستبيحون دم (ع) من المشايخ الكبار لأنه يلبس العمامة، أو يقول بال.. بالوجه والكفين!!

وأيقنت بضرورة هذا لما سمعت أحد حدثاء الأسنان يسيء لمحدث العصر الألباني عليه رحمات الله ورضوانه وبين يديه مختصره على البخاري يقرؤه!! فسألته متعجبًا: تأخذ الحديث عن رجل تكفره؟ كيف تأمنه على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عندك غير مسلم؟

فقال وكأنما فوجئ: معك حق.. سأنظر في ذلك!

ومن مثل هذا الموقف آليت على نفسي ألا أسمع لأحد رأيًا في أحد؛ بل كان عليّ أن أشهد مثل الشمس، تثبتًا، ويقينًا، واستعفاءً، ومعذرة إلى ربي تبارك وتعالى.

وفي أواخر السبعينيات شوش كثيرٌ من الشبان على القرضاوي، ولم أكن قرأت له شيئًا ذا بال؛ بحكم دراستي خارج مصر، وعدم ارتباطي بعمل إسلامي، فبقيت على حذري دون قبول له أو رفض حتى شاء ربي الكريم أن أكون منه قريبًا، وأعثرني الله تعالى على كتابه عن (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) وعلى أصول مقالاته في مجلة الأمة – بخط يديه الدقيق المنمنم العجلان أثناء عملي بها عامي 85–86، فبهرني منه ترتيب الفكرة، وعمق النظرة، وهدوء النبرة، والحمية الظاهرة، والغيرة الواضحة على الإسلام والشباب المسلم، وعلى مصير الصحوة المظلومة من أبنائها، ومن أعدائها.

واندهشت: إذن فما هذا الذي يشاع عن الرجل؟ وكيف يقال عن كاتب هذا الكلام النفيس ما يقال؟

وبعين الذي يريد أن يتأكد، ويرى، ولا يتورط، بدأت علاقتي منذئذٍ بالشيخ حفظه الله تعالى (لأشهد) من خلائقه وخصائصه الشيء الكثير المعجب؛ أحسبه، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا..

اقتربت لأرى ولأتيقن أنني لم (أشهد) مثله، ولم يؤثر فّي أحد بعد العلاّمة الشنقيطي رحمه الله تعالى ما أثّر هو؛ بشموليته، وموسوعيته، وحضور ذهنه، وقوة حافظته، وإضافاته، ومواقفه..

- شهدته وهو يصدع بحقٍّ لا يقوى غيره أن يصدع به، ولا يجرؤ غيره أن يفوه ببعض منه؛ مع تربص المتربصين، وإرصاد المرصدين؛ يصدع به في جلاء لا يعرف الالتواء، وجرأة لا تحتمل المداجاة.
- شهدته وهو محمر الوجه، هادر الصوت، مشتعل العاطفة، منفعل النبرة؛ غضبًا لدين الله تعالى، والاجتراء على حرماته، وتطاول سبئيي الزمان عليه، دون أن يطأطئ، أو

يجامل، أو يهادن، وهو الذي قال المقولة التي أُثرت قبله أيضًا عن الشعراوي، وصديقه يوسف ندا: كم بقي من العمر لنجامل؟ احنا بنلعب في الوقت الضائع!

- شهدته وأنا أخالفه الرأي في أحد الرموز الجليلة التي يُكبرها، وكان رأيي على غير ما يرى فضيلته أيضًا بسبب مواقف شهدتها، فيراجعني في رفق، فيما يقول لي: أنت حرٌّ في رأيك، ويصمت بدون لومٍ أو تثريب.
- شهدته وهو يسمع لمثلي بتركيز عالٍ؛ لا يقاطع، ولا يثور، ولا إليك إليك، ولا عندَك عندك؛ فإذا انتهيت من كلامي رد برفقٍ وحلم وأبوة تملك القلب، وتأسر نفس الرجل الكريم.

بل لقد احتد أمامي ذات مرة على شاب متحمس أغضبه، فهمست في أذنه أذكّره بكلمة قالها لي، فقام على الملأ والمكان مكتظ بالشباب المتحمس في مجالس العلماء ووالله ما تردد، بل قام ونادى أخانا، واعتنقه، واعتذر له بصوت عالٍ، ما جعل الشاب في اللقاء التالي ينتخي، فيقف، ويعتذر بشدة عن تسرعه، وإساءته، وسوء أدائه، وكان درسٌ لافت أفاد كثيرًا، وغيّر من النفوس كثيرًا.

- شهدته وهو يمدح أهل الفضل – ولو كانوا مخالفين له – ويذكرهم بالخير والمحبة؛ المودودي وابن باز والبنا وأنور الجندي والغزالي وابن عثيمين وأبا زهرة.. وصووووولاً إلى أحمد فؤاد نجم!
- شهدته موسوعيًا يتنقل بين الأدب والشعر، والحديث والفقه، والتربية والدعوة، والاقتصاد والسياسة، والمنطق والأصول، والاعتقاد والفلسفة؛ في زمن علوّ نجمِ كل من قرأ حديثين، وحفظ جزأين، ولحن في قل هو الله أحد!
- شهدته شاعرًا ومحاضرًا، مواجهاً ومناظرًا، جادًّا ومازحًا، مادحاً ومنافحًا؛ كل ذلك في بساطة لا تكلف فيها، وسماحة نفس لا تحول بينك وبينه.

- شهدته – لكثرة أعبائه مستغرقًا في أوراقه، مندمجًا في قراءته، أو في حديثه، حتى ينتبه أننا معه، فيطرح ما كان يشغله ويتحول إلى ذلك القرضاوي الودود اللطيف المجامل حسن المعشر!
- شهدته وقد أتاه فقير من البنغال، يطلب معونةٍ، فيخرج دفتر الشيكات ويعطيه عطاءً كبيرًا دون (.....).
- شهدته وهو ينبسط لضيوفه على تفاوت أعمارهم وأقدارهم ويمازحهم ويكرم وفادتهم، ويجتهد في إدخال السرور عليهم.
- شهدته وهو يمزح و(ينكت)، ويروي من الأشعار العامية، واللمحات الأدبية، واللطائف الإخوانية ما يبهج ويُسعد.
- شهدته تبارك الله – بذاكرته السيالة العجيبة، التي تحفظ من القرآن الكريم، وتضبط من نصوص الحديث الشريف، وتسترجع الشواهد الجمة من كلام السلف وآراء العلماء، ومن الشعر في كل عصوره، حتى الشعبي والحر! تحفظ من ذلك ما تعيا به وتكلّ حوافظ الشبان، المولعين ببعض هذه الفنون!
- شهدته وهو يصلي متأنيًا يطيل الركوع والسجود، ويبطئ القراءة والدعاء، ويحقق الحروف والمخارج، على خيانة بدنه له، وأثر الزمن فيه.
- شهدته وهو يحكي عن طفولته الفقيرة، وفي عينيه فرحة طفلٍ وبراءة قطرة ندى.
- شهدته والجمهور يتقاطر لسماع محاضراته حيث كتب الله تعالى له القبول، والناس يبتدرون كلامه وخطبه ومواعظه ومحاضراته بالقلب قبل العقل، وبالشوق قبل التربص.
- شهدته وهو يصلي في الجامع الكبير ساعتين ما بين قراءة طويلة، ودرس ماتع، وأدعية مأثورة جامعة تهز النفس وتخترق الفؤاد.
- شهدته وهو يبادرني بالمجاملة والكتاب الهدية والنصيحة؛ على جلافتي، وقلة تواصلي، وانشغالي بسفاسف الأمور.

- **شهدته وهو يحاول تلميع هذا، ونصيحة ذاك، وذكر ذلك بخير، والثناء على ذياك بظهر الغيب.**
- **شهدته فرحًا بفضل الله عليه، شاكرًا لأنعمه عز وجل وآلائه، لا يستعلي، ولا ينتفخ، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي! بل يتحدث عن أول جائزة نالها، وأول جنيه ربحه، وأول فشل استثماري له أيام الكتّاب في معزة أو بطة، لست أذكر، مع رنة من الفخر الخفي حين يتحدث عن فشله المزمن في الاستثمار، وبركة الله تعالى له في العلم!**
- **شهدته وهو يسأل عن إخوانه، ويسعى لهم، ويحرص على إرضائهم، ويذكرهم بالخير.**
- **شهدته في أحوالٍ كثيرة كثيرة، لا أملك معها إلا أن أدعو الله تعالى أن يكثر من أمثاله، وأن يبارك في عمره وعلمه، وأن ينفعنا بحبه وحب الصالحين، اللهم آمين.**

= أكبر عيوب القرضاوي أن عمره لا يسع همته، وأنه يعامل بدنه ونفسه بكثيرٍ من القسوة والعنفوان.

= أكبر عيوب القرضاوي أن مشاريعه أوسع من المتاح له، وتصوراته أبعد مدىً من السنين المتبقية، التي يسابقها بالجلَد ومداومة العمل.

= أكبر عيوب القرضاوي أن كثيرين ممن لم يقرؤوه، ولم يقتربوا منه، لم يفهموه، ولم يستوعبوا سعة واديه، وكثرة خير الله عليه، وقراءته للمستقبل البعيد؛ حيث لا ينظر كثير من المتصدرين إلا تحت أقدامهم.

= أكبر عيوبه أن عينيه أتعبتاه، وأن ركبتيه أزعجتاه، وأن الصحة بدأت ترفع البطاقات الصفراء في وجهه، وتقول له: (حاسب، خد بالك يا طويل العمر).

= أكبر عيوبه (وما يزعلش فضيلته مني) أنه لا يريد أن يفرد الشباب بنصيبٍ مباشر من همه، وهمته، وفراغه، وعطائه، رغم الإلحاح عليه بذلك، لعل أحدًا منهم يظفر منه بأثارة فضل، أو امتداد منهج.

= أكبر عيوبه أن التزاماته أكثر من أوقاته، ومشروعاته أعظم من حدود المتاح، وأنه يحتاج مع عمره أعمارًا إضافية، لكي يتمم ما يريد، ويكتب ما يعرف،، ويواصل ما يتمنى، وينفذ مشروعاته الخيرية والعلمية والدعوية والأكاديمية والجهادية!

القرضاوي درة العقد الثمين الذي انفرطت حباته مبتدئة بصلاح أبو إسماعيل.. دون أن تشتفي أنياب الموت، ولا قَرَمُه للحوم العلماء شموس الأمة، وحُداة دربها.

القرضاوي الحبيب القريب، الذي لم يسمح تفريطي وانشغالاته باقترابي منه أكثر وأكثر، ولم تتح قلة لقاءاتي به عبر العشرين سنة الماضية أن (أشبع) مما عنده من الخير، أو أطيل الكلام والمماكسة والاستفزاز، كي أستخرج من كنوزه ما أغتني به ما بقي لنا من سنين..

فاللهم متع به، وأعنه، وانفعنا بحبه وحب العلماء.. يا عظيم الفضل، يا ذا الجلال والإكرام.

مع القرضاوي في بنغازي

صورة تجمع المشايخ وجدي غنيم فحازم أبو إسماعيل فالبسيوني فصلاح سلطان فحارث الضاري فالقرضاوي

البروفسور عثمان سيد أحمد وزير التعليم السوداني الأسبق يقبل يد القرضاوي

أ.د. محمد أحمد الغمراوي

رائد دراسات الإعجاز العلمي، ورفيق مشرفة

هو زميل دراسة، ورفيق درب، وتوأم فكر لرائد الدراسات النووية في مصر الدكتور علي مشرفة، والبحاثة الدكتور أحمد زكي، والدكتور أحمد عبد السلام الكرداني، أول مصري تخصص في فن الطيران من جامعات إنجلترا، وصديق شكيب أرسلان، وأحمد تيمور باشا، ومحب الدين الخطيب والرافعي ورشيد رضا وأقرانهم.. والمناظر القوي لطه حسين والعقاد وزكي مبارك وغيرهم، ورائد دراسات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم منذ أوائل القرن العشرين، وأستاذ الكيمياء الفحل، والناقد الأدبي، والعالم الجليل!

هل سمعت به قارئي الحبيب؟

أما أنا فسمعت به وبقيمته العلمية أول مرة من العالم الرباني الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، شفاه الله وأنعم عليه بالعافية، وقيل لي إنه جد بعض أبناء غنيم من حبيبتي زفتى.. وإن بيته كان على النيل، قريبًا من الإدارة التعليمية، وبيت الأستاذ الدكتور محمد الوكيل رحمهما الله تعالى... وبحثت طويلا لأجد ترجمة عنه تشبعني فلم أوفق، وطال بي هذا حتى وقع في خاطري أن أترك الكتابة عنه لطبعة لاحقة من كتابي (زفتى التي في خاطري)، لأفتش وأدقق، لكن لله تعالى إرادة تكرمني في كثير من الأحيان؛ إذ كَثُرَما يضع في طريقي من ييسر لي مسألة صعبة في هذا الكتاب..

وكانت المصادفة هذه المرة غريبة، إذ كنت ضيفًا في حديث الصباح بقناة الجزيرة، وتأخرت السيدة المذيعة، لتأتي عجلى معتذرة عن التأخر، فأردت أن أهون الأمر، وسألتها: من حضرتك؟ هل أنت جديدة/ أنا هبة الغمراوي، ومش جديدة/ منين/ من

ميت غمر/ أهلاً وسهلا.. وأنا من زفتى/ بلد جدي؟/ جدك من؟ لعله العالم الجليل الأستاذ الدكتور العميد محمد أحمد الغمراوي؟/ هو نفسه/ سبحان الله العظيم/ ما أجمل صنع الله بي.. أنا أبحث من عدة سنين عما يشبع فضولي عنه حتى كدت أيأس/ أريد صورة له/ عندي/ أريد معلومات/ كل شيء موجود..

ما أروع أقدار الله.. وعادت إليّ همتي لأنقب عن الشيخ العظيم وحاله، وتواصلت مع ابنته الكبرى السيدة كوثر، ومع حفيده الأستاذ أحمد جعفر الغمراوي الذي كان أكثر من كريم معي، وفاجأني التنقيب بقامة زفتاوية فذة عزيزة النظير.. عليه رحمات الله ورضوانه..

مع علي مصطفى مشرفة:

ولأبدأ رحلتي الغمراوية من مذكرات العالم المصري المشرِّف: علي مصطفى مشرفة، رائد الفيزياء النووية في مصر.. ففي كتاب (مصطفى مشرفة) الذي كتبه الدكتور محمد الجوادي، ضمن السلسة الثقافية لطلائع مصر، ورد كثيرا ذكر الغمراوي في مذكرات العبقري مشرفة، وفيها:

الغمراوي أول أصدقاء مشرفة الثلاثة، ولد في زفتى (9/ 6/ 1893 – 3/ 5/ 1971) ودرس بالخديوية الثانوية، ثم في مدرسة المعلمين العليا، وتخرج فيها سنة 1914 – في دفعة أحمد عبد السلام الكرداني، وأحمد زكي الصديقين الآخرين لمشرفة – وقد شارك عند تخرجه في تأسيس لجنة التأليف والترجمة والنشر.

رشح للبعثة إلى انجلترا، وتأجل سفره بسبب الحرب، فعمل مدرسا بالمدارس الثانوية، وهناك عرف مولاي محمد علي (لعله يقصد عبد الله يوسف علي) أول من ترجم

معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية (يقصد من المسلمين)، وقد شاركه الغمراوي في مراجعتها، عمل بعد عودته من البعثة في التدريس، وفي معامل وزارة الصحة، ثم أستاذًا للكيمياء بكلية الصيدلة، حتى أحيل للتقاعد، ثم دعي إلى السعودية، 1960 حيث أسس كلية الصيدلة في جامعة الرياض، وتولى عمادتها حتى 1963.

عرف الدكتور الغمراوي باهتمامه الشديد بالبحث في علوم القرآن والدين، وكان ميالاً للتعمق في التفسير الآيات الكونية، وإثبات تطابق المعاني الواردة في الآيات مع أحدث الحقائق العلمية، التي لم تكتشف إلا في العصر الحديث، وكان حريصا على إثبات أن بعض آيات القرآن تنبأت بكثير من الظواهر الكونية التي ظلت مجهولة حتى عصرنا هذا..

ويظهر من اليوميات التي سجلها مشرفة في 26 يناير 1918 أن الغمراوي وبعض زملائه قد سبقوا مشرفة إلى بريطانيا، ولكن الغمراوي لم يكن قد بدأ في تأمله ودراسته لبريطانيا ونقده للحياة فيها إلا مع وصول مشرفة.

ونرى الغمراوي يحادث مشرفة فيقول: في طريقي والغمراوي إلى مستر صلي قلت: ما كنتم تفعلون يا غمراوي في السنة الماضية، فكأني بكل جديد علي جديدًا عليك، قال: لقد لبثت العام الماضي أنظر إلى انجلترا، نظرتي إلى أرض كلها هُوّات وسط ليل بهيم، فأنا أتحسس سبيلي.

وفي موضع آخر من مذكرات مشرفة في 10 يناير 1918 يقول معتزا بدينه:

لا مبدأ أشرف من الدين، ولا عاصم إلا كتاب الله، ولا عمل هو أقوم سبيلاً، وأهدى طريقًا، من الدعاية إلى الإسلام الصحيح ومبادئه الحقة، من فعل ذلك فله إحدى الحسنيين، وهو في الآخرة من السعداء.. فاللهم اجعلني ممن نصبوا أنفسهم لنصرة دينك وإقامة دعوتك... وينتبه مشرفة كثيرًا إلى أن عليه دورًا في نشر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ويشاركه الغمراوي هذا الشعور، وهو يسجل في يومياته: ما

أجهلَ ناشئةَ اليوم بتاريخ النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا من الذين جُني عليهم في ذلك، إذ أنا أقرأ الحديث الشريف فألتذ به؛ إذ تتمثل لدي روح النبي صلى الله عليه وسلم أعاهد الله على أن أعمل على نشر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحديثه الشريف بين المصريين عامة وعقول النشء خاصة.. والغمراوي معي في ذلك.

وفي يوميات 19 يناير يشير إلى نفوره من محاولات التنصير في مصر، فيقول: أخبرني الغمراوي أن واحدة تطوعت للتبشير (التنصير) في مصر بآراء الغرب عن المرأة وتحرير المرأة كما يسمونها، قلت: هل يبعث هؤلاء القوم إلى التبشير حب الخير؟ وهل هم مخلصون؟

كما يسجل إعجابه بالغمراوي حين أدرك صلاة حان وقتها ولم يدركها هو لأنه لم يكن متوضئًا.

ومن أهم ما ذكره: قر رأيي والغمراوي على أن ننهج إذا رجعنا إلى مصر منهج استكانة وتحاب مع العلماء من مصر؛ حتى نكسب ثقتهم، ويكسبوا ثقتنا، ويتشبعوا بمبدئنا القويم، ويكون همنا أن نوحد الأمة ونربط المعممين بإخوانهم الأفندية، بما يجعل لهم الثقة في نفوسهم..

ويقول: اليوم خاطبت الغمراوي في ذكر أمرين: الأول أن طلبت منه الاهتمام بوضع مصطلحات كيميائية عربية (وهو الدكتور المتخصص فيها) والثاني أن من واجبنا التجهيز للرد على الآراء المضادة للإسلام...

وربما يعد الغمراوي أستاذًا للدكتور زغلول النجار في موضوع الإعجاز العلمي. يقول في حديث معه:

وقد أكرمني الله تعالى بالعمل لدى جامعة الملك سعود بالرياض منذ أول إنشائها سنة (1378 هـ 1958م) وحتى سنة (1381 هـ 1961م) ثم في الفترة من عام (1384هـ 1964م)

وحتى سنة (1387هـ 1967م) حيث وجد عدد من كبار الأستاذة المهتمين بتلك القضية وعلى رأسهم الدكتور إبراهيم فرج، والأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي، والأستاذ الدكتور محمد رشاد الطوبي، والاستاذ الدكتور مجدي الشوا، والأستاذ الكبير مصطفى السقا، والأستاذ الدكتور أحمد محمد مجاهد، وفضيلة الداعية الكبير الشيخ عبد المعز عبد الستار.

ويقول عنه في موضع آخر: كتبه رائعة جدًّا وقيمة رحمه الله، وقد كان معنا هنا في جامعة الرياض (جامعة الملك سعود حالياً)، كان عميداً لكلية الصيدلة، ومن الناس الذين سعدت بصحبتهم هنا، سنة 1378هـ وما بعدها، وكان الغمراوي يدرس في كلية أصول الدين في جامعة الأزهر في الثلاثينيات سنه 1937م. رحمه الله. وله كتاب في سنن الله الكونية، يدل على أن الأزهريين مهتمون بالعلوم، وهذا أستاذ في كلية الصيدلة بجامعة القاهرة، كان يدرس كتاباً بعنوان (في سنن الله الكونية) وهو من أجمل ما كتب في هذا المجال.

تأثيره في حسن البنا:

كان الغمراوي ممن أثروا في الشيخ حسن البنا، أكبر المؤثرين في العمل الإسلامي منذ أوائل القرن العشرين، فقد كان للإمام حسن البنا رحمه الله تعالى عندما كان طالبًا في دار العلوم لقاءات متعددة مع أعلام الفكر والثقافة في عصر، فكانت له (كما كتب في المذكرات وفي موقع الإخوان): كانت مرحلة دار العلوم إذن مرحلة تنوع الثقافة، فلم تكن الدراسة جافة؛ بل كان الطلاب والأساتذة يتناولون كثيرًا من الأمور العامة، سياسية كانت أو اجتماعية، وكانت المواد التي تُدرس في دار العلوم تتضمن علوم اللغة والأدب والشريعة والجغرافيا والتاريخ ومناهج التربية العلمية والعملية والاقتصاد السياسي، وكان للبنا لقاءات متعددة مع أعلام الفكر والثقافة في عصره، فكانت له لقاءات مع السيد محب الدين الخطيب، والأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، وأحمد باشا

تيمور، وعبد العزيز باشا محمد، كما كان يلتقي والشيخ رشيد رضا، والشيخ عبد العزيز الخولي، والشيخ محمد العدوي. كما كان البنا يغشى مجالس الشيخ يوسف الدجوي.

وجاء في مذكرات الدعوة والداعية للإمام حسن البنا:

وعقب الحرب الماضية 1914 1918 وفي هذه الفترة التي قضيتها بالقاهرة، اشتد تيار موجة التحلل في النفوس وفي الآراء والأفكار باسم التحرر العقلي، ثم في المسالك والأخلاق والأعمال باسم التحرر الشخصي، فكانت موجة إلحاد وإباحية قوية جارفة طاغية، لا يثبت أمامها شيء، تساعد عليها الحوادث والظروف .

ولقد تحولت الجامعة المصرية من معهد أهلي إلى جامعة حكومية تديرها الدولة، وتضم عددًا من الكليات النظامية، وكانت للبحث الجامعي والحياة الجامعية حينذاك في رؤوس الكثيرين صورة غريبة: مضمونها أن الجامعة لن تكون جامعة علمانية إلا إذا ثارت على الدين، وحاربت التقاليد الاجتماعية المستمدة منه، واندفعت وراء التفكير المادي المنقول عن الغرب بحذافيره، وعرف أساتذتها وطلابها بالتحلل والانطلاق من كل القيود .

وأنشئ في شارع المناخ ما يسمى بالمجمع الفكري، تشرف عليه هيئة من التيوصوفيين، وتلقى فيه خطب ومحاضرات تهاجم الأديان القديمة، وتبشر بوحي جديد. وكان خطباؤه خليطًا من المسلمين واليهود والمسيحيين، وكلهم يتناولون هذه الفكرة الجديدة من وجهات النظر المختلفة .

وظهرت كتب وجرائد ومجلات كل ما فيها ينضح بهذا التفكير الذي لا هدف له إلا إضعاف أثر أي دين، أو القضاء عليه في نفوس الشعب لينعم بالحرية الحقيقية فكريا وعمليا في زعم هؤلاء الكتاب والمؤلفين .

وجهزت صالونات في كثير من الدور الكبيرة الخاصة في القاهرة يتطارح فيها زوارها مثل هذه الأفكار، ويعملون بعد ذلك على نشرها في الشباب وفي مختلف الأوساط .

كان لهذه الموجة رد فعل قوي في الأوساط الخاصة المعنية بهذه الشؤون كالأزهر وبعض الدوائر الإسلامية، ولكن جمهرة الشعب حينذاك كانت إما من الشباب المثقف وهو معجب بما يسمع من هذه الألوان وإما من العامة الذين انصرفوا عن التفكير في هذه الشؤون؛ لقلة المنبهين والموجهين، وكنت متألمًا لهذا أشد الألم، فها أنذا أرى أن الأمة المصرية العزيزة تتأرجح حياتها الاجتماعية بين إسلامها الغالي العزيز، الذي ورثته وحمته، وألفته، وعاشت به، واعتز بها أربعة عشر قرنا كاملة، وبين هذا الغزو الغربي العنيف، المسلح المجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه، والمظهر والمتعة والقوة ووسائل الدعاية.

وكان ينفس عن نفسي بعض الشيء الإفضاء بهذا الشعور إلى كثير من الأصدقاء الخلصاء من زملائنا الطلاب بدار العلوم والأزهر والمعاهد الأخرى، فكان الشيخ حامد عسكرية رحمه الله، وكان الشيخ حسن عبد الحميد، وحسن أفندي فضيلة، وأحمد أفندي أمين، والشيخ محمد بشر، ومحمد سليم عطية، ثم كمال أفندي اللبان رحمه الله، وقد كان طالبا بالحقوق حينذاك، ويوسف أفندي اللبان، وعبد الفتاح كيرشاه، وإبراهيم أفندي مدكور، وسيد أفندي نصار حجازي، والأخ محمد أفندي الشرنوبي، والإخوان المثقفون من الإخوان الحصافية بالقاهرة.. كان هؤلاء جميعا يتحدثون في هذه الموضوعات، وفي وجوب القيام بعمل إسلامي مضاد، وكنا نجد في ذلك ترويحا عن النفس وتسلية عن هذا الهم! .

كما كان ينفس عن نفسي كذلك التردد على المكتبة السلفية، وكانت إذ ذاك قرب محكمة الاستئناف، حيث نلقى الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي، العالم الفاضل والصحفي الإسلامي القدير: السيد محب الدين الخطيب، ونلتقي بجمهرة من أعلام الفضلاء المعروفين بغيرتهم الإسلامية وحميتهم الدينية، أمثال فضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، وأحمد باشا تيمور رحمه الله، وعبد العزيز باشا محمد رحمه الله، وكان إذ ذاك مستشارا بمحكمة الاستشاف، ونسمع منهم بعض ما ينفس عن النفس. كما كنا نتردد على دار العلوم، ونحضر في بعض مجالس الأستاذ السيد رشيد رضا رحمه الله، ونلقى فيها الكثير من الأعلام والفضلاء كذلك، أمثال الشيخ عبد العزيز الخولي رحمه الله، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد العدوي فنتذاكر هذه الشؤون أيضا، وكانت للسيد رشيد رضا رحمه الله جولات قوية موفقة في رد هذا الكيد عن الإسلام .

كتب عنه صاحب مدونة: تأملات:

ويحضرني مثال على رجل مسلم صادق الإسلام ذهب إلى أوروبا متديّنًا ناصع القلب، وجاء منها أشد نصاعة، وأثبت إيمانًا، وأرجح عقلاً في زمان ماجت الحياة الغربية بأهل الإسلام، فغيّرت أفكارهم، وأفسدت أخلاقهم، وشوّهت إيمانهم، ولم تغيّره الحضارة المادية، وتخطف بصره، وتطفئ نور عقله، وهو يدرس هناك في مجال علمي دقيق، ذلكم هو الدكتور المسلم العبقري: محمد أحمد الغمراوي صاحب كتاب النقد التحليلي، الذي فنّد فيه كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي، وله من الكتب والمقالات التي كشف بها حقيقة أعداء الإسلام، وبيّن من خلالها أن دين الإسلام هو دين العقل السليم والنفس الصافية

والحضارة الراقية، فلم تَمِل بهذا الدكتور المسلم الحياة؛ لأنه بنى حياته على الاعتقاد الصحيح والعقل السليم، فلا يأخذ الأمور بتصور ساذج أو تسليم بليد، كما فعل غيره ممن أُشربت قلوبهم محبة الغرب، فأخذ يقلدهم في الصغير والكبير، بل وللأسف حتى فيما هو من خصائص الأمة العربية كالشعر، وهذا ما فعله طه حسين؛ فقد أخذ برأي المستشرق مرجليوث في طعنه على الشعر الجاهلي، وزعمه أنه شعر منحول لا يثبت عند الدراسة انتماؤه لمن نُسب إليهم من أهل الجاهلية..

أين كان عقل الدكتور طه حسين الذي سلطه على التاريخ الإسلامي فانتقده، وعلى العقيدة الصافية فشوّهها، وعلى المجتمع فمزّق كيانه؟!

ألم يستطع هذا العقل الكبير أن ينظر في كلام هذا المستشرق الأعجمي فيحلله، وينقده وفق ما تعلمه من مذهب الشك الديكارتي؟

أم هي الهزيمة النفسية والتبعية العقلية المستخذية التي جعلتنا عبيدًا للفكر الغربي وأسارى للحضارة الغربية؟!

إن هذا الدكتور المسلم الغمراوي لم يقبل ما كتبه الدكتور، فعرضه على موازين العقل فتبهرج، وعلى نار البحث فاختفى... وهذا هو الواجب في حق كل مسلم: ألاّ يسلم عقله بمفاتيحه لغيره مهما كان هذا (الغير)!

وأنت لو تأملت على سبيل المثال الفقه، وما كُتب فيه لوجدت أن العلماء الذين برزوا، وبقيت أسماؤهم لامعة في سجل التاريخ، هم من لم يسلم بأقوال المذهب لأنها أقوال المذهب؛ بل بحث وفتش ونظر وقارن وتأمل، حتى وصل إلى نتيجة ورأي قد يكون موافقًا للمذهب، وقد يكون مخالفًا.. وشيخ الإسلام ابن تيمية من الأمثلة المبرزة في هذا الشأن. هذا مع احترام الجهد المبذول من قبل المذاهب الفقهية، والقيمة العلمية التي خدموا بها الفقه الإسلامي.

توظيفه للصحافة:

عني العلامة الغمراوي بالنشر في الصحف السيارة في عصره، باسطًا آراءه بحرية وسط جهابذة الفكر في زمانه، مواجهًا المستشرقين والمتأثرين بهم، وكان معدودًا من رؤوس الكتاب والمفكرين آنذاك: ففي شهر أكتوبر من عام 1930 أصدَر الأزهر صحيفة نور الإسلام، ورَأس تحريرها الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله، اهتمّت المجلة بتفسير القرآن الكريم، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشرح السنة النبوية، فخصّصت أبوابًا ثابتة لهذه المقالات، وأبوابًا خاصة للفتاوى ردًا على أسئلة القرّاء، وحفلت المجلة بالكثير من الأبحاث العلمية المتعلّقة بعلوم الشريعة، مثل: قضايا الانحراف عن الدين، وعلله وآثاره ودوائه، والبعث، والزكاة، وصلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، وعلاقة الشريعة الإسلامية بالأخلاق، وضرورة الدين للعمران، هذا إلى جانب بعض الفصول المترجمة من كتب أجنبية منتقاة، مثل كتاب السيرة النبوية لرينيه وسليمان بن إبراهيم الجزائري.

ونشرت أيضًا سلسلة مقالات عن أثر الثقافة الإسلامية في تطور النهضة الفكرية بقلم الشيخ: محمد صادق عرجون. وضمت المجلة نخبة من الكتاب المبرزين بنتاجهم وكتاباتهم من الأزهر وخارجه، مثل: الشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ محمد عرفة، والشيخ محمد البهي، والشيخ محمود شلتوت، ومحمد أحمد الغمراوي، ومحمد بخيت المطيعي، وعبد العزيز الثعالبي، وأمين الخولي، وزكي مبارك، وكثيرون غيرهم.

لجنة التأليف والترجمة والنشر:

وفي دراسة عن أحمد أمين كتبت أمل خيري في (ببليو إسلام): وفي عام 1332هـ/1914م تعرف أمين على مجموعة من الشباب المثقف، من ذوي الاهتمامات والمواهب المختلفة، فاجتمعوا في بعض المقاهي يتبادلون فيما بينهم معارف متنوعة،

وكانت هذه المجموعة نواة "لجنة التأليف والترجمة والنشر" التي أثرت الثقافة العربية، واستطاعت نشر ما لم تستطعه هيئات حكومية كثيرة، فقدمت للقارئ العربي ذخائر الفكر الأوروبي في كل فرع من فروع المعرفة تقديما أمينا، كما قدمت بدائع التراث العربي مشروحة مضبوطة محققة.

وتكونت هذه اللجنة من أسماء لامعة في الفكر والأدب من أمثال: طه حسين ومحمد فريد أبو حديد ومحمد أحمد الغمراوي والزيات وأحمد زكي والعبادي وزكي نجيب محمود وعبد الوهاب عزام... ومكث أحمد أمين أربعين سنة يتجدد انتخابه سنويا لرئاسة اللجنة، وحازت مطبوعات اللجنة التي زادت على مائتي كتاب الثقة؛ لذا فقد انتشرت وذاع صيتها

عطاء الغمراوي:

كان عطاؤه في اتجاهين رئيسين:

- التخصص العلمي الذي تخصص فيه.. وهو الكيمياء.
- والدفاع عن الدين واللغة والتاريخ الإسلامي..

ففي الجانب الأول كان أكاديميًّا يخدم تخصصه، فعرفته الجامعات العربية، وأسس أول كلية للصيدلة في المملكة العربية السعودية، وكان أول عمدائها، وفي الوقت ذاته كان من رواد تأسيس التفكير العلمي، بآيات النظر والاستدلال من خلال كتابه الإسلام في عصر العلم، دون جر الدين نحو النظريات والأمور غير المسلمة.. يقول الدكتور محمد أبا الخيل:

وهناك علماء آخرون تأثروا بطريقة الشيخ محمد عبده في موقفه من هذا التفسير، ولكنهم كانوا أشد منه حذرًا، وأكثر تحفظًا، وأوسع تثبتًا، من هؤلاء الشيخ أحمد مصطفى المراغي الذي نعى على المفسرين السابقين حشوهم لقضايا علمية في تفاسيرهم أثبت العلم في هذا العصر عدم التعويل عليها، ثم أكد أن تفسيره الذي وضعه سيضم آراء

الباحثين في مختلف الفنون التي ألمع إليها القرآن، فلا غضاضة عنده من استطلاع آراء العارفين بمثل هذه الفنون، لأن المفسر في نظره عليه دائمًا أن يسأل العلم؛ ليستبصر بما ثبت لديه، ويساير عصره ما وجد إلى ذلك سبيلاً، على أنه يرفض جر الآية إلى العلوم لتفسيرها أو العكس، ولكن لا بأس في تفسيرها إذا اتفقت في ظاهرها مع حقيقة علمية ثابتة. وكان محمد أحمد الغمراوي من المؤيدين لوجهة النظر هذه، ويُعد من أكثر الباحثين اعتدالاً وروية في هذا المضمار، ووضح ذلك جليًّا في كتابيه: في سنن الله الكونية، والإسلام وعصر العلم.

تصديه لطه حسين ومعاركه مع كبار الرموز:

والغريب أن يهتم أستاذ في الكيمياء بالدين واللغة اهتمامًا يجعله أهلاً لمقارعة كبار رموز الثقافة والفكر في زمنه، وبل والأزمان التي تلت، فقد كان الغمراوي رحمه الله من الذين تصدوا بقوة للدكتور طه حسين في كتابه عن الشعر الجاهلي، بجانب نخبة من كبار مفكري القرن من أمثال: محمد لطفي جمعة والشيخ، محمد الخضر حسين شيخ الأزهر، والشيخ محمد فريد وجدي، والشيخ محمد الخضري، والأمير شكيب أرسلان، والأستاذ مصطفى صادق الرافعي، والدكتور محمد البهي، والقس الأب كمال قله، والدكتور محمد محمد حسين، وغيرهم، فكتب مقالة عن جهل طه حسين بمنهج ديكارت، وثانية عن دعوة طه حسين لليونانية واللاتينية في الأدب العربي..

ومن المعارك التي خاضها الغمراوي مع كبار رموز الثقافة في مصر:

في كتاب المُسَاجَلات والمَعَارك الأدَبِيَّة في مجَال الفِكْر والتَّاريخ والحَضَارَة للأستاذ العظيم أنور الجندي رحمه الله تعالى، ورد الحديث عن معارك الغمراوي، وأن كتاباته كانت فيها حازمة:

- الرد على ما ورد في كتاب النَّثْر الفَنِّيّ لزكي مبارك، وفيه مبحث هام، ذكر فيه الغمراوي أن زكي مبارك خرج في كتابه على الإجماع في أمر القرآن، وينعي في مقدمة الكتاب المؤلف على نُقَّاد القرآن الكريم أنهم ذكروا محاسنه دون عيوبه، وكأنه يرى أن في

القرآن عيوبًا، وفيه يجزم زكي مبارك أن القرآن أَثَر جاهلي.. وقد وجه الغمراوي في المقال لزكي مبارك ثلاثة اتهامات من واقع الكتاب:

1- أنه يدعو إلى نَقْد القرآن.

2- أنه يُنْكِر إعجاز القرآن.

3- أنه يكاد يصرح بأن القرآن من كلام البشر.

- الرد مع عدد من المفكرين على قول طه حسين في كتاب حديث الأربعاء وقوله: إن القرن الثاني الهجري كان عصر شك واستهتار ومجون. وفيه رد: محمد عرفة، وزكي مبارك، ومحمد أحمد الغمراوي، ود. عبد الحميد سعيد. ووَصف د. عبد الحميد سعيد الكتاب بقوله: أما حديث الأربعاء ففيه العَجَب العُجَاب إذ تتمثل فيه الرَّذِيْلَة بأشنع مَظَاهِرِهَا، وتظهر فيه نَفسية الرَّجُل – طَه حُسين– بما يشرحه بعناية خَاصة وإطناب مِن قَصَص المُجُون والفُجُور بأسلوبٍ جَذَّاب وطريقة خَلابة.

- والرد على دعوة طه حسين إلى تحرير اللغة العربية والأدب العربي من سلطان الدِّيْن. وقد رد عليه الغمراوي، ود. علي العناني.

- حسم بمقال له معركة (بين القديم والجديد) التي احتدمت بعد وفاة الرافعي بين أدبي الرافعي والعقاد. (سامي التوني: كتاب فكري ثمين لشاهد عصره)

من آرائه في الحياة الفكرية المصرية:

** يقول عن الغرب: إن الغرب نجا من أن يحاول هدم تاريخه أو تاريخ لغاته، عن طريق الشك غير العلمي: لسيادة الرأي العلمي فيه.. واستحواذ الروح العلمي على أهله..

أما الشرق فليس له مثل هذين السياجين يردّان عنه عادية هذا الباطل الذي يهاجمه باسم الحق، ولا هذا الشك الذي يريد أن يداخله باسم العلم، ولا هذا الهدم والتعطيل اللذين يكرّ عليه بهما نفر من أهله باسم التجديد! ومهما يكن من موقف المؤرخين في الشرق أو في الغرب حيال مبدأ الشك المطلق فإن العلماء لا يأخذون به، وإن العلم لا يقرّه ولا يمكن أن يقره.

** ويقول عن طريقة البحث لدى طه حسين فى كتاب الأدب الجاهلي: يؤسفنى أن صاحب كتاب الأدب الجاهلي ومن لف لفه يسوقون الأدب العربي على غير طريقه، ويلبسونه ثوبًا من غير نسجه، وينسجون عليه نسجًا فرنسيًا، ويسوقونه فى نفس الطريق الذي يسوقون فيها الأدب العربي إلى طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة والغربي عامة. لقد كان الدكتور طه حسين ومن معه يريدون أن يكونوا للعربية ما كان هؤلاء الألمان، فيفنوها في غيرها، ويضلوها عن نفسها، فإذا أنت قرأت لهم رأيت تقليدا بحتًا يعرض عليك باسم التجديد!

** وعن العقاد يقول: يجب أن يُقرأ للعقاد باحتياط وهو يكتب عن الإسلام؛ فالعقاد ابن العصر الحديث، أخذ ثقافته مما قرأ لأدبائه وعلمائه وهو شيء كثير وليس كل ما كتبه المستشرق يقبله المسلم، ولا كل نظريات الغرب متفق وما قرره القرآن، ولكن العقاد اعتقد من هذه النظريات ما اعتقد، فهو ينظر إلى القرآن من خلال ما اعتقد منها، ويبدو أن من بين ما اعتقده العقاد نظرية (فريزر) في نشوء الأديان، فهي عنده ليست سماوية، ولكنها أرضية نشأت بالتطور والترقي إلى الأحسن، ومن هنا تفضيل العقاد للإسلام على غيره من الأديان، فهو آخرها وإذن فهو خيرها، ويقول: إن لم يكن هذا هو تفسير إطلاق تسمية الغربيّين على كتابيه (عبقرية محمد، والفلسفة القرآنية) فهذه التسمية خطأ منه ينبغي أن يتنبه إليه قارئ الكتابين من

المسلمين، لينجو ما أمكن مما توحي به التسميات من أنّ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ عبقري من العباقرة لا نبي ولا رسول صلى الله عليه وسلم، بالمعنى الديني المعروف في الأديان المنزلة.

ويؤكد هذا الإيحاء أنْ جاء الكتاب واحدًا من سلسلة كتب العبقريات الإسلاميّة، ولن يكون أولها. فالناشئ الذي يقرأ بعد عبقرية محمد، عبقرية أبي بكر، وعبقرية عمر مثلاً لا يمكن أن يَسْلم من إيحاء خفي إلى نفسه أنّ محمدًا وأبا بكر وعمر من قبيل واحد، عبقري من عباقرة وإن يكن أكبرهم جميعًا. كالذي سمى النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ بطل الأبطال، فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس، متجدد على العصور بدلاً من صنف اختتم به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ؛ صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله، فالنَّبيُّ والرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم يأتيه الملك من عند الله بما شاء الله من وحي ومن كتاب، ولا كذلك العبقري ولا البطل، فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير. وكم في الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقري، وكلهم يدين له بأنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ إلى الناس كافة ذلك العصر وما بعده وأنه خاتم النَّبيّين.

** وعن العلوم الكونية يقول:

العلم الكوني تفسير لآيات القرآن الكريم الكونية، وفي القرآن آيات تنطوي على حقائق علمية لم تثبت إلا حديثًا، وكل منها معجزة علمية قرآنية تثبت بالعقل والحس الملموس لا باللغة فقط... والقرآن بذلك سبق العلم الحديث إلى حقائق كونية... ويتوقف على فقه الآيات الكونية تيسير الدعوة إلى دين الله في هذا العصر، عصر العلم الحديث... والتفسير العلمي ليس بدعة ابتدعها أصحابها في هذا العصر، بل تجد بين قدامى المفسرين من ينتهجه مطبقين في عصرهم، ما يقابل العلم الحديث في عصرنا كالزمخشري وكذلك الفخر الرازي الذي يمتلئ تفسيره بالتفسير العلمي، وكالشيخ محمد عبده في تفسيره.

** ويقول: إن تاريخ العلوم في الأمة العربية بعد الإسلام معروف كما أن مقاومة العرب للنَّبيِّ ودعوته، ومحاربتهم له ولها معروفة، ولكن الرجل ينكر التاريخ ويفتري تاريخًا آخر، ويزعم زعمًا لا يجوز ولا يستقيم في منطق أو تفكير إلا إذا كان القرآن كلام النَّبيّ، كلام محمد العربي، لا كلام الله. عندئذٍ فقط يعقل أن يكون العربُ على ما وصف الدكتور من نهضة، وعلم، وأدب؛ لأن القرآن أكثر من نهضة وعلم، وأدب، ولا يعقل إنْ كان كلام بشر أن يأتي صاحبه في أمة جاهلة كالتي أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربية من شرقيين ومستشرقين ومؤرخو الإسلام.

** ويقول: إن على علماء الفطرة من المسلمين أن يهتدوا في بحوثهم الكونية بما أنزل الله في كتابه من آيات كونية. لكن النظر في الآيات الكونية ابتغاء الاهتداء إلى ما أودع الله فيها من أسرار الفطرة أو الطبيعة كما يسمونها – يحتاج من الاحتياط في البحث عن أسرار الفطرة في الكون المنظور. وأهل القرآن من علماء الفطرة ينبغي أن يسترشدوا في بحوثهم بما يتعلق بها مما أنزل الله في كتابه العزيز، فهو نور بأيديهم لا بأيدي غير المؤمنين به، ومن التضييع إغفاله وإهمال فرص الاهتداء.

** ويقول في كتابه: الطريقة المثلى للمحافظة على كرامة الإسلام ورد عادية الطاعنين عليه، عن التربية المبكرة وأهميتها: وأسباب ضعف الروح الإسلامي في البالغين من المسلمين اليوم يمكن إجمالها في شيء واحد هو سوء التربية الإسلامية..

وإذن فَعَلى المسلمين أن يعنوا العناية كلها بإنشاء أولادهم نشأة إسلامية في مدارس إسلامية ينشئونها من أجل ذلك.، ولا يَدَعوا أولادهم فريسة للمدارس غير الإسلامية الروح، تُربيهم على غير غِرار الإسلام، وتخرجهم عنه بالتدريج، فإن المسلمين إن لم يصونوا أولادهم – وهم صغار عن تحكم الملحد أو غير المسلم في عقولهم ونفوسهم لم يكن لهم أن يعجبوا من خروجهم – وهم كبار عن طريق الدين، ومتابعتهم من يطعن باسم العلم أو الأدب أو حرية الرأي أو حرية التفكير.

** ومن آرائه في التفسير: يقول: فأقم وجهك للدين حنيفا: فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ لا تبديل لخلق الله! ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الآية الكريمة لا تجعل الإسلام فقط دين الفطرة، ولكن نفس الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذا أوجز تعبير وأوكده وأشمله، بتمام انطباق الإسلام على سنن الله التي خلق عليها الإنسان، سواء تعلقت بالبدن أو النفس، وبالعقل أو القلب، في الفرد والأسرة والطائفة، أو في القبائل والأمم والشعوب.

** ويقول: هارون أفصح من موسى عليهما السلام، وأكبر منه بثلاث سنوات، وهما ميزتان تسوغان تقدمه في أحد المواضع حين يذكران.

وفي التحدي بالإتيان بمثل القرآن يقول:..... ولعل هذا التحدي جعل العقل يقف صامتا ومن ثم يتعطل الفكر جامدا من خوض هذه المعركة الضارية الخاسرة [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] ويري دكتور الغمراوي كما تقول د. عائشة الغبشاوي أن التحدي في السورة الثانية يونس حسب ترتيب النزول نزل من عشر سور إلى واحدة فقط، وهذا نوع من الترقي واضح في هذا التحدي؛ يقول الله تعالى: [وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ] والحجة القاطعة في ذلك إغلاق الكفار لعقولهم، وبالتالي حبسهم للفكر من الانطلاق في عالم الملكوت (عالم الشهادة) للوصول إلى عالم الملكوت الأعلى (عالم الغيب) فإن الحقيقة الكونية هي المسلم الذي من خلاله نتوصل إلى الحقيقة.

والمحور الحقيقي الذي تدور حوله المواجهة الفكرية والثقافية هو العلم الذي يغوص في أغوار العقل الإنساني فكرا منقبا ومتمحصا في الحقائق الكونية التي هي مرآة العقل للوصول إلى أعلى درجات العلم والمعرفة. ومن هذا نتج اهتمام الإسلام بالعلم؛ المولود الشرعي للفكر.

معرفته بالإنجليزية:

كان الأستاذ الدكتور الغمراوي متقنًا للإنجليزية إلى حد مراجعته لترجمتين شهيرتين لمعاني القرآن الكريم، إحداهما بقلم عبد الله يوسف علي، وهي بلغة إنجيلية أو توراتية كلاسيكية، وتعد واحدة من أهم الترجمات أو التفاسير، وأكثرها تأثيرًا في قلوب الغربيين، وبها اهتدى ألوف من الناس..

والترجمة الثانية للمهتدي البريطاني محمد مارمادوك بِكتال الذي قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية، مستعينًا بالدكتور محمد أحمد الغمراوي، ولغتها شاعرية إلى حد ما، وهي أول ترجمة يقوم بها إنجليزي مسلم!

علاقاته بالمفكرين:

مر فيما سبق أن الغمراوي كان واحدًا من نجوم الفكر والثقافة والعلم، وكان ذا صلة بالأمير شكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب وطه حسين والعقاد وزكي مبارك وعلي مصطفى مشرفة وشيوخ الأزهر وآخرين كثيرين ممن أثرت بهم الحياة الفكرية المصرية وأخصبت.

كتب الأستاذ محمد أحمد الغمراوي:

ترك الغمراوي عددًا من الكتب والأبحاث في غير الكيمياء منها:

- النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، ودبج مقدمته أمير البيان شكيب أرسلان.
- من أسرار الفطرة: يذلل المعاني العلمية الحديثة المتصلة بالمادة والإشعاع/ تأليف ا. ن. داس أندريد؛ ترجمة محمد أحمد الغمراوي، وأحمد عبد السلام الكرداني .
- من سوء تأويل الآي، مجلة المسلمون.
- الإسلام في عصر العلم

- **نماذج من الإعجاز العلمي للقرآن، إعداد أحمد عبد السلام الكرداني، عن كتابات الغمراوي.**

صورة تجمع أعضاء الوفود التي حضرت مؤتمر جمعيات الشبان المسلمين في مصر وغيرها من البلدان وذلك في المقر العام للجمعية في القاهرة يوم ١٠ يوليو ١٩٣٠. الجالسون في الصف الأول من اليمين إلى اليسار: أحمد زكي الطاهر – عثمان عبد الله – هاني أبو مصلح – الدكتور عبد الحميد بك سعيد رئيس الجمعية – سامي السراج – أبو الحسن – الشيخ علي عبد الكريم

الصف الثاني من اليمين إلى اليسار: الشيخ يحي أحمد البطة – الدكتور حسني الطاهر – قطب زهران – الدكتور منصور القاضي – الدكتور يحي أحمد الدرديري – محمد رفيق اللبابيدي.

اليمين إلى اليسار: محمد أحمد الغمراوي – محمود علي فضلي – محب الدين الخطيب – الصف الثالث من الناغي محمد

الجالسان: العلامة الغمراوي، والعلامة أحمد عبد السلام الكرداني، والواقفان: العلامة علي مصطفى مشرفة، والعلامة إسماعيل القباني

الغمراوي في سطور

- ولد رحمه الله تعالى في 9/ 6/ 1893 وتوفي في 5/ 3/ 1971.
- لم يدرس فى مدرسة كشك أول مدرسة أنشئت في زفتى سنة **1905**؛ إذ أنشئت بعد التحاقه بالدراسة في مدرسة طنطا الابتدائية، وأنهى دراسته بها **1907**، ثم التحق بمدرسة الخديوية الثانوية وأنهى دراسته بها **1911**، ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا وانتهى منها عام **1914**ز
- ابتعث لانجلترا وإن أخرته الحرب العالمية الأولى بعد قليلاً – لكنه ذهب إلى هناك وزامل العباقرة الثلاثة مشرفة والكرداني وأحمد زكي، رحمهم الله أجمعين. وكان رحمه الله قد أتم حفظ القرآن الكريم فى الثالثة عشر من عمره..
- جميع إخوته الذكور درسوا بالأزهر، و أخوه الأكبر الشيخ محمود كان عضوًا في هيئة كبار العلماء بالأزهر. وقد فهمت من السيدة ابنته أن إخوته جميعًا كان اسمهم محمدًا، وقد جمعت بعض أشعار أحدهم حين كان نائبًا في مجلس بلدي زفتى.
- لا تزال مكتبته الزاخرة محفوظة في منزله بحي العباسية، وإن كانت تنقصها بعض كتبه التي أعيرت ولم ترد..
- له ثلاث بنات وثلاثة أبناء، هم على الترتيب: ثريا وأحمد وكوثر وزينب وعلي ومحمد.
- ليس له بيت في زفتى الآن، كما فهمت من حفيده، وموقع بيته القديم كان قريبًا من النيل، في المنطقة بين شبكة مياه زفتى والجامع الكبير..

رحم الله العالم الكبير الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي، وأكرم مثواه.

الشيخ عبد المعز عبد الستار: أغبطه وهم يدفنونه!

عليه رحمة الله ورضوانه؛ فلقد جدد الأحزان بنزع العلم، وقبض العلماء! رأيت الكبار والصغار، والرؤساء والأمراء يقبلون رأس العلامة القرضاوي في كثير من الود والإكبار، لكني رأيت القرضاوي يقبل رأسه أكثر من مرة، وينحني له ليكلمه في كثير من الود والإكبار! فأيقنت أن للرجل شأنًا عظيمًا، عرفت سره بعد أن حاورته، وجالسته، وسمعته كلام كبار رجالات الدعوة عنه، وعلمت أنه من الجيل الأول الذي ارتبط بالشيخ الموهوب العظيم حسن البنا، وأشربت قلوب أفراده دعوته، فتحمس لها، وعاش بها، وعانى في سبيلها..

إنه الشيخ المجاهد العالم الرقيق الهمام عبد المعز عبد الستار تغمدنا الله برحمته وتغمده.

ولا تندهش قارئي الكريم إذا قلت إنني غبطته ساعة دفنه! نعم؛ غبطته في لحظاته الانتقالية بين الأرض وبين اللحد، وذكرت قول الشاعر:

هم (يحسدوني) على موتي فوا أسفي حتى على الموت لا أخلو من الحسد!

غبطته على المقبرة، وقلت لنفسي: يا ليت لي مثل ما أوتي عبد المعز؛ إذ تجمع لتشييعه حشد كبير من الوجوه الطيبة، والعقول النيرة، والقلوب السمحة! جاؤوا يودعونه، ويصلون عليه، ويحضرون دفنه، وينتظرون معه حتى سؤال الملكين.. إنه لذو حظ عظيم! وغبطته على خاتمته، وقلت لنفسي: يا ليت لي مثل ما أوتي عبد المعز؛ حين رأيت

القرضاوي يصلي عليه، ثم يصر على حمله مع المشيعين، ثم يطيل الوقوف على قبره داعيًا باكيًا – رغم صعوبة ذلك على الشيخ متع الله به وتخيلت أن لو كان الغزالي، وصلاح أبو إسماعيل، وسيد سابق، وعبد العظيم الديب، والتلمساني، والهضيبي، بل وحسن البنا نفسه، أحياء، لوقفوا على قبره، وأطالوا الوقوف كما أطال القرضاوي! وغبطته على سنه، وقلت لنفسي: يا ليت لي مثل ما أوتي عبد المعز؛ من طول عمرٍ، وحسن عمل، وشهادات الناس له بالخير – أحسبه، والله حسيبه، ولا أزكيه على الله تعالى ولا غيره – فقد عُمِّر حتى أتم سنته الهجرية المائة، والميلادية السابعة والتسعين، مع حضور ذهن، وشباب قلب، واشتعال همة وعزم!

وغبطته على سمعته، وقلت لنفسي: يا ليت لي مثل ما أوتي عبد المعز؛ حين فتحت الإنترنت باحثًا، فوجدت عشرات المواقع المعرِّفة، والمعَزِّية، والراثية، والباكية، ووجدت كلمات الترحم، وعبارات الاستغفار له أكثر من أحصيها!

وغبطته على تاريخه الطويل، وقلت لنفسي: يا ليت لي مثل ما أوتي عبد المعز؛ داعية ومجاهدًا، وكاتبًا ولغويًّا، ومربيًا ومؤدبًا، وخطيبًا وأديبًا، ورفيقًا وشفيقًا!

كان له من اسمه نصيب وافر، فقد كانت فيه عزة ظاهرة، لا تحتاج لإدراكها تدقيقًا:

• تلمسها من سيرته ومن تاريخه، منذ روى الشيخ القرضاوي أن زبانية السجن الحربي إبان محنة الإخوان عام 1954 – كانوا يجلدونه بالسياط، وهو يهتف فيهم بصوته الجهير: اضربوا يا كلاااااب.. اضربوا يا أنذاااال.. لايذل ولا ينحني!

• وتلمسها في خطبه إذا هو خطب، وأحاديثه إذا هو حدث؛ لترى الاستعلاء بالله تعالى، والاعتزاز بالإسلام..

• وتلمسها في معاملته لرجال أمن مبارك الظالمين حين يكون في المطار؛ إذ اعتادوا أن يحتجزوه – رغم أنه بلغ المائة من السنين عدًّا – فيصيح فيهم: خربتوها يا أولادال..... ماذا تريدون غير ذلك!؟ ألم يكفكم ما فعلتم؟! فاضطر الضابط أن يأذن له بعد احتجاز!

• وتلمسها حين يحدثك عن فلسطين والجهاد ودوره في شبابه في أربعينيات القرن

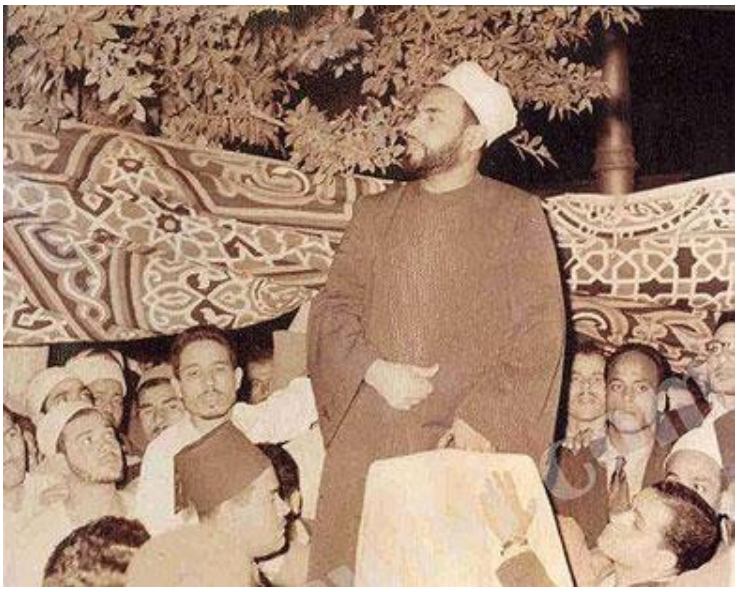

الفائت وما بعد، حين كان أول مبعوث يوفده الإمام البنا؛ ليساعد، ويحث، وينشِّط، وينظم، ويعبئ!

وقد وثق ذلك من أرخوا للحركة الإسلامية، والجهاد في فلسطين، ومنهم الدكتور إسحاق موسى الحسيني الذي قال: "الإخوان في مصر أخذوا يرسلون الرسل إلى فلسطين، يبسطون الدعوة بسطًا وافيًا في المساجد، ونتج عن ذلك أن انتشرت الدعوة أولاً على الألسنة، ثم صار لها أنصار ومؤيدون، ثم جاء مندوب من قبل الإخوان (عبد المعز عبد الستار) واحتفل بافتتاح فرع في القدس في 1946/5/5 حضره ما يزيد عن ألفي شخص، وتكلم في هذا الاجتماع جمال الحسيني نائب رئيس اللجنة العربية العليا، وقال إنه تمنى منذ تسع سنوات أن تنتشر دعوة الإخوان في فلسطين، وإن أمنيته قد تحققت الآن، وأعلن انضمامه إلى الإخوان، وحلى صدره بشعارهم.

وبعد انتهاء الاحتفال جمع 1871 جنيهًا فلسطينيًّا لبناء دار. وأخذ فرع القدس فيما بعد ينظم المحاضرات يلقيها فلسطينيون، وأحيانا زوار من إخوان مصر، ثم أنشئت الفروع في سائر مدن فلسطين، فأنشئ فرع في يافا، وفرع في اللد، وفرع في حيفا انضمت إليه جماعتا (أنصار الفضيلة) و(الاعتصام) وكان ذلك بحضور مبعوث المركز العام في القاهرة (عبد المعز عبد الستار)، وأنشئ فرع في طولكرم، بحضوره أيضًا.

وكثيرًا ما كتب القرضاوي عنه في مذكراته، ومما كتبه عن جهاده: وفي سنة 1946م أرسل العالم الداعية الشيخ عبد المعز عبد الستار، ليطوف بمدن فلسطين مشرقًا ومغربًا، لتنبيه العقول، وإحياء القلوب، وإشعال المشاعر، وتجميع الصفوف، وقد بقي الشيخ عبد

المعز كما سمعت منه شهرين كاملين في فلسطين، ولكنه عاد من هناك يحمل همًّا كبيرًا، ويشفق على مصير فلسطين؛ فحينما زار المسجد الأقصى لم يجد فيه غير صفين من المصلين أو ثلاثة، فآلمه ذلك أشد الإيلام، ولما قال لبعض المقدسيين ذلك، قال له: صحيح أن الصلاة ثقيلة عليهم، ولكن إذا ناديتهم إلى المعركة لبوا النداء في سرعة البرق. وقال لهم الشيخ: إن أول الجهاد أن نجاهد أنفسنا، وأن ننتصر عليها، والله تعالى يقول: (استعينوا بالصبر والصلاة).

ومما لاحظه الشيخ أن القادة كلهم غائبون، الحاج أمين الحسيني منفي في الخارج، والآخرون متفرقون، كما لاحظ أن اليهود يعملون ليل نهار، وفي غاية من اليقظة والاستعداد، والعرب ليسوا على هذا المستوى، ولهذا حين عاد إلى مصر قال للأستاذ البنا: الحقيقة أن دولة اليهود قائمة بالفعل، ولا ينقصها إلا الإعلان عنها! كان عضوًا في مكتب الإرشاد الثاني مع محمد حامد أبو النصر، وعمر التلمساني، وعبد القادر عودة، وعبد الرحمن البنا، وعبد الحكيم عابدين، ومحمد فرغلي، وحسين كمال الدين، ومحمد خميس حميدة، وكمال خليفة، وأحمد شريت، وعبد العزيز عطية، بجانب منير أمين دلة، وصالح أبو رقيق، والبهي الخولي، وعرف رموز العمل الوطني والإسلامي الصادقين خلال القرن العشرين، كالحاج أمين الحسيني، والشيخ عزّ الدين القسّام وأمثالهما، ثم جاء إلى قطر عام جاء القرضاوي، ليعمل في التوجيه والتأليف والإشراف على مناهج العلوم الشرعية، وانتهى عمله الوظيفي منتصف سبعينياته رئيسًا لتوجيه العلوم الشرعية، ولقي من تقدير الدولة وشيوخها ووجهائها كل التقدير والإكرام، وإلى حكمته السياسية وحنكته الدعوته، وحرصه على بلده وإخوانه في مواقف كان الصدام فيها سيفضي إلى مواقف غير حميدة، يشير الأستاذ عباس السيسي:

كان مساء الخميس من كل أسبوع فى المركز العام القديم من عام 1940 موعدًا للقاء دائم لفضيلة المرشد العام مع الطلاب. وكانت محاضرة ذلك اليوم (نظرة الإسلام للمرأة)، وبينما فضيلته يتحدث إلينا إذا بجلبة تحدث خارج الصالة، ويتقدم أحد الإخوة

بورقة مكتوبة، فيقرؤها الأستاذ المرشد، ثم يستأذن معتذرًا عن المحاضرة ويخرج.. وبعد فترة يعتلي الشيخ عبد المعز عبد الستار المنصة، ويتحدث إلينا حديثًا حماسيًّا ينبئ أن في الأمر شيئًا، نتبين بعده أنه قد صدر أمر عسكري بنقل الأستاذ إلى قنا!

.....: وحين سدد الإخوان ثمن الدار وتم تأثيثها، دعا المركز العام الإخوان للاحتفال بافتتاح دارهم الجديدة، وأعد لذلك استعراضًا لجوالة الإخوان فى حدود عشرين ألفًا يمثلون جميع الشعب والمناطق فى أنحاء البلاد، وأعد لتلك الفرق الوافدة مراكز إيواء، مجهزة بكل وسائل الراحة والتموين.

وبينما كانت وفود الإخوان فى طريقها إلى القاهرة عصر يوم الخميس استعدادًا للاحتفال الكبير فى صباح يوم الجمعة، صدر قرار من دولة أحمد ماهر باشا رئيس الحكومة بمنع الاحتفال و الاستعراض، ولكن أكثر المدعوين كانوا قد وصلوا إلى القاهرة، واستضافتهم مراكز الإيواء! فصدر توجيه من المركز العام بأن يؤدي الإخوان جميعهم صلاة الجمعة في الجامع الأزهر. وما أن أقترب موعد الصلاة حتى لم يعد في ساحة المسجد متسع لأحد في الوقت الذي حاصرت قوات الشرطة كل الطرق المؤدية إلى المسجد!

وما أن انتهت الصلاة حتى اشرأبت الأعناق إلى الشيخ عبد المعز عبد الستار الذي كان موجودًا بالمسجد.. فقال فضيلته بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بصوت قوي: أيها الإخوان: نحن لم نلتق في هذا المسجد على شكل مظاهرة، وإنما ليس في القاهرة

بعد قرار مصادرة الاحتفال بافتتاح دارنا مكان يتسع لهذا اللقاء في شكله وفي مضمونه سوى الجامع الأزهر.. وصاح: الأستاذ أيها الإخوان: إننا لسنا راغبين فى إثارة، ولا خائفين من أية قوة، ولكننا أبعد نظرًا من أن تستفزنا الحوادث؛ فنغامر بأمر دعوتنا، وإننى والله أيها الإخوان لأضع الحق في يميني وأضع روحي في يساري، لا أخاف في الله لومة لائم، وليس أعظم في الصبر من أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، والآن أيها الإخوة لقد حققنا بهذا اللقاء بعض ما تجيش به نفوسنا بنحوكم، كما أنكم أعلنتم بهذا اللقاء مدى ارتباطكم بدعوتكم في دقة التنظيم، وسرعة الاستجابة، وضبط النفس، فإنى أهيب بكم أن تنصرفوا في هدوء مشكورين مأجورين، ولا تعطوا لأعدائكم فرصة الاصطدام بكم! ودوى المسجد بالهتافات الإسلامية، وبدأت هذه الجموع تنصرف في هدوء ونظام، ولا أكون مبالغًا إذا قلت إن بعض الإخوان غلب عليهم البكاء والنشيج من جلال الموقف وروعته، وخرجت الوفود من الجامع جماعات في صمت.

كان جسيمًا طويلاً عريضًا، آتاه الله بسطة في الحسم والعلم والهمة والعزمة، وكان – مع ذلك رقيقًا بكاءً، يحرص أن يخفي دموعه، التي كثيرًا ما كانت تخذله وتشي به؛ فهو صلب في الحق جريء عنيف، وفي حياته رقيق بشوش ودود عفيف. وكان حريصًا على القراءة حتى آخر أيامه؛ رغم ضعف الصحة وثقل السمع، وكان فصيحًا أنيق العبارة، حتى إنه اشتهر منذ مقتبل عمره بفصاحته، وتدفقه في الخطابة، وكان حريصًا على أن يتخصص في العربية في دار العلوم، لولا أنه سمع قول الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله) فأدار ظهره لدار العلوم، والتحق بأصول الدين، ليصير أحد أبرز دعاة القرن!

ومن عجائبه أنه كان متابعًا للسياسة بشكل لصيق، اهتمامًا بأمر المسلمين، وإحساسًا بمسؤولية المجاهدين، وكان من أعماقه مع شباب 25 يناير، يتابع جهودهم وأخبارهم، ويدعو لهم، وينتظر ثمرة جهادهم!

متأكد أنا أن حضرتك ستقرأ عنه في الأيام القادمة كثيرًا..

رحمه الله وأجزل له المثوبة، وجمعنا به في رضوانه، اللهم آمين!

نعي الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين للشيخ عبد المعز:

تلقى الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بقلب مفعم بالإيمان، ونفس صابرة راضية بقضاء الله تعالى وقدره، نبأ وفاة العالم المربي، الداعية إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، المجاهد الكبير في فلسطين وغيرها، الشيخ عبد المعز عبد الستار، فقد قضى عمره المديد في الدعوة إلى الله تعالى وتحمل في سبيله الكثير والكثير من السجن والأذى مع إخوانه في مصر الحبيبة. وقام بتربية أجيال عظيمة على المنهج الوسط من خلال كتبه التربوية، ووظائفه العليا في دولة قطر العزيزة، ومن خلال خطبه ومقالاته، فكان حقا أحد أعلام التربية والتزكية والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كما كان أحد المجاهدين العظام الذين رفعوا رايات الجهاد في فلسطين منذ فترة الثلاثينات، فرحمة الله عليه رحمة واسعة، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً) الأحزاب:23.

والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين إذ ينعي إلى الأمة الإسلامية فقيدها المجاهد العالم الكبير الشيخ عبد المعز عبد الستار يرحمه الله ليقدم تعازيه الحارة إلى أهله الكرام وأولاده الفضلاء، وجميع إخوانه ومريديه ومحبيه، سائلا الله تعالى أن يلهمهم الصبر والسلوان.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

رئيس الاتحاد/ أ.د يوسف القرضاوي

الأمين العام/ أ.د. علي محي الدين القره داغي

الدوحة في: 10 جمادى الأولى 1432هـ/ الموافق 14 أبريل2011م

مع د. مراد هوفمان، وأ. يوسف ذنون

على اليمين الدكتور شوقي دنيا ، وعلى اليسار الدكتور عكرمة صبري مفتى القدس وخطيب الأقصى

العلامة الدكتور درويش الفار الجيولوجي الأديب المؤرخ الصحفي

لو قلتَ إنه جيولوجي حاذق متمرس، جاب سيناء، فسبرها، وخبر طرقها، وفك مغاليقها وأسرارها، وقطع مسالكها ودروبها ومغاورها وأغوارها، واكتشف فيها ما لم يُسبق إليه، لقلت إنك صادق فيما ذهبت إليه، وأقل دليل على هذا تكريم الرئيس عبد الناصر له كجيولوجي بارز في الستينيات؛ لأنه اكتشف مناجم الفحم في سيناء في (وادي الصفة) بجبل المغارة في يوليو سنة 1964م، ونال على كشفه هذا جائزة الدولة التشجيعية في العام ذاته، ثم وسام الجمهورية من يد ناصر شخصيًّا عام 65، كما أنه كتب عشرات المقالات المدهشة عن سيناء، وطور سيناء، وبدو سيناء، وطبائعهم وعوائدهم وأخلاقهم في (مطالعات ثقافية)! هذا بجانب رئاسته للجيولوجيين بالمساحة المصرية، وعمله مديرًا للمتحف الجيولوجي بالقاهرة، وعضويته في عشرات النقابات والمجامع والبعثات الجيولوجية المصرية والعربية والدولية، وتأسيسه متحف قطر الوطن وإدارته، ومقالاته في الأمة والدوحة ودنيا العلوم والدعوة والأهرام ومنار الإسلام، وغيرها الكثير!

ولو قلتِ إنه بدوي عاشق للصحراء، يعرف البدو وطباعهم، وطرائق عيشهم، وأعرافهم، وقضاءهم، ولغاتهم، وقبائلهم ببطونها، وعشائرها، وأفخاذها، وإن لهجته رغم مرور نحو أربعين سنة عليه في قطر لم تتغير حتى إنك لتظن أنه لم يبرح العريش حتى ساعتنا هذه، يظهر ذلك في لهجته، وتفاعله، وفلتات لسانه، ولحن قوله، بل في لهجة أبنائه!

لو ظننت ذلك ما لمتك، فالرجل هو هو، لم يتغير خلقه ولا لسانه؛ رغم تقلبه في بيئات تغير النفوس، فكم قابل من الرؤساء الكبار، والملوك المشاهير، والشخصيات الأكاديمية التي يتخافت الناس بأسمائها إكبارًا ومهابة!

ولو قلتَ إنه لغوي أديب لوافقتك مباشرة، فهو رغم دراسته العلمية من الجيل القديم الذي عشق العربية، وانطبع بها ذوقًا، ونطقًا، وتعبيرًا، وجمعًا، وحفظًا قبل أن يقع تبغيض العربية إلى الناس، فكنت ترى الرجل أيام العز طبيبًا فصيحًا، وكيماويًّا فصيحًا، وصيدلانيًّا فصيحًا، وجيولوجيًّا وفصيحًا، في حين أننا نرى أساتذة جامعيين متخصصين في العربية عجم الألسنة، مدمنين للحن، مقطوعي الصلة بالبلاغة، وحلاوة المنطق؛ تحس بذلك مباشرة من أول سطر تقرؤه من مقال أو كتاب، وكذا حين تعرف أن له ديوانًا شعريًّا أسماه ديوان الصحراء، وجمع فيه أشعاره الفصحى والنبطية!

ولكم أدهشني مدخله، في إحدى مقالاته في مجلة الدوحة أوائل الثمانينيات قبل أن أدخل قطر أو أراه وأجالسه، حين كتب عن كراتشكوفسكي المستشرق الذواقة للعربية الذي كان عائدًا إلى الإمبراطورية الروسية ذات سفر، فوصلته مخطوطة كان يسعى لاقتنائها، مبدوءة ببيتين من بائية سلامة بن جندل التي مطلعها:

ولي الشباب حميدًا ذو التعاجيب..... أودى وذلك شأو غير مطلوب

ولى حثيثًا وهذا الشيب يتبعه..... لو كان يدركه ركض اليعاقيب

فطرب عمنا أغناطيوس بن يوليانوفيتش كراتشكوفسكي، وألغى سفره ليعكف على دراسة المخطوطة وتحقيقها؛ بعد أن أطربه من المطلع (لو كان يدركه ركضُ اليعاقيب!). ولو قلت إنه موسوعي النظرة شامل القراءة لكنت محقًّا، فالرجل يقرأ في الكيمياء والجيولوجيا، كما يقرأ في التاريخ والأدب والدين والطب والصحافة، كما يقرأ في الاقتصاد والسياسة، وله آراؤه ونظراته المطربة المعجبة، وسأدلل على ذلك آخر المقالة! ولو زعمت أنه صحفي لصدقَتْك في ذلك مئاتُ المقالات الرشيقة البليغة الحافلة، التي كتبها في الصحف، معالجًا شؤون الساعة، على مستوى الدين والدنيا، الفرد والمجتمع، الأصدقاء والأعداء، الأقربين والبعداء، باختصار وإعراب وإطراب!

ولو وقع في روعك أنه رغم بداوته ظريفُ المحضر، لطيف المعشر لما عدوت الحقيقة؛ فسيبادئك بالتحية، ويبادهك بالطرفة، ويرحب بك ترحيب العربي الأصيل الذي

لم تزيفه الحضارة، فلا يعدو الكرم عنده أن يكون جودًا لفظيًّا واستعراضًا للكرم وهميًّا! ومن لطيف جوده أنني كنت أزوره في مكتبه أيام كان مديرًا لمتحف قطر الوطني، فكان لا يرضى أن أخرج قبل أن ينفحني زجاجة عطر من العطور التي كان يصنعها بنفسه، من تلكم الأزهار الحضرية المعروفة، أو الأعشاب البرية السيناوية، التي يحفظ خصائصها ومزاياها كالربل والجعد، والشيح والقيصوم، والعرفج والشكران، والعرعر والبعيثران، والشومر وعنبة الحية!

ولو ارتأيت أنه أكاديمي صارم، ومنهجي صليبة لما جاوزت الصواب؛ فقد شاكس المعجميين، وناضل المتفيهقين، حتى إنه كتب في إحدى (محطاته) عن الخزامى والنقير والقطمير، مصححًا خطأً علميًّا سقط فيه المؤلفون (العلميون) عن ترجمة لفظة اللافندر – وهو مجيد للإنجليزية كاتب بها ومترجم لها وكان مما كتب:

(...النظرة الأولى السطحية تؤدي عند عدم التروي إلى الظن بأن اللافندر Lavender هي الخزامى، وكفى الله المؤمنين مشقة التعرف العلمي على كل من هاتين الزهرتين، وعائلة كل منهما في مضمار عالم تصنيف النبات وإرجاعه إلى عائلات، وعشائر، وأجناس، وأنواع؛ ليجد الباحث المدقق أن كلاً منهما ينتسب في علم النبات إلى عائلة مختلفة، لا صلة لها علميًّا بالأخرى.

وحين نقارن هذه السطحية التي نعايشها في أيامنا العربية العجفاء، بمقدار الدقة العلمية التي كان عليها أجدادنا أيام ارتفعت راياتنا خفاقة فيما بين الأندلس غربًا وخراسان شرقا نجد عجبًا: توصل أسلافنا أيام العز والمجد إلى قدر من الدقة والإتقان لم يسبقهم إليه أحد من الأمم الأخرى، وترى ذلك على سبيل المثال لا الحصر في تلك الأسماء الفصحى التي أطلقوها عن بحث وروية على شيء صغير، وذلك هو نواة البلح أو التمر!

فالنواة، تلك الخشبة الصغيرة، فيها النقير والقطمير والفتيل، ولكل من هذه الأسماء ميزة من ميزات النواة، وعندما يقارن المرء هذه الدقة الفاحصة التي كانت لدى الأجداد، والتي

أهلتهم لحمل راية حضارتهم زهاء ثمانية قرون يعلِّمون، ويحضِّرون، ويمدنون الناس رغم اختلاف اللغات والألسنة والجذور والأصول العرقية.

أقول عند مقارنة هؤلاء بمن جرتهم السطحية الفجة إلى ترجمة اللافندر إلى الخزامى، يدرك السبب الذي أدى بنا إلى ما نحن فيه من هوان، حتى على رعاة البقر والخنازير!

ولو قلت إن له من اسمه نصيبًا لكنت مصيبًا، فهو درويش بحق، فيه هذه النزعة الصوفية

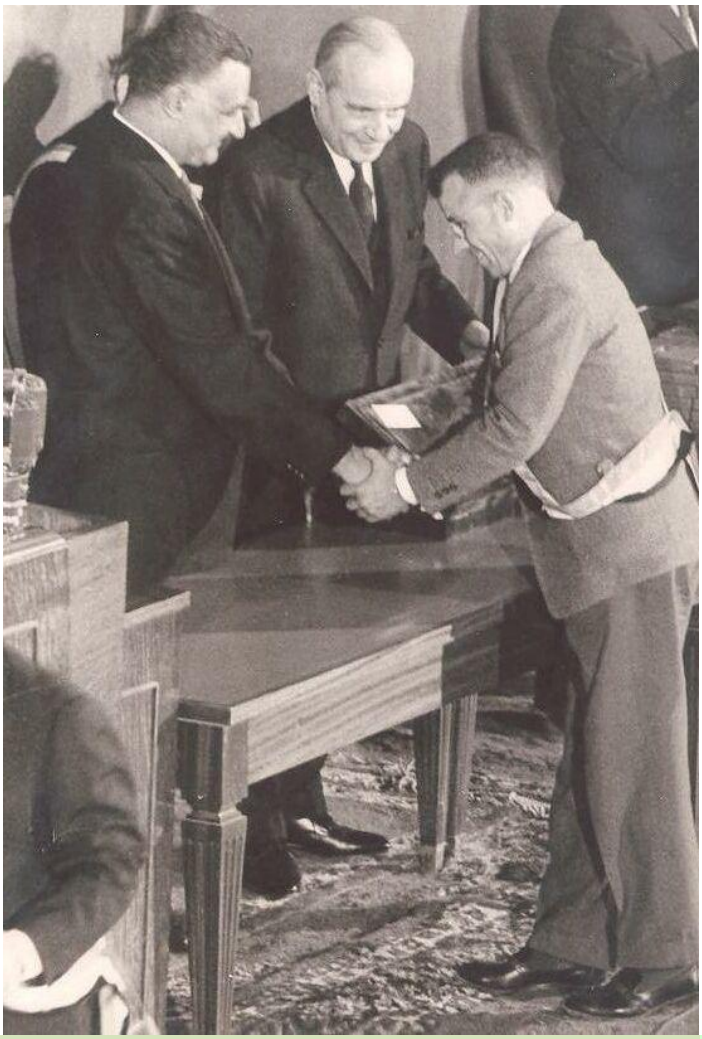

درويش الفار ينال جائزة الدولة من عبد الناصر، والدكتور أحمد رياض تركي

التي استصحبها من طفولته، وبيئته المتدينة، ربما بشيء من المبالغة التي تزعج أحيانًا من لا يعرفه، فإذا اقتربت منها وجدته ذلك اليقظ النبيه المدقق الحصيف، الحدب على الشريعة وثوابتها، المقتنع بمنهجيتها وعقلانيتها، الرافض للبلاهة والادعاء! ولست في حاجة إلى أن أقول إنه دَيِّنٌ عابد ولا أزكيه على الله تعالى فهو معظِّم للدين والشعائر، محارب للبدع والخرافات، والدجل والشعوذة باسم الدين، عارف بالقرآن والأحكام، محب للعلم والمشايخ، على صلة بهم، ولم ينقطع عنهم نسبيًّا إلا بعد أن تمادى به السن قليلاً، وضعف سمعه، متع الله به!

درويش الفار مصري رجل من النوادر، لا يعرفه المصريون، ولم يسمعوا به – خصوصًا أجيال الشباب الذين لا (ينكشون) عن أهل العلم، ولا يفتشون عن أولئك الذين يتركون بصمات بناءة، مما ينفع الناس ويمكث في الأرض!

وهو في زعمي أحد جيولوجيين مصريين ثلاثة كبار ضخام، ربما كان أسنُّهم: والآخران هما العالمي فاروق الباز، والعلامة زغلول النجار حفظهم الله أجمعين ومتع بهم، وإن كان الآخران أشهر ذكرًا، وأكثر حضورًا بسبب الإعلام، والزمان، والمكان!

وله وجهات نظرٍ واضحة في السياسة وإنقاذ الأمة، وقد حاورته مفكرة الإسلام فتكلم مصرحًا، لا مكنيًا ولا ملمحًا:

... إن الولاية على الناس لا تكون إلا بطريقتين: الاقتدار أو الاختيار، وإن الولاية على شعوبنا المسلمة لا تزال بالاقتدار، الذي يجُمَّل ليشتبه في كونه جاء بالاختيار، من خلال الاستفتاءات والانتخابات التي يحيط بها الشك، وإن غياب الشورى صاحَبه مبدأ آخر وهو غياب العدل بين الناس، على الرغم من الحديث الشريف الذي بشر الحاكم العادل بأنه من بين السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة....!

وإن أنظمة الحكم في الدول الإسلامية تتسم بكونها تعتمد على الشللية والعائلية، ورجالها من أهل الثقة وليس أهل الخبرة، الأمر الذي يفسر تأخر محاولات الاندماج والوحدة بين الدول العربية على الأقل، كبداية ونموذج للتوحد بين بقية الدول الإسلامية، حيث ينقص الدول العربية التخلص من نغمة الشوفينية [التعصب] وهو الأمر الذي لا نجده بين الدول الأوروبية، التي استطاعت توحيد أوروبا، واستخدام عملة واحدة؛ على الرغم من مذاهبهم الدينية المختلفة، وأصولهم المختلفة العرق.

ويواصل رصده للمشكلات الداخلية للأمة الإسلامية، ومنها ضعف الاهتمام بالبحث العلمي الذي يعد ركيزة التطور الحقيقي في العصر الراهن والعصور المقبلة، وذلك مقابل الاهتمام الكبير بالبحث العلمي من جانب أعداء الأمة والمتربصين بها، حيث أصبحت الدول الإسلامية سوقًا رائجة للاختراعات العلمية وتطبيقاتها من جانب الغرب بصفة

خاصة، ويصاحب ذلك أن يستقطب العقول المبشرة بالأمل من أبناء المسلمين ليستفيدوا من توظيفها لصالحهم، وذلك بعد أن أصبح البحث العلمي في البلاد الإسلامية وسيلة للارتزاق والحصول على فرصة عمل أفضل أو الترقي في وظيفة!

أما التحدي الأكبر الذي يواجه الأمة الإسلامية في قلبها العربي، فهي إسرائيل التي زرعها حلفاؤها في الغرب، في خصر الأمة العربية للقضاء على أية محاولة للاتحاد العربي، وإنهاك الشعوب العربية في حروب مستمرة مع عدوها الذي يحتل أرضها، ولا تزال كل المعطيات والكلام للدكتور الفار تشير إلى تفوق الخطة الصهيونية العالمية في تحقيق أهدافها.

وإذا كانت التحديات السابقة تتحدث في جانب منها عن صراع فكري بين المسلمين وأصحاب الحضارات الأخرى، فإن الباحثين الإستراتيجيين يشيرون إلى أن مشكلة كبيرة تنتظر الأمة العربية قلب الأمة الإسلامية خلال العقد القادم، وهي الصراع على نقطة المياه، بعد أن أثبتت الدراسات الجيولوجية تناقص مصادر المياه تدريجيًّا بالشرق الأوسط، وهو تحدٍّ كبير وجب التفكير في طرق مواجهته والاستعداد له منذ الآن، وقد نقل عنه مولانا الشيخ محمد الغزالي في كتابه عن مستقبل الإسلام خارج أرضه تحت عنوان "الكيمياء والسياسة":

في الثاني من نوفمبر يطل علينا العام السابع والستون منذ أن صاغ آرثر جيمس بلفور (18381930) وزير خارجية بريطانيا العظمى، وعده الغني عن التعريف، وقدمه هدية باسم السياسة، إلى علم الكيمياء، في شخص اليهودي الروسي الصهيوني حاييم بن عيزر وايزمان 18741952. الذي كان يعمل أستاذًا للكيمياء العضوية في جامعة مانشستر بإنجلترا، مكافأة وتقديرًا لعبقريته في اختراع طريقة، سنة 1916، لصناعة سائل الأسيتون من دقيق الذرة "بضم الذال المعجمة وفتح الراء"، فأنقذ المجهود الحربي للحلفاء الذين كانوا حينذاك في حاجة ماسة لكميات كبيرة من ذلك السائل العجيب، الذي يستخدمونه

في إذابة النتروجلسرين، وقطن البارود؛ لصناعة مادة الكورداية، المفرقعة الدافعة، التي يحشون بها الرصاص وقنابل المدافع.

أبى وايزمان أن يقبل مكافأة مادية ليشتري له ضيعة أو يبني فيلا، ينقرشها بأنواع الفسيفساء و الديكور، لأن إيمانه بباطل قومه، كان عنده بمثابة العقيدة التي يلتزم العالم الحق بالتضحية بكل الماديات في سبيل العمل لها، وأصر على أن تكون مكافأته "مجرد" وعد، من حكومة بريطانيا العظمى لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، دون "مساس" بحقوق السكان الأصليين من غير اليهود مجرد وعد لأنه كان يعرف من إلمامه بأصول علم الكيمياء، أن التفاعل بين المجموعات البشرية خلال التاريخ، تحكمه قوانين ومعادلات وضوابط دقيقة كتلك التي تحكم تفاعلات الذرات والجزيئات في علم الكيمياء،

وكان يدرك أن قوانين التفاعلات الكيماوية لا مجال فيها "للفهلوة" والارتجال والعنتريات والكذب وخداع النفس، وأن الزمان الذي كان الكيماويون فيه يضيعون الوقت والمال والجد والسياسة للحصول على الإكسير الذي يحول الفلزات الحقيرة إلى ذهب، زمن قد ولى وانقضى إلى غير رجعة! فكان مجرد الحصول على "وعد" بمثابة تفاعل كيماوي مدروس يمكن البدء منه، وارتياده كافة المظان والسبل والأساليب، والحيل والدسائس؛ للوصول به إلى النتيجة المطلوبة، والمخطط لها أصلاً، بعلم وإصرار!

ولم تكن الحرب العالمية الأولى قد وضعت أوزارها بعد، عندما طلب وايزمان ذلك الوعد من بريطانيا العظمى في شخص وزير خارجيتها بلفور، ولم يك انتصار الحلفاء مقطوعًا به مائة بالمائة، ولذلك كان أمثال آخرون لوايزمان، يسعون نفس المسعى لدى الألمان وحلفائهم، دون أن يصطرع الفريقان من اليهود أو يقتتلا!

وكان علم السياسة في دماغ الداهية بلفور قد ارتقى أيضا إلى مستوى قدرة الكيماوي العالم بأسرار التفاعلات، فوافق شن طبقة، كما يقول المثل عندنا وما أكثر الأمثال عندنا والحكم فوجد في الموافقة خيرًا كثيرًا لصناعة السياسة البريطانية، فأصدر ذلك الوعد

وهو متأكد من كيفيات مسيرة الأحداث به لقرن من الزمان! فهذا الوعد، وعد بلفور، الذي يعيش الوطن العربي والإسلامي، اليوم آثاره وذيوله وشجونه، من نسج عالم كيماوي خبير عرف معنى السياسة، وكيف تؤكل الكتف، وداهية سياسي شيطان، ارتقى تفكيره إلى مستوى فهم المعادلات والقوانين البالغة التعقيد والعمق.. إلخ هذا العالم اليهودي خدم ملته وعشيرته بما رأيت! لقد ذكر قومه ولم يذكر نفسه، وخدم عقيدته ولم يخدم شهوته، وتوسل بعبقريته العلمية ليجمع شتات أمته!

وأختم هنا بشيء يكشف عن موسوعية درويش الفار وإمكاناته التعبيرية والعلمية في هذه المقالة عن سيناء وأصل الأبجديات، في مجلة الأمة القطرية 46ع شوال 1404 هـ.. يقول:.....وقصة ذلك طويلة في فصول الحضارة الإنسانية، فقد كان المصريون القدماء أهل علم ومعرفة بأصول صناعة التعدين، وعلوم استخراج الخامات من مئات القرون، وكانوا لا يفتؤون يسبرون أغوار صحاريهم المحيطة بالنهر الخالد النيل بحثًا عن مكان الذهب والنحاس والفيروز والجُمشَت واللازورد والمغر، وظلوا يستخرجون الفيروز والنحاس من سيناء ووادي عربة قرونًا طويلة، حتى بلغوا الشأو عندما نقرأ في بعض أوراق البردي على لسان الفرعون رمسيس الثالث 11981167 ق.م ما معناه:

"لقد أرسلتُ الضباط والرؤساء إلى بلاد أمي العزيزة هاتور [حت حور] سيدة الفيروز، وأحضروا لي أعاجيب من ذلك الحجر الأزرق في حقائب عديدة، لن يحظى بمثلها ملك بعدي!"

وبلغ أمر التعدين في سيناء أهميته القصوى في الدولة المصرية القديمة؛ ما حدا بها إلى إنشاء معبد وثني خاص بالتعدين في منطقة "سرابيط الخادم" تقام فيه الطقوس لوثنيْن: أولهما حتحور إله التعدين، وثانيهما صو بدو إله الصحراء الذي كان يقدسه بدو سيناء الوثنيون.

وكان الفرعون الملك لا يتوج ولا يمسك بصولجان الملْك في مصر على سعتها إلا بعد

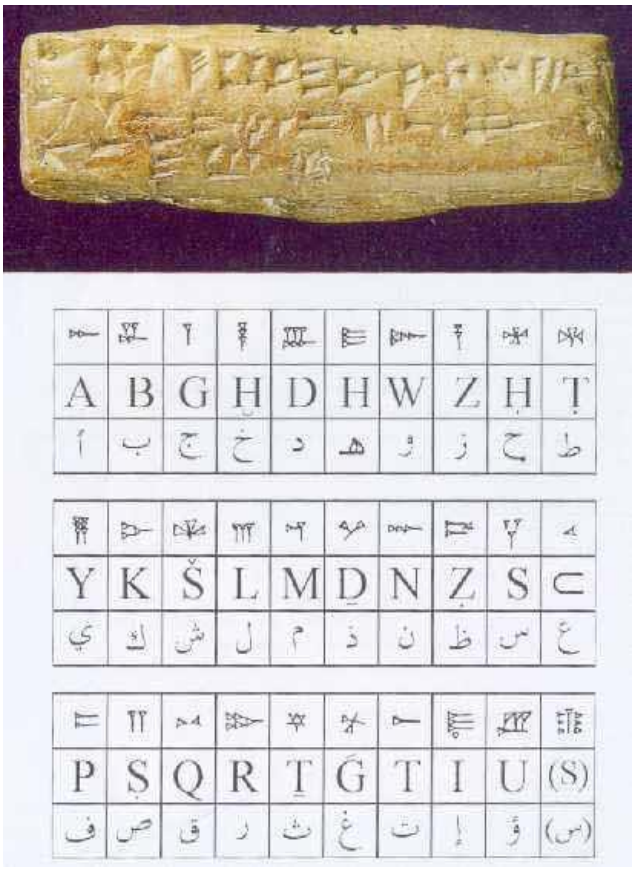

أن يحجّ إلى ذلك المعبد، ويقدم الهدايا، وينحر القرابين تحت أقدام حتحور وصو بدو، وما كان أحدهم قط ليخرج إلى الحرب، مطمئنًا إلى نصر عسكري، إلا بعد أن يرسل هداياه إلى معبد سرابيط الخادم« إلى الشرق من قرية »أبي زنيمة« الواقعة قرب الساحل الشرقي لخليج السويس، فإذا عاد من الحرب ذهب بنفسه ليشكر كلاً من صو بدو وحتحور على نعمة النصر!

ودار الزمان دوراته بخيره وشره، وعسره ويسره، وأصبحت ذرا سيناء الجنوبية ووديانها ملجأ ومهربًا من كل جبار عنيد، خاصة في عهد الرومان الذين ساموا المصريين سوء العذاب، قبل أن ينقذ الله مصر وأهلها بالفتح الإسلامي.

وكانت الإمبراطورة القديسة هيلانة [سانت هيلين 248328م] قد انفصلت بالطلاق لأسباب سياسية عن الإمبراطور البيزنطي الأول قسطنطينوس، الذي تزوج بدلاً منها تيودورا الفاتنة ربيبة الإمبراطور الروماني مكسيميان. وعندما أصبح قسطنطين الأكبر ابن هيلانة إمبراطورًا سنة 306م تلقبت هيلانة بلقب الإمبراطورة الأم، واعتنقت النصرانية. ثم حدث لهيلانة ما لم يكن في الحسبان إذ ادّعت »فاوستا« زوجة ابنها الثاني أن »كرسبوس قيصر« حفيد هيلانة قد راودها عن نفسها، فلم يكن هناك مفر من إعدامه شنقاً على رؤوس الأشهاد سنة 326م، ولم تطق هيلانة صبرًا على ما جرى لحفيدها، فدبرت لتيودورا مكيدة، وقادتها إلى حبل المشنقة، ظنًّا منها أن ذلك سوف يشفي غليلها! ولكن هيلانة الإمبراطورية الأم أصيب بعد تلك الأحداث بحزن عميق، أدى بها إلى التصوف

و»الدروشة« فأصبحت من المجاذيب، ونصحها الناصحون بالتوجه إلى الأرض المقدسة فلسطين للسلوى والنسيان، بالبحث في آثار التوراة والإنجيل، ولقيها هنالك من الأحبار والرهبان من قرأ عليها خبرًا من كتابات المؤرخ »ديودور الصقلي« [سنة 10 ق.م] نقله عن »أرتميدوروس« [سنة 110 ق.م] وعن »أغاثارشيدس« [سنة 160 ق.م] يفيد بأن هنالك نقوشًا وكتابات على الصخور قرب »الطور« غير معروفة الأصل. فظنت الإمبراطورة تحت تأثير الانجذاب الذي يغمرها أن تلك النقوش المجهولة لا بد وأن تكون نقوش أصحاب موسى عليه السلام أثناء التيه، فشدت الرحال إلى ربوع وادي »المكَتَّب« على وزن المقطّم ومنذ تلك الرحلة التي قامت بها الإمبراطورة المجذوبة شاعت فكرة نسبة تلك النقوش السينائية إلى تيه أصحاب موسى بن عمران عليه السلام، وهذا ما ثبت خطؤه فيما بعد من القرون!

وبعد ذلك قامت الحاجة »أثيريا« الإسبانية سنة 400م برحلة لزيارة تلك المظانّ تأسيًا بالإمبراطورة الأم، وبلغ الطين بلّته في هذا الاعتقاد الخاطئ بعد أن ألّف "كوزماس" كتابه (الطبوغرافيا الإنجيلية) فيما بين سنة 525م وسنة 547م، وكان قد قام برحلة بصحبة بعض اليهود إلى وادي المكتّب وما حوله سنة 518م، وكان كوزماس ذلك نصرانيّاً نسطوريًّا من أبناء مدينة الإسكندرية في مصر، وكانت أصل حرفته التجارة، وأصبح ملاحًا خبيرًا بالبحر وأصول علم الجغرافيا واللاهوت، ووصل إلى الهند،وأقام هنالك علاقات تجارية وتنصيرية، حتى اشتهِر باسم التارج الهندي، ثم تهافت الباحثون على مواقع تلك النقوش زرافات ووحدانًا، فكتب عنها "كيرشر" سنة 1636م كلاماً كثيراً لا سند له من علم، ونقل »نينبرج« سنة 1721م رسومها، ووصفها »بوكوك« سنة 1738م، ورصد القسيس الإيرلندي البيشوب »كلايتون« سنة 1753م جائزةً سخية لمن يفك رموزها، وتناولها كل من »نيبوهر« و»مونتاجو« كلٌّ على حدة سنة 1766م، وذكرها الجيولوجي الفرنسي »روزيير« سنة 1799م، وأشار إليها »كونل« سنة 1800م إشارة عابرة لا تشفي

غليلاً في مقالته »ثمانية وعشرون يوماً في سيناء« التي وردت في كتاب الحملة الفرنسية الشهير »وصف مصر«.

وتلا ذلك كلٌّ من »زيتسن« سنة 1807م، و»يوركهارث« سنة 1812م، و»روبل« سنة 1817م، و»هينكر« سنة 1820م، وهي السنة نفسها التي نشر فيها »جراي« مقالته عن نقوش سيناء في مجلة الجمعية الملكية البريطانية. وتكلم عن نقوش سيناء كلاماً غير مفصل أيضاً، »لابورد« سنة 1828م،واللورد »برودهو« والميجر »فليكس« سنة 1836م.

وفي سنة 1840م أفتى »دي بير« في لايتبسيج بألمانيا بعد أن ميّز مائة حرف، كما زعم أن تلك النقوش لهجة عربية، أو أنها ذكريات الحجاج النصارى إلى دير »سانت كاترين«؛ وبعد أن تناولها »لبسيوس« سنة 1845م بالذكر قال »توخ« سنة 1849م برأي مواطنه »دي بير« ولكنه أشار أن أن زمن نقشها أقدم مما اعتقده »دي بير«.

ثم تكلم في أمر نقوش سيناء كل من »لافال« سنة 1850م، و»فوستر«1851م و»فريزر« سنة 1855م و»بالمر« (الشيخ عبد الله) سنة 1866م. وعندما درسها »دي روجيه« سنة 1874م قال: إن مصر من خلال نقوش سيناء هي مصدر الحروف الإغريقية، فكان ذلك طرف خيط الحقيقة.

ونقل »بنديت فيجاريين« سنة 1898 م حوالي ألفي حرف من تلك النقوش، ونشر رأيه عنها في باريس سنة 1902م، وأفتى أنها من عمل الأنباط في القرنين الثاني والثالث (بعد الميلاد)، فجانبه التوفيق.

وبدأ القول العلمي الفصل في أمر نقوش سيناء على يد الباحث المحقق السير »وليام فلندرز بيتري« سنة 1906م في كتابه »أبحاث في سيناء« حيث أثبت أن هذه النقوش لا علاقة لها بالتيه ولا بخرافات بني إسرائيل، وأنها ترجع إلى حوالي سنة 1500ق.م. ومنذ أن تكلم العلامة بيتري عن النقوش السينائية دخل أمرها في حقبة جديدة بين أيدي العلماء، فقال »ألان جاردنر« سنة 1916م بأن حروف سيناء هي أصل الحروف الكنعانية

(الفينيقية) وذلك في مقال شهير نشره في صحيفة »الأركيولوجيا المصرية« [العدد الثالث]، وجانب التوفيق الباحث »هانزباور« سنة 1918م حين أراد أن يرجع تلك الحروف السينائية إلى أصل سامي بحت، ولا ننسى أن جاردنر كان أول من وفق في قراءة ونطق كلمات الحروف السينائية حين لاحظ بدقة اسم حت حور التي كان لها اسم آخر هو »بعلات« أو »بعلت« فكان من هذا اللفظ مفتاح الأمر، ليبني اعتقاده على أن حروف سيناء كانت المرحلة التي عبرت عليها الهيروغليفية لتكون أصل الأبجديات السامية العالمية كلها.

ولقد تحاور العلماء كثيرًا ولا يزالون في كنه الناس الذين كانوا يعملون في المناجم المصرية في سيناء، والذين تنسب إليهم نقوش الحروف السينائية، فمنهم من يجنح إلى أنهم وافدون من بلاد ساعير، كما زعم »سبرنجلنج« سنة 1931م، كان المصريون يستخدمونهم في التعدين، ويبدو، حتى الآن، أن »و. ف. أولبرايت« كان سنة 1969م أكثر العلماء إفاضة في أمر نقوش سيناء!

ولقد ناقش الدكتور »رمزي البعلبكي« سنة 1981م في كتابه الجامع الذي عنوانه »الكتابة العربية والسامية« جوانب هامة من هذا الموضوع بطريقة يشكر عليها حقاً، والأمل معقود أن يتصدى بعض الباحثين لإصدار دراسة شاملة لا تترك شاردة ولا واردة عن أبجدية سيناء باللغة العربية، بحيث تحتوي تلك الدراسة على صور تلك النقوش في وادي المكتّب، ومعبد سرابيط الخادم، وما بينهما وما حولها، وعلى خرائط تفصيلية تبين تلك المواقع، ولا جدال في أن مثل هذه الدراسة سوف تكون عملاً علمياً نفخر به ونعتز، لا سيما وأن كل الدراسات التي تعمدنا الإفاضة في ذكرها لا تنسَب إلينا! فهل آن الأوان لكي تنسب إلى باحثين عرب أكمل دراسة عن تلك النقوش التي لا تزال تحير العلماء والباحثين؟

هذا هو العلامة الموسوعي الشامل الدكتور مصطفى درويش الفار.. متع الله به، ونفع.

أنور الجندي راهب الفكر.. وحارس الثغرة

سمه راهب المعرفة/ سمه الورع العفيف/ سمه التقي الخفي/ سمه الزاهد في الدنيا كلها/ سمه الرجل الأمة/ سمه حامي الثغر الفكري للإسلام/ سمه حائط الصد ضد العلمنة والتغريب والانبطاح..

وستكون في تسمياتك هذه محقًّا؛ فالرجل ذلك، وأكثر من ذلك.. ولا أزكي على الله تعالى أحدًا!

واعجب معي كثيرًا، واندهش متسائلاً: لماذا كان خفيًّا، وأشخاص في ربع قامته يتطاولون؟

ولماذا كان منسيًّا، و (مساكين) يُذكرون ويُبرزون؟

ولماذا تجاهله كثير من أصحاب اللافتات الإسلامية حيًّا وميتًا، في حين أن مجاهيل يُبكى عليهم ويؤبنون!؟

وإذا عرفت الإجابة فأفدني أفادك الله تعالى فأنا في حاجة ماسة لمعرفة تلك الإجابة!

في بعض الأجيال العوجاء كجيلنا تنقلب المفاهيم وتختل النسب، ويطفو الزبد التافه على السطح الموّار، فلا ترى على وجه الماء إلا قشًّا، وقصاصات جرائد، وفضلات من الزبالة، وقطع الخشب، وربما رأيت جثة منتفخة (لكلب نافق) أو حمار (فطيس)، في حين يرسب في القاع الجوهر والدر الثمين، هنالك في الظلام بعيدًا، حيث السكون التام والبعد السحيق!

ومن أراد الحصول على شيء من اللؤلؤ والكنوز الخبيئة، فلا بد له من أن يغوص ويغوص، محتملاً ضغط الماء، وظلمة القاع، ومخاطر البعد عن الأُنس.

وفي زمننا المدهش عدد من الرجال اللآلئ، الذين يتمتعون بخاصية الندرة والنفاسة وارتفاع القدر، وأشباههم من الذين لم تستغوهم الفلاشات، ولم تستهوهم الشاشات، أو تسحرهم وتتلعب بهم الإذاعات.

وهذه قضية تاريخية، ليست وليدة أيامنا، إنما هي بلية قديمة: فهذا أبو حيان التوحيدي يحرق كتبه التي أنفق عمره وعقله عليها؛ لأنه رأى أهل زمانه يتجاهلونه ولا يقدرونه..

عالم آخر نسيت اسمه يترك البلد ويهاجر، فيسأله تلاميذه الذين لم يفطنوا لحاله: لماذا تتركنا وتنتقل عنا؟ فقال: لو وجدت كيلجة باقلاء لكفتني، ولما فارقتكم!

نعم إنه النحوي البصري النضر بن شميل.

كأنها حتمية أو سنة مطردة: من شاء أن (يقِبّ) على السطح فليس له بد من أن يغازل أعتاب الوجهاء، أو يبش في وجه (قبضايات) القرن الصحفيين والإعلاميين، رضي الله عنهم، ومد ظلهم العالي، لعله أن يحصل له شيء من الانطلاق والتلميع و(البروزة).

أما من رزقوا الشَّمم، وعلو الهمم، وتقدير النفس، والترفع عن الدنس والرجس، فإنهم يبقون معرضين عن السفاسف، طالبين للمعالي، متفرجين على ما يدور من عجائب وتناقضات، راصدين في توتر للتحولات في الأفهام التي باتت تقبل ما لم يكن مقبولاً، تستبيح ما ليس يستباح؛ بل ما لا يخطر ببال أحد أن يقترب منه.

ورحمة الله على القاضي الجرجاني الذي صرخ منذ وقت بعيد:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم.....ولو عظموه في النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهان.. ولطخوا.....محياه بالأطماع حتى تجهما

أأشقى به غرسا.. وأجنيه ذلة؟!.....إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ورحمة الله على البارودي فارس السيف والقلم الذي قال:

خُلقت عيوفا لا أرى لابن حرة.....عليّ يدا أُغضي لها حين يغضب

إذا أنا لم أعطِ المكارم حقها.....فلا عزني خال.. ولا عزني أب

ومن اللآلئ التي سكنت قاع المولد الإعلامي والدعوي: الأستاذ العالم المتواضع – أحسبه والله حسيبه – أنور الجندي.. الذي خسرته أمة لا إله إلا الله، ولم يزاحم أحدًا في محاضرة، ولا موقف فخر، ولم يزعج وسائل الإعلام كي تتابع أخباره، وتتحدث عن عنترياته وبطولاته منذ كان في (اللفةّ).

رأيته مرة واحدة قبل أكثر من عقدين من السنين، حين ذهبت إليه في بيته بالطالبية، في جيزة مصر، فلقيت رجلاً من النادرين، بسيطًا بساطة عاميّ خام، متواضعًا تواضع زاهدٍ، لينًا لين أب رحيم، واقعيًّا لدرجة تدعو للأسى والغضب.

رأيت ويا سوء ما رأيت، بيته المتهالك في قلب (سوق الخضار) إي والله، ومن الصباح الباكر تقضّ مضجعه نداءات الباعة عبر مكبرات الصوت على ما لديهم من (الورور) والجبنة القديمة، واللحمة العجالي، والأمشاط والفلايات، والمناخل، والغرابيل (ولا تين ولا عنب زيك يا برشرمي)، فإذا هدأت ضجة الميكروفونات قليلاً،لم تهدأ

مشاجرات ومناقرات جاراته، وكلامهن المنتقى، ولم ينقطع ضجيج (العيال) العفاريت، الذين يتقاذفون الكرة (صدة ردة) في عز نقرة الحر، والمتبادلين لما لذَّ وطاب من الألفاظ التي يحلو للعامة أن يتقاذفوا بها في غير شحناء ولا خصومة.

دخلت حيث يسكن، ومعي فريق للتصوير التلفزيوني بعد أن أنهكنا البحث، فقد كنا نظن أنه من ساكني الفيلات الفاخرة، أو القصور (المحندقة) بتاعة السادة أولياء الله المسقفين، وأخذنا نسأل المكوجي والجزار والجار فإذا هم يقولون في استفهام: من أنور؟ لا نعرف أحدًا بهذا الاسم!

وحين اهتدينا إلى بيته المتهالك، لم نجد مكانا عرضه متر × متر، يصلح لأن نجلس به، بسبب قدم المكان، وكثرة الكتب التي زحفت إلى كراسي غرفة الاستقبال، وسألته: ما رأيك يا أستاذنا الكبير لو تحركنا إلى الفندق لنتمكن هنالك من التصوير، حيث المكان أوسع؟

لا بأس.. كما تشاؤون.. تفضلوا وسألحق بكم.

وبشيء من الانفعال قلت: كيف ستدركنا يا أستاذ في هذا الزحام.. كيف ستقود سيارتك؟

لا.. لا أملك سيارة.. سألحق بكم بالأتوبيس.

وكأنما لسعني بكرباج فهتفت: الله أكبر.. بالأتوبيس؟ أنت العالم الكبير (تتشعبط) ونحن نسبقك بسيارة خاصة؟

لا حول ولا قوة إلا بالله.. الرجل العظيم.. بعلمه وسنه، وضعف جسمه، ومؤلفاته التي تزيد على المائتين (يتشعبط) في الأتوبيسات، بينما (هلافيت) الثقافة وتجار الصنف يركبون الشبح والزلمكة، ويلعبون (بالأنارب) ويتنعمون في المنتجعات القريبة والبعيدة؟ يا لخيبة أمة تتجاهل علماءها وأهل الفضل فيها.

ركب الأستاذ الزاهد السيارة معنا، وفي الفندق تحدثنا عن قضايا المسلمين في هذه العصر، وعن العروبة، واليسار الإسلامي، والعقلانية، والتراث، وغيرها من الآفاق التي طوفنا فيها، وبعد أن أتعبنا الأستاذ وأزعجناه قدم مدير الإنتاج له ظرفًا به مبلغ من المال وهو يعتذر: "سامحنا يا أستاذ على التقصير، المبلغ لا يليق بكم؛ لكنه رمز لمحبتنا إياكم، فنرجو أن تقبلوه مكافأة رمزية فقط".

مكافأة؟ أنا لا أعرف أن هناك مكافأة، ولم أقل شيئا يستحق أن أتقاضى عنه أجرًا.

يا أستاذ: هذا مبلغ بسيط من التلفزيون، وليس منة من جيب أحد، وهو من حقك وليس تفضلاً.

لن آخذ شيئًا؛ لأنني ظننت أن الحديث بلا مكافأة، ولن أغير نيتي مهما كان الأمر.

يا أستاذ.. هذا حقك.. نرجوك.

لن آخذ قرشًا واحدًا.. اسمحوا لي بالانصراف.

وأوصلناه ونحن في حياء منه، ومن تواضعه وورعه، ونحن أيضًا في خجل من أنفسنا، وحرصنا على الراحة و(النفخة الكدابة).

كان هذا منذ أكثر من عشرين سنة.. وأنور الجندي ليس مجهول المكان، فكتبه تخرج تترى، ومقالاته تملأ المجلات الإسلامية والحال هو الحال.

إنه الداء الوبيل في الإسلاميين، وواحسرتا عليهم!

لقد أذنب أنور الجندي ذنبا فظيعا لا يغتفر.. أنه عفيف، قارٌّ في بيته.. لا يطرق الأبواب، ولا يزاحم الأتراب، ولا يهمه أن يقال حضر أو غاب!

كما كان أكبر ذنوب أنور الجندي أنه مستقل في تفكيره، مستغرق في مشروعه، غير مهتم كثير بلافتة محددة، فاللافتات في العمل الإسلامي تطرد دائمًا من لا يصفق لها، وتعتبره مجذومًا أو مريضًا بالإيدز؛ لا يُقترب منه ولا يُتعامل معه، بل ربما أساءت إليه، وحقرت من شأنه، باسم مصلحة الدعوة؛ أو اختلافًا على فرعية من الفروعيات.

أزعم أن أنور الجندي لو علق (بادجًا) واضحًا على صدره لكان له شأن آخر، ولوجد من يدعوه في المناسبات، ويقدمه في الاحتفالات، ويثني عليه غائبا وحاضرًا. وأزعم أن هناك (عيال) جهالاً، لا وزن لهم من علم أو سنّ أو دعوة، لكنهم منتمون.. فصاروا بذلك (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)..

ناهيك عن أن يكون واحدًا من المستنيرين أو الذين كانوا زمان رفاقًا مناضلين، فهؤلاء تفتح لهم صالات كبار الشخصيات، وأبواب الجامعات، وتسود عنهم الصحف، وتكتب المجلدات عن عبقريتهم، وتميزهم، وإبداعهم، وتستر عوراتهم التي يعرونها دون خجل أو حياء، فكشف العورات إبداع أيضا عند (ولاد الحمرة).

من أخلاق أنور الجندي رحمه الله:

يروي العلامة القرضاوي: كان الأستاذ يكتب فيها مقالاً ثابتًا عنوانه: في ميزان الإسلام بمجلة (منار الإسلام) الظبيانية، وقد نشرت المجلة في أحد أعدادها إعلانًا تطلب منه أن

يوافيهم بآخر عنوان له، حتى ترسل له مكافأته على الكتابة في المجلة. وتشكو المجلة من تراكم مستحقاته المالية عندهم.

كما حدثني أحد الإخوة العاملين في شركة (سفير) أنهم عندما كانوا يكتبون دائرة المعارف التي أصدرتها الدار، وقد كلف هذا الأخ بمتابعة الأستاذ أنور في إشرافه على بعض مواد الموسوعة، أن الأستاذ أنور رفض تقاضي أي قدر من المال.

وحدثني الأستاذ محمد علي دولة صاحب دار القلم بدمشق أنه في يوم من الأيام ذهب إليه الأستاذ أنور الجندي بكتاب جديد له لينشره، وقد عرض عليه الأستاذ أنور مالاً ليطبع به الكتاب! فقال له الأستاذ دولة: يا أستاذ: أنت المؤلف، والمفروض أن تأخذ أنت لا تدفع، ويبدو أن الأستاذ أرهق من سوء المعاملة المادية من بعض دور النشر، وهذا ما لم ينج منه مؤلف إلا القليل.

وحكت لي ابنته السيدة فايزة أنور الجندي، أنه كان يصحبها معه دومًا في محاضراته التي تحضرها النساء، ولما سئل عن ذلك من النساء؛ وذلك في العهد الناصري يقول مازحًا: إن ابنتي محرم لي بينكن! ا.هـ كلام القرضاوي!

وقال الأستاذ جمال سلطان:..... عندما دخلنا إلى بيته شديد التواضع في ذلك الحي الشعبي، وهو بيت قديم متهالك، لا تحس فيه أية مسحة من الترف، حتى إن ابنته الوحيدة قالت لنا إن الأستاذ أنور لم يكن لديه حتى سخان للمياه، على كبر سنه وشدة برد الشتاء في مصر..... أعجب من ذلك ما حكته ابنته وبعض جيرانه عن أن الرجل كان يخرج لصلاة الفجر، وأحيانًا كان يجد خط الماء وقد تعطل وانقطعت المياه عن المنطقة، فيحمل معه أوعية للماء "جراكن" ويملؤها ثم يضعها أمام باب كل جار، ويقول

لابنته عندما تعاتبه "إن الله سائلني عن هؤلاء"،.... كان الرجل فقيرًا لا عن عجز وإنما عن زهد وقناعة، حتى إنه كان يوزع الجوائز التي يحصل عليها من بعض أعماله على فقراء منطقته، رغم أنه منهم....

شخصيات شهيرة التقى بها:

ويمكنك أن تعرف حجم الرجل من حجم مؤلفاته وعطائه، ومن حجم الشخصيات الكبيرة التي تعامل معها من شوامخ أهل الفكر والعطاء، وممن لقيهم الأستاذ الجندي الأساتذة والمشايخ والدكاترة: حسن البنا/ عباس محمود العقاد/ طه حسين/ عبد الرحمن الرافعي/ عبد الرحمن صدقي/ زكي مبارك/ مالك بن نبي/ محب الدين الخطيب/ محمد حسين هيكل/ ساطع الحصري/ سعيد العريان/ عبد الكريم جرمانوس/ عبد الله كنون/ عبد الوهاب عزام/ عزيز خانكي/ علي أدهم/ علي الغاياتي/ عمر فروخ/ أحمد الشرباصي/ أحمد حسن الزيات/ أحمد حسين/ أحمد زكي أبو شادي/ البشير الإبراهيمي/ الشيخ أبو العيون/ دراز/ محمد رفعت/ توفيق الحكيم/ أحمد الحوفي/ سيد إبراهيم/ صلاح عبد الصبور/ عبد القادر القط/ عبد القادر المغربي/كامل كيلاني/ محمود تيمور/ محمود عزمي/ منصور فهمي.. وآخرين كثيرين أمثالهم!

من أقواله رحمه الله تعالى:

أنقل هذه الأقوال من بعض مقالات الأستاذ أنور، وبعض ما نقله عنه الأستاذ محمود خليل بعد وفاته في مقالة بعنوان: أنور الجندي: الزاهد الرباني الدؤوب:

ذكر الطبيب الذي كان يعالجه: أنه استقبل القبلة قبل مفارقة الدنيا، وصلى، وقال بصوت مسموع: إني فرح بلقاء الله، بأبي أنت وأمي يا سيدي يا رسول الله.

وجاءته جائزة كبيرة مرموقة، فأباها وقال: إنما أطلب جائزتي الكبرى من ربي.. لا أريد أن آتي يوم القيامة فيقال لي: لقد أخذت جائزتك من فلان.

وفي مرضه الأخير استأذنته إحدى الجامعات الاستشراقية الكبيرة في الغرب، أن تطلق اسمه على إحدى قاعاتها الكبرى، فرفض ذلك قائلاً: لقد حاولوا شراء هذا القلم من قبل فما استطاعوا، ولن أمكنهم اليوم من ذلك أبدًا.

ويقول: أنا محام في قضية الحكم بكتاب الله، ما زلت موكلاً فيها منذ بضع وأربعين سنة، منذ رفع القضية الإمام الذي استشهد في سبيلها قبل خمسين عاما للناس، حيث أعد لها الدفوع، وأقدم المذكرات بتكليف بعقد وبيعة إلى الحق تبارك وتعالى، وعهد على بيع النفس لله والجنة – سلعة الله الغالية – هي الثمن لهذا التكليف!

ويقول: قرأت بطاقات دار الكتب وهي تربو على مليوني بطاقة، وأحصيت في كراريس بعض أسمائها وراجعت فهارس المجلات الكثيرة الكبرى كالهلال والمقتطف والمشرق والمنار والرسالة والثقافة، وأحصيت منها بعض رؤوس موضوعات، وراجعت جريدة الأهرام على مدى عشرين عاما، وراجعت المقطم واللواء والبلاغ وكوكب الشرق والجهاد وغيرها من الصحف، وعشرات من المجلات العديدة والدوريات التي عُرفت في بلادنا في خلال هذا القرن!

ويقول: ما زلت أفخر بأني كتبت في (أبولو) وأنا في هذه السن (17) عامًا، وقد فتح لي هذا باب النشر في أشهر الجرائد والمجلات آنئذ مثل البلاغ وكوكب الشرق والرسالة وغيرها من المجلات والصحف!

ويقول: على الأدباء والمثقفين عامة أن يدركوا أنهم على بر الأمان، ولا خوف عليكم، ما تمسكوا بالعربية "لغة القرآن" لغة أكثر من ألف مليون مسلم، وليس مائة مليون هم الغرب وحدهم؛ لأنه ما تزال قوي التخريب وفلول الاستعمار والأحقاد والغزو الثقافي تطارد اللغة العربية الفصحى مطاردة شديدة، وهناك اتجاه تغريبي يرمي إلى هدم الفصحى وعزلها!

ويقول: قامت هذه المؤامرة (الحداثة) على أكتاف عصابة من أدعياء الأدب حاولوا تضمين الشعر الحر والقصص بتلك الأساطير الزائفة ونشرها وإعطاءها مكانة الأصل الغائب المهجور، فمثلا فيما يسمونه إحياء التراث من خروج على الأسلوب العربي الأصيل، وهدم لقيم البلاغة العربية وأصولها، وتغليب لجانب الفلكلور الذي يمثل طفولة الثقافة البشرية على البيان العربي الأصيل، في محاولة لإعطاء الفن القصصي حرية غير محسوبة تحت اسم حرية الإبداع لتقديم إباحيات جديدة تحت صور قديمة من التاريخ.
ويقول: الخليل الفراهيدي أعطى الشعر وأعطي النحو وأعطى الموسيقي قانونًا عجيبًا ما يزال موضع كراهية وحقد من خصوم اللغة العربية الذين يدعون إلى ما يسمونه "كسر النص" فهم من أجل ذلك يحملون عليه ويسخرون منه، وهو سامق المكانة؛ لا تهزه هذه الكتابات المنحرفة، وليس هذا شأن الخليل بن أحمد وحده، ولكن سهام التغريب والغزو الثقافي لم تدع أديبًا صحيحًا، أو شخصية ممتازة في الفكر الإسلامي والأدب العربي إلا حاولت النيل منه، فعلت ذلك في المتنبي والغزالي وابن تيمية، في ذات الوقت الذي حاولت فيه أن تعلي من شأن الشعوبيين والمارقين أمثال بشار والحلاج وأبي نواس وابن الراوندي!

قالوا عن أنور الجندي:

هذه نقول من بعض ما ورد في الموقع المسمى باسمه رحمه الله تعالى:

كتب الدكتور يوسف القرضاوي فيه:.... يا سبحان الله، يموت مثل هذا الكاتب الكبير، المعروف بغزارة الإنتاج، وبالتفرغ الكامل للكتابة والعلم، والذي سخر قلمه لخدمة الإسلام وثقافته وحضارته، ودعوته وأمته أكثر من نصف قرن، ولا يعرف موته إلا بعد عدة أيام، لا تكتب عنه صحيفة، ولا تتحدث عنه إذاعة، ولا يعرِّف به تلفاز. كأن الرجل لم يخلف وراءه ثروة طائلة من الكتب والموسوعات، في مختلف آفاق الثقافة العربية والإسلامية. وقد كان عضوًا عاملاً بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ومن أوائل الأعضاء في نقابة الصحفيين، وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية سنة 1960م. لو كان مطربًا أو ممثلاً، لامتلأت أنهار الصحف بالحديث عنه، والتنويه بشأنه، والثناء على منجزاته الفن.

وقال أيضًا: مسكين أنور الجندي؛ لقد ظلمته أمته ميتًا كما ظلمته حيًّا، فلم يكن الرجل ممن يسعون للظهور وتسليط الأضواء عليه؛ بل عاش راهبًا في صومعة العلم والثقافة، يقرأ، ويكتب، ولا يبتغي من أحد جزاء ولا شكورًا، ولقد تتلمذت على كتبه وأنا صغير!

وقال الأستاذ عبد المنعم يونس:.... ولقد قيضه الله للأمة الإسلامية في هذه الفترة الزمنية التي حفلت بكثير من الأفكار الوافدة التي أرادت تشويه الإسلام.. ولقد طالبت بأن تقوم الجامعات وكل وسائل المعرفة بتبني كتابات الجندي وتقديمها كمادة علمية!

وقال الدكتور مصطفي الشكعة: حسبه أنه وقف بمفرده مدافعا عن العربية السليبة والشريعة الغراء والتي تربص بها الرويبضة والمنافقون، ولأن الجندي من معدن نفيس، معدن ورثة الأنبياء وحملة الهدى والحق والفضيلة إلي البشرية، وهو مثال واضح للعمل الدؤوب والتخطيط المنظم والتأصيل غير المسبوق وغزارة الإنتاج!

وكتب د. محمد يحيى: إنه نموذج فذ للمفكر الإسلامي الملتزم بعقيدته وقضايا أمته كما لوحظ اهتمامه بالقضايا الموسوعية والدأب والمثابرة وأنه كان يعمل وحده كما لو كان مؤسسة ضخمة... هذا وإن هذه القوة في العمل المنفرد أعطته نوعا من الاستقلالية وعدم الخضوع لأي ضغوط... ومن مميزات الجندي أنه اطلع على الفكر الغربي ولم ينبهر به بل نقده بقدم ثابتة.. ولقد التزم الجندي بثوابت الأمة ولم يخرج عنها!

وقال د. شوقي ضيف عنه: إن أنور الجندي لا يقل في كتاباته وما توصل إليه من نتائج باهرة عن العلماء والأفذاذ في تاريخنا فهو يماثل الجاحظ وابن تيمية وابن القيم في موسوعية المعرفة والجهاد الطويل لنصرة الإسلام وقضاياه المصيرية!

وقال د. حسين مجيب المصري: كان الجندي جامعة قائمة في رجل واحد، تخرج منها آلاف المثقفين! هذا وإن كان قد ظلم حينا فعسى أن يفيق العرب والمسلمون لمكانته فيعيدوا له ما أخذ منه من جديد!

وقال د. حسن حبشي: إن إنتاج أنور الجندي يمتاز بالتوثيق الدقيق والحس التاريخي والضلوع في فهم تاريخنا عبر حقبه الطويلة، وإجادته للربط بين أكثر من فن وعلم. كما أن دراساته تقع موقعًا متقدمًا في المكتبة العربية، ولاقت استحسانا لدى المتخصصين في الفكر والأدب والتاريخ والدين والحضارة! وأظن أن أنور الجندي صورة

صادقة لنماذج أسهمت من قبل في إثراء حياتنا في تاريخنا الحديث، أمثال: مصطفى صادق الرافعي، والعقاد، ومحمود محمد شاكر "أبو فهر" وغيرهم!

وقال العلامة الندوي: إنه يقف بنثره القوي وقوف الشاعر القوي (إقبال) في وجه سوءات الحضارة الغربية بشعره الفريد! وإنه كثيرًا ما ينحت التعابير والجمل التي يراها أوفي بأغراضه الدفاعية وبهدفه الهجومي الذي كان يسدده نحو أوكار المؤامرات الغربية ضد الإسلام!

وقال الدكتور عبد الحليم عويس: إن أنور الجندي مثله مثل سيد قطب والغزالي وهيكل والعقاد، قد تحول تحولاً فكريًّا للدفاع عن الإسلام، عندما أبصر حقيقة هذا الدين (فسيد قطب) بدأ أديبًا ثم أصبح قائدًا من قيادات الحركة الإسلامية، والدكتور هيكل كان مجرد أديب وعندما أبصر الحق أمتعنا بمؤلفاته الإسلامية، والعقاد كان أديبًا أيضًا ثم عندما أبصر الحق أمتعنا بالإسلام عقيدة وفكرًا؛ وهكذا كان أنور الجندي فارسًا في مدرسة إسلامية كانت مهمتها أن تواجه الحملة الشرسة التي شنها المستغربون!

قال عنه الأستاذ جمال سلطان:.... مثل في مرحلة السبعينات والثمانينات من القرن العشرين كتيبة فكرية كاملة العتاد والسلاح في وجه تيارات التغريب، وما زلت أذكر أن كتبه ورسائله التي أخرجها في ذلك الوقت كانت تمثل زادًا متجددًا يحمي عقولنا نحن أبناء ذلك الجيل من التيه وتزييف الوعي.

وقال د. محمد أبو الأنوار الأستاذ بكلية دار العلوم بالقاهرة في إهدائه أطروحته للدكتوراه: أستاذي العالم المفكر المجاهد الأستاذ أنور الجندي، هذا العمل وصاحبه مدينان لك دينا لا يشركك فيه غيرك.. إنني ما زلت أذكر اليوم الأول من لقائي بكم وقد احتواني من

اللحظة الأولى قلبكم الكبير، وفكركم الذاخر، ولم ينقطع عني مددكم بالتوجيه تارة وبالعطاء أخرى، وكم فزعت إليكم في كبريات المشاكل التي تتصل بعالم الدوريات وبقضايا الفكر، فكنتم دائمًا خيرًا مما أتمنى وأكبر مما أفهم وأحيط، والآن حين أشرف بتقديم هذا العمل لكم أطمع له كما عودتني في الفوز بملاحظاتكم القيمة حتى يرى النور بعد ذلك الفضل الرفيع منكم تحية الحب والإجلال والإكبار والعرفان.

رحم الله العالم الجليل الأستاذ أنور الجندي وقبله عنده في الصالحين!

مع الدكتور الحبيب صلاح الصاوي قبل أكثر من خمس عشرة سنة

مع الأستاذ جمال سلطان قبل نحو عشرين سنة

يوسف ذنون الموصلي..خبير الدنيا في الفنون الإسلامية

ربما لا تعرفه قارئي الكريم، ربما لم تسمع به – بحكم اهتماماتك – لكنني أعتقد موقنًا أنه من النوادر الذين أنجبتهم الأمة، ممن يملكون كنوزًا معرفيّة هائلة القيمة، سواء في مقتنياته النادرة، أم في ذاكرته الحافظة، أم في خبرته الفذة!

هو واحد من آباء صحوة الخط العربي التقليدي والفن الإسلامي في السنين الثلاثين الأخيرة، ففي سبعينيات القرن الماضي كان اليأس قد تسرب إلى نفوس الخطاطين، وعشاق الفنون الإسلامية، من استمرار فن الخط، واعتقد كثيرون أنه في طور الانقراض، بعد موت العمالقة حليم وحامد الآمدي في تركيا، وهاشم البغدادي في العراق، وبدوي الديراني في سورية، ومحمد حسني في مصر، وأبناء جيلهم، لكن جلَد يوسف ذنون، ومجموعة أخرى من الصادقين، دفعت بالفنون الإسلامية عامة والحرف القرآني خاصة للنهوض، من خلال المحاضرات والأمشق والمسابقات التي تجلت أهمها في مسابقات إرسيكا؛ مركز الأبحاث للفنون والتاريخ والثقافة الإسلامية في استانبول، والتي أفرزت بحق أجيالاً غير مسبوقة من العمالقة الشباب، الذي بعثوا الفن الجميل الجليل عملاقًا وثابًا طموحًا بديعًا! وانبت عليها مسابقات مرموقة أخرى في دبي والشارقة والكويت والدوحة وأبو ظبي ودمشق وبغداد وتهران والجزائر وغيرها، بل صار للفن الإسلامي والخط العربي حضوره في متاحف أوربا وجامعاتها وأسواق مزاداتها!

وكان يوسف ذنون وراء مسابقة إرسيكا، وشروطها، واختياراتها، والتحكيم فيها؛ خصوصًا في بداياتها قبل الانطلاق، ثم في دوراتها الأربع الأولى.

ذنون مخزن الخبرة والمعرفة:

هو مخزن خبرة، ومكتبة فنية آدمية متحركة، ووعاء معرفة فريدة، يستطيع أن يحدثك عن خطاطي العربية في الدنيا في القديم والحديث بشكل مدهش، ويمكنه أن يؤرخ لأي حدث فني، وأية مدرسة إبداعية، وأية لوحة جميلة، وأية موتيفة زخرفية، بشكل جامع مانع، بحيث تقتنع أنه لا أخبر منه ولا أبصر في المعاصرين بتاريخ الفن وأحواله!

يمكنه أن يحدثك في الخط ومدارسه، والزخرفة وأساليبها، والتذهيب وإبداعاته، والفنون البابلية والآشورية، والكلدانية، والكنعانية، وفي المخطوطات، واللوحات، والسجاد وال.... بمنتهى الحرفية والوعي والاقتدار.

وكان هذا من أسباب إطلاق لقب أمير الخط العربي عليه، من عدد من الباحثين الأكاديميين كالدكتور إبراهيم خليل العلاف، والدكتور ليث الطعان، وغيرهما!

بدأ الطريق من أوله ملاحظة، ودرسًا، وتمرسًا، وسافر في أرجاء العالم الإسلامي ناهلاً، ومتأملاً، ومبدعًا، مصاحبًا مشاهير كل دولة، مستفيدًا من تميز كل مدرسة.. وكانت أهم سفرياته إلى تركيا بمعالمها العثمانية الشماء النبيلة، والتصاقه بالجداريات العبقرية الهائلة في المساجد الكبرى؛ بخطوطها وزخارفها وعمارتها وسجادها، وزجاجها المعشق، وتلاوين الأرابيسك، وأعمال الصدف على الأبواب والمنابر والدكك، ودار في متاحفها مأخوذًا مذهولاً بروعة الميراث الذي خلفه عظماء الخطاطين العثمانيين، ودفعه عشقه إلى دراسة ما وقع تحت يديه منفردًا من كراريس ونماذج خطية، متأثرًا بمحمد عزت أفندي وحليم والآمدي وكثيرين غيرهم رحمهم الله أجمعين!

عرف في مصر الخطاط الكبير محمد حسني (والد سعاد حسني ونجاة الصغيرة) ومحمد إبراهيم، ورضوان، وعبد القوي، ومحمود الشحات، ومكاوي، وصولا إلى أستاذي الذي تعلمت عليه يديه فن الخط مذ كنت في الثانية عشرة الأستاذ محفوظ الجمل، وهذا

مما أدهشني فالأستاذ محفوظ لم يكن من مشاهير الخطاطين، وكانت حركته بين زفتى وميت غمر وطنطا على الأبعد، فإذا بهذا الأستاذ الموصلي العجيب يعرفه ويزامله ويزوره! شرفني الأستاذ يوسف بزيارة في العمل ذات مرة، وحان وقت صلاة الظهر، وكان في مكتبي سجادة صلاة فريدة، غالية جدًّا ولا يدرك قيمتها إلا خبير فبسطتها لنصلي عليها، إكرامًا له، فلما قضينا الصلاة، قال لي: هذه السجادة قيمة وغالية جدًّا، هل أنت منتبه لقيمتها؟/ فسألته: بكم في رأيك؟/ على الأقل بمائة ألف ريال؟/ كيف عرفت؟/ عدد العقد في البوصة المربعة، ونوعية الخيوط، وسمك الفتلة، وطبيعة الزخرفة عليها، وأشياء أخرى! واندهشت، لأن كثيرين من غير الخبراء دخلوا مكتبي، وهي فيه مهملة، فلم يلتفت أحد لها!

من أين يأتي بهذه الخبرة، ودقة الملاحظة، واستيعاب الأرقام، والتواريخ، والفروق، والمزايا، والنوعية، والجودة، والقيمة؟

كيف يقدر عمر المخطوطة، وقيمتها، وخصائصها، وقيمتها التاريخية والفنية والمادية؟ كيف يقدر أن هذا العمل أصلي أو مقلد، وحيد أو معدَّد، سبحان المعطي المنان.

ذنون الأديب الإنسان:

وليس المهم في يوسف ذنون أنه يعرف، بل أهم من هذا تواضعه الشديد، وأدبه الجم، ورفقه الشديد، وبساطته العالية، فهو دائمًا مبتسم، وهو دائمًا مرحِّب، وهو دائمًا طلق الوجه، متهلل الأسارير بابتسامة أبوية دافئة، يرحب بك زائرًا، ويفاجئك بالزيارة متواضعًا، وفي الأحوال كلها لا بد أن تخرج منه بفوائد، تزحم فكرك؛ لكثرتها وثرائها وندرتها.

يعشقه الخطاطون في العراق، خلال الخمسين سنة الفائتة، لأنه تقريبًا أبوهم الفني

والروحي جميعًا؛ من فنه تخرجوا، ومن معينه نهلوا، ومن توجيهه تحركوا..

كتب عبد الإله الصائغ قصيدة عنه في ديوانه: سنابل بابل، يقول فيها:

ذات شروقٍ/ امتاز الكونُ فكُوِّرتِ الأشياء

وانثالت من آصرة الجوزاء/ قطرةُ ماء

نزلتْ في رحمِ امرأةٍ/ حتى طلعتْ زهرةُ بيبون!

ذات صباحْ/ امتاز الكونُ فَسُمِّيَتِ الألوان

وتَمَلْمَلَتِ القممُ الحبلى/ وتنفستِ القيعان فكان البحر/ وكان المدُّ وكان الجَزْرْ!

ألقى الموجُ إلى الرملِ محارًا أبيض/ فاندلقَ الدُّرُّ المكنون!

ذاتَ ضحىً، امتاز الكونُ/ ارتجفت زوبعةُ الأسماءْ

صوتٌ مقرورُ النبراتْ/ نادى: يا أسماء/ يا أشياءْ:

ظمأُ الطوفانْ/ سيمرَ على تلِّ الرحمةْ/ حَجَرًا للنصلِ المسنونْ

يا عشاقَ الوطنِ اتحدوا/ من فيض الفيض ستندون.

ذاتَ غروبٍ نسمتْ أشذاء الفجرْ/ فرأيتُ الشمسَ بلون الشذرْ

تنبغُ من قارورةِ تِبْرْ

يا كلماتُ ارتجليْ شيئاً مثل الشعر:

الليلةَ يوسف ذو النون/ يسقيكِ نبيذَ العُمْرْ/ من سورةِ حِبْرْ!

سيرة ذاتية:

ورد عنه في موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين للعلامة الدكتور عمر محمد الطالب (ببعض التصرف من عندي):

ولد يوسف ذنون عبد الله 1932 في محلة باب الجديد، ودخل مدرسة ابن الأثير للصغار عام 1939 ومنها إلى مدرسة باب البيض للبنين عام 1942 والتحق بالمتوسطة الغربية عام 1945 ثم المدرسة الإعدادية المركزية وتخرج فيها عام 1950 ملتحقًا بالدورة التربوية ذات السنة الواحدة بالموصل، وتخرج فيها عام 1951، عين معلمًا في مدرسة

المحلبية عام 1951 وانتقل إلى مدرسة حمام العليل عام 1956 فمدرسة ابن حيان عام 1958 ثم انتقل إلى مركز وسائل الإيضاح بعد افتتاحه، ومنه إلى متوسطة الوثبة عام 1960 درس على آثار علماء الخط العربي، ونال الإجازة من الخطاط التركي حامد الآمدي عام 1966 وحصل على تقدير منه لبروزه في مختلف فنون الخط.

درس في معهد المعلمين بين عامي 1962–1969 الخط العربي والتربية الفنية، ثم انتقل إلى ثانوية الرسالة، وأصبح مسؤول الخط العربي في النشاط المدرسي، وأصبح مشرفًا تربويًّا للتربية الفنية عام 1976 وقد ساعدته مثابرته وعمله السياسي مع القوميين العرب على التقدم السريع. وكان يعد واحدًا من الخمسة البارزين في هذه الحركة في العراق: عبد الباري الطالب، وحسين الفخري، وسالم الحمداني، وغانم يونس، وهو. وأحيل إلى التقاعد عام 1981.

وقد عقد ندوات ومحاضرات في تاريخ وتطور الخط، وأقام دورات عامة لتعليم هذا الفن الإسلامي بالموصل، وأشرف على متاحف، ومشروعات، وله آثار فنية في الخط واللوحات على كثير من الكتب والمجلات، كتب لوحات وأشرطة 188 جامعًا. وأقام معارض في الخط العربي، ودرب طلبته على الخط منذ عام 1962، وأسهم هو وطلابه في معارض بغداد منذ عام 1972. وكرم من قبل رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر عام 1972 بمناسبة إقامة معرض الخط العربي الأول ببغداد.

شارك في تأسيس جمعية التراث العربي في الموصل، وهو عضو في جمعية الخطاطين العراقيين، وعضو فخري في جمعية رابطة الخريجين لتحسين الخطوط العربية في مصر. من مؤلفاته: درس التربية الفنية 1965 خلاصة قواعد خط الرقعة 1971 الخط الكوفي 1972 مبادئ الزخرفة العربية (التوريق) 1972 تحسين الكتابة الاعتيادية 1978 قواعد خط الرقعة 1978 قواعد الخط الديواني 1978. الواسطي موصليًّا 1998.

وله بحوث ومقالات نشرها في الصحف والمجلات وألقاها في المؤتمرات والندوات التي شارك فيها والمحاضرات العامة التي ألقاها عن الخط العربي في الجامعات والمعاهد

والأكاديميات.

ومن تلامذته العراقيين: علي حامد الراوي، وإياد الحسيني، وطالب العزاوي، وباسم ذنون، ومروان حربي، وعمار عبد الغني، وجنة وفرح وفريال العمري.

وكتبت عنه عشرات المقالات والدراسات والكتب، ومنها ما كتبه الأستاذ فوزي سالم عفيفي في مصر حول تاريخ وأعمال يوسف ذنون، وسعيد الديوه جي: يوسف ذنون مدرسة الإبداع في الخط العربي. وصدر عنه عدد خاص من مجلة حروف عربية (يوسف ذنون: فنان الخط وفقيهه) بتقديم الباحث العراقي الدكتور ادهام حنش..

قال عنه عبد الإله الصائغ:

يوسف ذو النون خطاط نعم! فنان نعم! عاشق مدمن نعم!

وماذا بعد؟ يوسف ذنون ظاهرة كبرى في عدد من الفنون العصية الجميلة! وماذا بعد؟ يوسف ذنون فنان باتساع هذه الكلمة وعمقها وطهرها وإعجازها! وماذا وماذا؟ يوسف ذنون عاشق أدمن عشق الله، وعشق عباد الله، وعشق آلاء الله؛ فكان آيةً في السمو الصوفي والزهد القدسي! يوسف ذنون ليس مدرسة؛ بل هو أكاديمية، يتخرج فيها الطلبة، مبهظين بشهادة الأخلاق العليا، والمعرفة المثلى! حين التقيته للوهلة الأولى انطبعت صورته في ذاكرتي: كان نحيلاً وسيمًا غضيض الطرف، خفيض الصوت، فيه حياء الأولياء؛ بحيث لا ينظر في عينيك بل يرسل طرفه إلى يديك غالبا! وحين تثني عليه يحمر وجهه ارتباكًا، ويتفصد عرق جبينه حياءً وتواضعًا! فأي سنخ من الرجال الأسطوريين هذا العالم؟

بسرعة البرق بتنا أصدقاء، يزورني في الكلية وفي بيتي، ويريني أفانين من معجزاته في الخط!

فوجئت وأيمن الله أن يوسف ذنون مثقف كبير – والكلام للصائغ بسعة عمالقتنا طه باقر، ومصطفى جواد، وفؤاد عباس، وحسين أمين، وعبد الرزاق محيي الدين! عالم بكل المعنى دون نقصان، يحدثك عن تشريح الفن فتصعق!

ويشرح لك دلالات التماثيل في الحضر وآشور، فتقول في نفسك: وكيف حصل على هذا الكم والنوع المعرفيين دون أن ينوء به أو يداخله خيلاء الزهو؟ وهو يحفظ نصوصًا كثيرة وطويلة من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وأخبار الخلفاء الراشدين، والصحابة والشعراء والمؤرخين؛ بما يتصل بفن الخط!

فإذا حدثك عن تاريخ الخط العربي أذهلك استيعابه للرقُم الطينية المكتشفة في العراق واليمن والأردن وبلاد الشام! وتتبعه التاريخي المنهجي، مع نقدات بنيوية لتراثنا الخطي، فلا تمل الإصغاء إليه؛ فهو لا يسمعك ما في الكتب، بل يجعلك في مكتشفاته وابتكاراته ونقداته! وهذه سمة معروفة عنه!

شهادة لله إن الفنان العظيم يوسف ذنون كنز عراقي لا يقدر بثمن، وقلما يجود الزمان بأمثاله! فليبقك الرب سيدي الأستاذ يوسف ذنون معافىً مبتهجًا مضيئًا مغدقًا كما نشتهي.

من آرائه:

- اللغة هي الكلام المسموع، والخط هو الكلام المنظور، فاللغة والخط صنوان، ومما يؤسف له أن كثيرًا من الجهات الأكاديمية أو المؤسسات الأكاديمية لا تلتفت له!
- الكتابة بدأت ونشأت كفن قبل الإسلام، وجاء الإسلام ليؤكد هذا الفن.
- بدأ الخط العربي لما بدأ في مكة المكرمة، وحينما أُنزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم استقدم كُتَّاب مكة ليدونوا القرآن الكريم.
- حينما عمَّر سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه المسجد النبوي وضعت فيه كتابة في جدار القبلة، وهذه الكتابة هي أساس الكتابة الفنية التي فيما بعد تطورت وصارت منها أنواع الخطوط.
- انتبه الأتراك إلى أن الخط هو فن قومي بالنسبة لهم، وأنهم يجب أن يستعيدوا العناية به، بعد أن بدأ العرب – خصوصًا في مصر ينتبهون له.
- تميزت الزخرفة عند العرب والمسلمين بميزة لا يمتلكها شعب آخر.

• سارت الزخرفة الهندسية وتقدمت بشكل عجيب في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

• حول الفنان الزخرفة النباتية إلى زخرفة مجردة، خلقت عالمًا نباتيًّا جديدًا، وارتبط الخط بالزخرفة، فصارت عنصرًا أساسيًّا فيه؛ فالخط والزخرفة وجهان لعملة واحدة.

• هناك خطاط، وهناك خطاط فنان، فالخطاط: هو الذي يجيد الخط بقواعده المعروفة، والفنان: هو الذي يجيد الخط، ولكنه يخرجه بشكل مبدع.

• أسهمت الآلة في إبراز خطاطين كبار، ومع ذلك تبقى الآلة آلة، والخطاط له روح تنعكس على خطه.

في بيته مع الصديق الخطاط الأديب عماد حفني، ولوحة من خط يده

عمر بك الأميري: أميرٌ في إهاب شاعر

رحمك الله يا عمر بك، وأكرم نزلك، لقد كنت فعلاً متفردًا في كل شيء، أميريًّا في كل شيء، "باهيًا" في كل شيء، مرتبطًا بدينك في كل شيء! فيك من قوة عمر وترفعه، ومن بهاء التدين وطراوته، ومن عزة الأمراء وشممهم، مع رفق أخٍ كبير، ووعي داعيةٍ كبير، وشاعرية شاعرٍ كبير، ودين مسلمٍ كبير، أحسبك كذلك ولا أزكيك على علاّم الغيوب.

كانت بداية تعرّفي به قبل ربع قرن في الدوحة، عبر الأستاذ هشام الغراوي الله يرزقه بالعافية – وكان صديقًا له أكثر من نصف قرن، حين سألني:

هل تعرف عمر بك الأميري؟

قلت له: لم أتشرف به؟

كيف وأنت أديب شاعر؟

أنا آسف؛ فمع اهتمامي بالشعر، وقراءاتي الكثيرة فيه، فإننا في مصر لا نجد دواوين لشعراء غير مصريين إلا فيما ندر (وكنت حديث عهد باغتراب آنذاك، وأكثر عنايتي بالشعراء والأدباء المصريين).

إذن فسأهديك هدية بأن أجمعك به، لتراه وتتعرف إليه.

المفاجأة:

كان الأستاذ الأميري حقًّا مفاجأة بالنسبة لي، أولاً بدماثة خلقه، ولطف معشره، ثم بعد ذلك بشاعريته، فقد فوجئت بشاعرٍ عملاق، له مفرداته الشعرية، وله تراكيبه وصوره الخاصة المليئة بالشفافية وبالعمق، وله فلسفته الشعرية أو شعره الفلسفي، وله لفتاته الإنسانية والروحية والدعوية والوطنية التي لا تجدها عند كثيرين غيره..

يدور شعره (في زعمي) حول محورين رئيسيين لا يستطيع أي قارئ له أن يتجاهلهما:

** محور الشفافية التي تصل لحد الاقتراب من حدود التصوف، وكان ذلك واضحًا من

بداياته في ديوانه الأول (مع الله) الذي اعتبر علامة فارقة آن صدوره، واستمر ذلك وتعمق أكثر وأكثر، حين استوطن المغرب منفىً اختياريًّا له، فتأثر أكثر بالشعراء المغاربة ومنهجهم الذي يعنى بهذه الروح! وقد قرظ هذا الديوان الأستاذ العقاد وكثيرون غيره كما سيأتي، والعقاد رحمه الله لم يكن يعجبه العجب!

** ومحور الفلسفة والعقلنة المنطقية، الذي يبدو واضحًا في تعابيره وكناياته، متأثرًا في ذلك بإقبال رحمهما الله – على ما بين المحورين من تجافٍ وتنافرٍ، وإن كان قاصدًا في تصوفه، سُنيًّا في تفلسفه.

وكان أول لقاءاتي المهمة به، عندما أردت أن أجري معه تحقيقًا صحفيًّا حول شعره نشر في مجلة منار الإسلام الظبيانية 1985م وكان ذلك اللقاء محاولتي الأولى في إجراء التحقيقات، ولما جالسته أحس أنني أتهيبه، ولا أجترئ على مباسطته، فأراد هو أن يساعدني، ويشجعني على الاقتراب منه، فبادر إلى الحديث في موضوعات شتى، وأخذ يلقي بعض النكات التي فاجأتني، حتى تحررت قليلاً من حيائي، وأخذت أسأله، فإذا حدث وسكتّ كان يقول: اسأل.. فلا يزال هناك كلام، ما رأيك أن نتحدث حول كذا وكذا؟ ويسترسل رحمه الله تعالى حتى انتهينا، وقام يوصلني للباب في مودة وأبوة ومروءة.

لم يكن كأولئك البهوات (الأناتيك)، الذين يتكلمون بحساب، وربما اشترطوا ألا يزيد اللقاء عن ربع ساعة، وتحدثوا من أنوفهم بكثير من (القرف)، والانتفاخ الكاذب. كان رحمه الله تعالى شاعرًا موهوبًا، ذا مفردات خاصة، ومعانٍ إسلامية خاصة، وهذا ليس ممكنًا لكل من أراد امتطاء صهوة حصان الشعر، فما أكثر الشعراء الإسلاميين الذين تقرأ لهم فلا تجد إلا كلامًا مكرورًا، ومعانيَ مستهلكة سبق أن شبعت منها.. اقرأ هذه المقطوعة القصيرة، واستشرف معي جمالها، وشفافيتها، ونبل مقصدها:

كلما أَمعنَ الدجى وتحالكْ	شِمْتُ في غوره الرهيبِ جلالَكْ
وتراءت لعين قلبي برايا	من جمالٍ آنستُ فيها جلالك

وترامى لمسمع الروحِ همسٌ	من شفاهِ النجوم يتلو الثنا لك
واعتراني تولّهٌ وخشوعٌ	واحتواني الشعورُ أني حيالك
ما تمالكت أن يخرَّ كياني	ساجدًا.. واجدًا.. ومن يتمالك

يا لها من سحر حلال، وشعر عذب زلال، ومعانٍ غامرة، وعواطف فائرة! قال عنها القرضاوي حين قرأها أول مرة: فيها مناجاة لله تعالى، كأنما تسمع فيها رفيف أجنحة الملائكة، وكأنما هي ترتيلة أو صلاة، مجسدة في شعر مؤمن، أو إيمان شاعر!

كما يقول عن شاعريته:

هو لا شك في المقام الأول شاعر: شاعر بموهبته، وشاعر بممارسته، ولكنه ليس شاعرًا سائبًا، إنه شاعر ذو رسالة؛ فليس الشعر عنده آلة لمديح الأمراء أو الكبراء، ولا لهجاء الخصوم والأعداء، ولا أداة للتعبير عن الغرائز الهابطة، إنه "شاعر الإنسانية المؤمنة" كما يحلو له أن يعبِّر عن نفسه، أو يعبر عنه عارفوه ومن يكتب عنه!

الأميري سفر تاريخي ضاع:

كان رحمه الله تعالى تاريخًا يمشي على الأرض، بعلاقاته الدبلوماسية الواسعة، منذ عُين أول سفير لسوريا في السعودية قبل خمسة عقود، ثم في باكستان بعد ذلك، وارتباطه بضياء الحق رحمه الله وبمشاركته الدفاع عن القدس مع جيش الإنقاذ خلال حرب فلسطين سنة 1948م، وإسهامه في تأسيس حركة سوريا الحرة، ورئاسته للجانب السياسي بها سنة 1953م.

وكان تاريخًا يمشي بعلاقاته السياسية والفكرية والأدبية الواسعة، من خلال معرفته بأجيال كبار المفكرين والساسة والشعراء والكتاب الكبار في الأمة كالحاج أمين الحسيني وكان يلتقي به في لبنان، نيابة عن المجاهدين السوريّين والرؤساء شكري القوتلي، وناظم القدسي، ومحمد نجيب، والأساتذة حسن البنا، والهضيبي، والمودودي، والفضيل الورتلاني، وعبد الوهاب عزام، وعلي أحمد باكثير، وسيد قطب، وإقبال، والعقاد، والسنهوري، والطنطاوي، وإقبال، والزبيري، والصواف، ومصطفى السباعي، ومصطفى

الزرقا، ومحمد الغزالي، وأبو غدة، والقرضاوي وكثيرين غيرهم، ومن خلال عضويته في المجمع العلمي العراقي، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية والعربية.

وكان تاريخًا يمشي على الأرض من خلال نشاطه الدعوي، وعلاقاته بكبار رموز الدعوة في القرن العشرين، وانتمائه للإخوان المسلمين، وثقتهم به منذ الأربعينيات، ومعرفته الوثقى بكبار الدعاة المؤثرين حتى أوائل التسعينيات. وهو الذي أسس في مدينته حلب أول مركز مرخص لجماعة الإخوان سنة 1356هـ/1937م رغم تضييق الفرنسيين؛ ليبدأ التواصل منذئذٍ مع الإخوان في مصر ومرشدها الشيخ حسن البنا عليهما رحمة الله.

كما اختير في أول هيئة تأسيسية للإخوان المسلمين ضمن الأسماء التي وردت من خارج مصر مع الدكتور مصطفى السباعي، وعبد اللطيف أبو قورة، ومحمد محمود الصواف، وعبد العزيز العلي، والشيخ محمود خليفة، والحاج طاهر الدجا، كما ذكر الأستاذ عبده مصطفى دسوقي.

وللتاريخ أذكر أنني رأيت معه أوراقًا ووثائق من الأستاذ الهضيبي كان يسأله من خلاله أن يقوم بدراسة وتقويم بعض المواقف والأشخاص، يلقي من خلالها الضوء على ملامح الخلل والانحراف في مسيرة الإخوان في الستينيات، وطلبت منه رحمه الله تعالى قبل أن موته بعد أن اعتدت عليه ألا يموت هذا التاريخ بموته، ورجوته أن يسجل على الكاسيت ما لا يستطيع كتابته، لتقدمه في السن، وضيق الوقت، ولا أظن أنه فعل.

وكان تاريخًا يمشي على الأرض، وأنموذجًا وطنيًّا بارزًا، من أول عمره، وقد شارك في حرب فلسطين عام 1948م، وما بعدها، وينضح شعره – حتى آخر ديوان له حسرة على

الوطن الإسلامي الكبير، ومناهضة للظلم والطغيان، وإيقاظًا للهمم والعزائم، ورفضًا للاستكانة والاستنامة.

وكان تاريخًا يمشي على الأرض بعلاقاته الأكاديمية، فقد كان على ارتباط وثيق بالعمل الأكاديمي الجامعي، إذ دعي أستاذًا زائرًا ومحاضرًا في الرياض والمغرب والقاهرة والجزائر والكويت واليمن وقطر والأردن والإمارات وباكستان وتركيا وإندونيسيا، وكانت له نظرات خاصة في علم الاجتماع، انطلاقًا من هاجس المفكرين الإسلاميين بأسلمة العلوم الإنسانية، وإزالة المسحة الدهرية الكنود عنها، وقد كتب في ذلك كتبه: المجتمع الإسلامي والتيارات المعاصرة، ووسطية الإسلام وأمته في ضوء الفقه الحضاري، والإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة، والإسلام في المعترك الحضاري، وغيرها.

ومات الأميري رحمه الله تعالى، محتفظًا بهذا التاريخ الطويل، فلم يسرد لنا خبراته، ومشاهداته، ومواقفه مع كبار المفكرين، والدعاة، والوطنيين، والشعراء، والأكاديميين، والساسة، ومع المنفى الاختياري، والتوق الشديد للوطن، ورؤيته للواقع، واستشرافه المستقبل، وكم رجوته أن يسجل – صوتيًّا – وكم وعد، لكن الشيخوخة غلبته، وكان قدر الله أغلب وأمضى! رحمه الله وأخلفنا عنه خيرًا.

الأميري النبيل:

من أبرز ملامح نبله رحمه الله تعالى أنه كان سخي النفس كريمًا متواضعًا على ارتفاع همةٍ وسمو نفس مجاملاً، وصولاً، لم تُنسه واجباته وسنّه أن يكتب لمثلي وأنا دونه في العمر بنحو خمسين سنة، وبيني وبينه في الفضل مفاوز وأن يأتي لزيارتي في بيتي فجأة ودون سابق موعد، وأن يهنئني بعد محاضرة، ويشرفني بمراجعة بعض دواوينه! طلب مني ذات مرة خدمة علمية محدودة جدًّا، فلما اطمأن إلى أنني أنجزتها إذا به يهديني هدية ثمينة فوجئت بها، وأعجبت بها، وأوّلتها أن الرجل يقدر نفسه قبل أن يقدر الآخرين.

وكان يفتح قلبه عند اللزوم وبسهولة شديدة، ويمزح ويتوسع في المزاح ليزيح عن جليسه التهيب والاحتشام.

ومن أبرز ملامحه رحمه الله تعالى أنه كان شديد الأناقة في كل شيء: ثيابه، وكلماته، وكتبه، وخطه، كل شيء:

فإذا كتب اختار عبارات (أميرية) مميزة فيها شيء من الذوق، وشيء من العمق، وشيء من حلاوة السبك..

وإذا طبع تأنق في إخراج دواوينه، يختار لها مُخرجًا مدقّقًا كالأستاذ هشام الغراوي، وخطاطًا عملاقًا كالأستاذ بدوي الديراني، وربما كتب القصائد بيده لتطبع في الديوان كما هي ثقةً بجمال خطه، وكان فعلاً جميلاً مرتبًا وحرص على أن يخرج الديوان أنيقًا ملونًا أو مبطنًا، وزوده بلوحات خطية وزخرفية أنيقة، حتى إنه أهداني ديوانه أذان القرآن، وبعدها بأيام سحبه مني، ودفعه ثانية للمطبعة كما سحب كل إهداءاته من الديوان ممن أهداه لهم ليعاد تغليفه بغلاف جديد، أكثر أناقة وأبدع لونًا.

ومما كان يميز دواوينه أنه كان دائمًا يقدمها أو يذيلها بشكر من قاموا على خدمتها: المدقق والمخرج والخطاط والطابع، لا يهمل أحدًا، ولا ينسى أحدًا!

وكان يذيلها أيضًا بشرج للمفردات الوعرة يثبته في آخر الديوان تيسيرًا على القارئ لا اتهامًا لفطنته، وكان يميزه كذلك كتابة كثير من دواوينه بخط يده بالرقعة الجميل الباذخ، ولم أجد من يفعل ذلك غير نزار قباني، وهما ابنا جيل واحد تقريبًا.. وكان يفعل ذلك في زعمي لأنه أقل أخطاء، وأضبط للنصوص، وألفت للأنظار، وأيسر في الطباعة! وكان يصر على تأريخ قصائده ودواوينه بالتأريخ الهجري؛ إمعانًا في إبراز هويته، واعتزازه بدينه، وتميزًا عن الآخرين!

مواقف:

** من المواقف التي يذكرها الأميري رحمه الله مع الإمام البنا أنه كان في زيارة لمصر في صحبة والده وكان حريصًا أن يعرفه بالإمام البنا فاصطحبه للمركز العام للإخوان

المسلمين، وتقابلا مع الإمام الذي رحب بهم بشده، وفي اليوم الثاني وأثناء استقلال الأميري ووالده القطار، وقبل التحرك بقليل من محطة مصر وجدا الإمام البنا يأتي مسرعًا حاملاً باقة من الزهور، ليقدمها لوالد بهاء الأميري ويودعه؛ ما ترك هذا الموقف أثرًا بليغًا في نفس الوالد والابن. (عن الأستاذ عبده مصطفى دسوقي).

** ومن مواقفه مع القرضاوي ما ذكره حين رثاه: ومن اللطائف التي تذكر: أنه اتصل مرة بهاتفي في المنزل، وكان رقمه سهلاً حفظه الناس، وهو 22522 وقد ردت عليه ابنتي الصغرى، وسأل عني فلم يجدني، فأملى عليها هذه الشطرات:

يا خمسة تحفها المثاني	ويا خليلا ماله من ثان
يبعد عني وهو مني دانِ	وكلما واصلته جفاني

فلما عدت إلى البيت ذكرت لي ابنتي ما أملاه عليها، فطلبته وقلت له: وهل أستطيع أن أجفوك؟ وهل يجفو الخليل خليله؟!

** ومن المواقف التي أثرت عنه ما حدث حين وقف شاب ماركسي في الصف فقال للأستاذ عمر: ما رأيك يا أستاذ في قول بشار بن برد:

إبليس خير من أبيكم آدم	فتبينوا يا معشر الأشرار
إبليس من نار وآدم طينة	والطين لا يسمو سمو النار

وكان ذلك وسط قاعة الدراسة، قصد بها ذلك الطالب إحراج الأستاذ، فارتجل الأميري:

إبليس من نار وآدم طينة	والنار لا تسمو سمو الطين
فالنار تفني ذاتها ومحيطها	والطين للإنبات والتكوين!

وفي موقف ارتجالي إثر تساؤل فتاة عن رأيه في قول الشاعر:

خلقت لنا الجمال فتنة	وقلت لنا: يا عباد اتقون
وأنت جميل تحب الجمال	فكيف عبادك لا يعشقون

فرد رحمه الله مرتجلاً:

خلقت لنا الجمال نعمة	وقلت لنا: يا عباد اتقون
إن الجمال تقىً والتقى	جمال ولكن لمن يفقهون
فذوق الجمال يزكي النفوس	ويحبو العيون سمو العيون
وإن التقى هاهنا في القلوب	وما زال أهل التقى يعشقون
ومن خامر العشق أخلاقه	تأبّى الصغار وعاف المجون

ومن المواقف التي كتبها بنفسه في ديوانه (مع الله) أنه في تعرض شبابه لمواقف فتنة مغرية، كادت تعصف به لولا إيمانه؛ ففي إحدى لياليه بكراتشي؛ عاصمة باكستان – وعلى التحديد في 8 ذي الحجة 1375هـ/ 17/ 7/ 1956 تعرَّض إلى إغراءٍ كثير، وكانت هذه الليلة توافق ليلة عرفة؛ فاستيقظ بعد منتصف الليل، هائج النفس، ثائر الشباب، وذَكَر إقامته على التقوى في باريس وهو طالب؛ وذكر مواقفه في الحج، في مثل هذه الليلة، منذ عام مضى؛ وذكر ما تعرّض له قبل ساعات! وفي غمرة الحيرة، وسُوار النفس،

وأوار الظمأ، أنشد قصيدة من 35 بيتًا؛ عنوانها: ضراعة ثائر، ولما كاد ينبلج الصباح، هدأتْ نفسه بعض الشيء، وعاد يراود الكرى! ومما كتبه فيها:

كيف أنجو يا خالقي من شباب	عارمٍ عاصف التوثب ضار!؟
مستبدٍّ بكل ذرات جسمي	مستفزٍّ كوامن الأطــوار
كلما رمت كبته ثار جهلا	وتخطى عقلي وأعيا وقــاري
فأنا منه ما كبحت هواه	في جموحٍ وحدّةٍ واستعار
كيف أنجو.. وإنه مستقر	في كياني وفي صميم نجار
هو من طينتي التي لوثتني	ورمتني فريسة الأقــدار
إنه رجعة الصدى لفحيحٍ	لاهبِ الذاتِ غاشمٍ كَفّار
قد تحدى أبي الكبير قديمًا	فرماه من عالم الأبرار

إلى آخر القصيدة..

قالوا عن شعره:

قال الشاعر والأديب الكبير الأستاذ عباس العقاد عن قصيدته (أب) في إحدى ندواته التي كان يعقدها في منزله بمصر الجديدة وكان ذلك في رمضان 1381هـ :

لو كان للأدب العالمي ديوان من جزء واحد، لكانت هذه القصيدة في طليعته!

وكان مما قاله العقاد عن ديوان الأميري (مع الله):

آيات من الترتيل والصلاة، يطالعها القارئ فيسعد بسحر البيان، كما يسعد بصدق الإيمان، وقد قرأت طائفة صالحة من قصائده، وسأقرأ بقيتها، وأعيد قراءة ما قرأته؛ لأنه دعاء يتكرر ويتجدد ولا يتغير، وثوابكم من الله عليه يغنيكم عن ثناء الناس، وإنه على هذا لثناء موفور، وعمل مشكور، فتقبلوا مني شكره، واغتنموا من الله أجره، وعليكم سلام الله ورضوان الله.

عباس محمود العقاد.. في 4/2/ 1960م.

وكتب الشيخ أبو الحسن الندوي في مقدمته لرياحين الجنة يصف الأميري بقوله:

وجدت في شعرك لذّة ومتعة وسعادة، ما لا أجده في غيره من الشعر الجديد، وهو والحق يقال نفحات من الإيمان، وقبسات من نور القرآن، وصدق العاطفة، ورقّة الشعور، وتصوّر دقيق لهواجس النفس، وخلجات الفكر، وكم تمنيت أن كنت معك في دعائك، وفي لحظات ابتهالات. وقال يوم نعيه:

إنه يستحق صفة شاعر الإنسانيّة المؤمنّة، وأمير شعراء الإسلاميّين في النصف الثاني من القرن العشرين قاطبة، بعد محمد إقبال أمير الشعراء في النصف الأول.

وقال الدكتور القرضاوي:

لقد جعل الأميري للعرب "إقبالاً" كما للهنود "إقبالهم"، وأحيا شعر "الحب الإلهي" في لغة جزلة عذبة معاصرة، تخاطب الكينونة الإنسانية كلها: عقلاً وروحًا وعاطفة وضميرًا، ولا تخاطب "الإنسان الجسد" وحده، كما يفعل بعض الشعراء المعاصرين، الذين اختصروا الإنسان في المرأة، واختصروا المرأة في الجسد، واختصروا الحياة في اقتناص اللذات واتباع الشهوات! لهذا كان أحب الأوصاف والألقاب إلى شاعرنا: لقب "شاعر الإنسانية المؤمنة"؛ فهو شاعر الإيمان وشاعر الإنسان!

وقال: أذكر أني في ذلك العدد نفسه من مجلة "الشهاب" وفي باب "روضة الأدب" قرأت له أول ما قرأت شعرًا ربانيًّا عذبًا رقراقًا لم يكن لنا به عهد في ذلك الوقت، تحت عنوان "خماسيات الأميري" وفيها مناجاة لله تعالى كأنما تسمع فيها رفيف أجنحة الملائكة، وكأنما هي ترتيلة، أو صلاة مجسدة في شعر مؤمن، أو إيمان شاعر. وعن قصيدته (أب) قال: لقد هزتني هذه القصيدة الفريدة؛ لما احتوته من قوة التصوير، وروعة التعبير عن مشاعر الأبوة الحانية، وعواطف الطفولة اللاهية، ودقائق الخلجات النفسية التي قد تراها متناقضة الظاهر، منسجمة الباطن، وما فيها من صور حية رسمها الحرف الناطق، والحس الصادق، والشعر الرائق، المعبر بسلاسة منقطعة النظير عن

أعمق أعماق المشاعر، وأحنى حنايا العواطف، في لغة جزلة، وجمل عذبة، وعبارات رشيقة، وأسلوب أخاذ، متدفق كالعذب، الزلال والسحر الحلال!

ويقول ابنه البكر الأستاذ أحمد البراء الأميري في قصيدة له بعنوان يقين:

أنا لا أصدق أنه رحلا	هو ذا يشيرُ إليَّ مشتملا
_أنواره في الدار مشعلة	والباب مفتوح وما قفلا
وكتابه فوق السرير جثا	و(الرادُ) يرسل لحنه زجلا
أوراقه ظمأى لقافية	فيها الحروف ترنحت ثَمَلا
وعرائس الشعر التي جليت	أسرابها قد أطرقت خجلا
تلك القصيدة تم مقصدها	هذي القصيدة نصفُها اكتملا
(ألوان طيف) الحب حائرةٌ	همس (النجاوى) بالحبيب علا

وقد توفي رحمه الله في الرياض، وأمر الملك ينقل جثمانه الطاهر ليدفن في المدينة المنورة ببقيع الغرقد بطائرة خاصة، يرافقه نحو مائة منهم أولاده، وصلي عليه العلامة عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله صلاة الجنازة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولعل في هذا المقدار كفاية، ولعله تعالى يقدر أن أتناول شعره في قراءة تالية؛ إن كان في العمر بقية!

عمر الأميري في المنتصف بعد الهضيبي، وأمامهما محمد نجيب رئيس مصر

رجل أمة، اسمه: حسن المعايرجي

لم أر في عمري رجلًا يعشق قضية ويعطيها عمره، ووقته، وماله، وقلبه، وأعصابه، كهذا الرجل الذي أكسر به قاعدتي في عدم الكتابة عن أشخاص حولي، حتى أحافظ على حياد قلمي، وصدق عبارتي، وبقاء رأيي من قلبي – وحده – وأتجنب الوقوع في أن أقول كلامًا لا يُرضي الحق، أو لا يرضي أهل الحق. كسرت القاعدة لأن الرجل ببساطة مهضوم منسي!

ولعلي لا أفتئت إذا قلت إنه يقابَل بالتجاهل مع سبق الإصرار، رغم أنه يقوم بعمل مؤسسة كاملة، هو مديرها، وفرّاشها، وهيئة الباحثين بها، وهو الراصد، والمترجم، والمراسل، وعامل الأسانسير.. ويجعلك – بصدق – تحس بالفرق بين النائحة المستأجرة وبين الثكلى..

بين أن يكون الرجل صاحب قضية يتعب لها، ويُبحُّ صوته من أجلها، ويتحسر "لتطنيش" من حوله لها، وبين أن يكون تاجر ثقافة، منها "يتسبب"، وبها يستفيد، ويأكل من عوائدها "الفالوذج بدهن اللوز".

وقضية حسن المعايرجي: القرآن الكريم، رغم أنه ليس أستاذًا في كلية الشريعة، ولا متخصصًا في علوم القرآن – بمعناها المعروف – بل هو أستاذ أكاديمي في الأحياء الدقيقة "الميكروبيولوجي" أدمن التعامل مع الفطريات والميكروبات والفيروسات وما شابه.. ولكن الله تعالى ابتلاه بفضول وغيرة إسلامية، دفعاه ليسأل نفسه حين كان يدرس الدكتوراه في ألمانيا: كيف نوصل القرآن الكريم لغير الناطقين بالعربية؟

ولما حاول البحث عن هذا السؤال وجد نفسه أمام متاهات وأحجيات، وعراقيل ومشكلات، وأمورٍ تحير الحليم:

مئات الترجمات الحقيرة المسيئة لكتاب الله تعالى، بمئات الطبعات، ومئات اللغات، بمئات الأشكال والأحجام "اقترفها" قساوسة وحاخامون، ودجاجلة ومستشرقون، وخمورجية وحشاشون، وجواسيس وصيادون في الماء العكر، كلهم "يعكّ" شيئًا يسميه ترجمة، مرةً تحت اسم "قرآن محمد" ومرة "أحاديث محمد على المائدة" وثالثة "مختصر القرآن" ورابعة أهم عشر سور، وخامسة القرآن مرتبًا على طريقة "حادي بادي كرنب زبادي"، أو "واحد اثنين عم حسين".. جرأة رهيبة، وإهانات بشعة ضد القرآن الكريم، الذي هان بهوان أصحابه، ولا من منتبه، ولا من غيور، ولا رقيب ولا حسيب.

انتبه المعايرجي – شفاه الله – قبل عقود طويلة، وبدأ يصرخ ويستغيث، عبر الصحف والمجلات العربية وغير العربية، وبدأ بجمع الترجمات ويوصّفها، ويؤلف الببليوغرافيات، ويراسل المهتمين من أقاصي المعمورة، ليحصل بأية طريقة على ترجمات لكتاب الله تعالى صحيحة أو محرفة، ثم يحاول – ما وسعته المحاولة – أن يقف في وجه التيار، فيتصيد بعض الترجمات

المقبولة، ويجتهد في إيصالها إلى من يقرأ بلغتها، فيبدأ في الطباعة والتوزيع، يساعده في ذلك بعض المحسنين الأخفياء، ممن أدركوا أهمية عمق وحجم الجرح الذي يحاول علاجه، وتصل الترجمات بجهد فردي – تقريبًا – إلى بقاع كان من المستحيل أن تسمح بمرور نملة تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله.. دخلت إلى الصين الشيوعية، والاتحاد السوفييتي، وأفغانستان، ويوغوسلافيا، وإلى أفريقيا، وأوروبا، بلغات عديدة، وطبعات نادرة فريدة.

باتت قضية الترجمات المحرفة هاجسًا يستولي عليه، ويحركه، حتى إنه "جهز الشوالي قبل اللبن" كما يقول المصريون، فحلم في يقظته بقيام مؤسسة عالمية لخدمة كتاب الله عز وجل: طباعة وتفسيرًا وترجمة ورصدًا ودفاعًا.

وخطط لقيام هذه الهيئة من الفرّاش إلى رئيس مجلس الإدارة، وحدد أقسامها ولجانها، ومسؤولياتها، وحجمها المادي والمعنوي، ودورها في الخدمة الشاملة؛ بعد أن لاحظ وجود هيئات إسلامية تتبع منظمة المؤتمر الإسلامي لكل شيء، حتى لكرة القدم.. اللهم إلا القرآن وحده، فهو الذي لا كيان له يدافع عنه، ويغار له.

رسم الفكرة وبلورها وحده، أعانه على ذلك ربه عز وجل، ثم جَلدُه ودأبه الفائقان، واستفادته من معرفته بلغات أوروبية، وبالكمبيوتر، وبعمله السابق أمينًا لمركز البحوث العلمية والتطبيقية بجامعة قطر، فحصّل ما لا يقدر على تحصيله عشرات غيره، حتى إنني أزعم أنه رائدٌ مستكشف لفرع جديد من فروع علوم القرآن ينبغي أن يهتم له المختصون، ويستفيدوا منه، ويبنوا عليه، فإذا كان الدارسون لعلوم القرآن الكريم يتحدثون عن الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، والمحكم والمتشابه، وأسباب النزول، ومناهج المفسرين وما شابه، فإن المعايرجي قد فتح بابًا جديدًا حاول بعض السابقين أن يطرقوه لكن لم يجترئوا على اقتحامه كما اجترأ هو: باحثًا ومؤصّلًا وجامعًا ومحللًا، ثم منبهًا ومحذرًا، وواضعًا علامات على الطريق، وإشارات هامة لمن يسلكه بعده، تتمثل في كتابين – بالعربية والإنجليزية – عن الترجمات وتاريخها ومدارسها ونماذجها، وخريطة شديدة الأهمية

والاستيعاب لحركة الترجمة منذ سنة 1143م، ثم مكتبة نادرة وشديدة الثراء، فيها مئات من الترجمات والطبعات باللغات العالمية والمحلية، الحية والمنقرضة.

وأتمنى على الله تعالى أن تهتم بهذه المكتبة – وأصحابها – مؤسسة دعوية أو أكاديمية لأنها كنز، أظن أنه ليس موجودًا في كبريات المكتبات العامة والخاصة.. وحرام أن يبقى دفينًا أو مجهولًا.

وآفة الدكتور المعايرجي أنه بعيد كثيرًا عن الأضواء، لا تعرفه الصحافة، ولا يأبه له التلفاز، ولا يحس به المحررون الذين يفتشون عن الرجل "اللي بيسمّع" و "يموتون" في الإثارة والفرقعة بغضّ النظر عن المصداقية والموضوعية والجدوى، ولو كان يملك بعض مواهب التسويق والبهلوانية لكان له ولموضوعه ولمكتبته شأن آخر.

آفته أنه كان "دقة قديمة" فهو دقيق جادّ تراثي، لا يزال يحب الخط الكلاسيكي، ويهتم بلوحات الثلث الجلي "العفيّة" التي يكتبها حامد الآمدي وحليم وحقي وغيرهم.. ولا يعرف جلا جلا..ولا يخرج من قبعته أرانب، لذلك فإن قضيته بقيت خافتة، حتى عن المعنيين بعلوم القرآن ودراساته!

إنه يا سادتي – أساتذة علوم القرآن يملك – فعلًا – ما لا تملكون، ويكمل نقصًا أنتم في حاجة إليه.. أعانته على ذلك معرفته باللغات الأوروبية، ثم العشق المستبد لهذه القضية.

لقد قامت دول بطبع القرآن الكريم – وبعض الترجمات – تبركًا أو استعراضًا أو إثبات حالة، وبعضها – كالمملكة العربية السعودية – أقامت مشروعًا ضخمًا كمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الذي يصفه الدكتور المعايرجي بأنه أعظم مشروع دعوي في القرن العشرين (طبع منه أكثر من مائتي مليون نسخة حتى الآن)..

فهل تعجز دولة إسلامية أن تتبنى المشروع الذي عاش المعايرجي عمره من أجله، ومات بحسرته من أجله؟

إنها دعوة لوزارات الأوقاف ألا تُفلت من يدها مشروع الهيئة العالمية للقرآن الكريم، الذي خطط له المعايرجي رحمه الله، وألا تفلت مكتبته الفذة النادرة.

ودعوة للمتخصصين في القرآن الكريم وعلومه أن ينتبهوا قليلًا لهذا الجهد الذي دام ثلاثة عقود، غير مسبوق ولا مشكور.

ودعوة للأمة العربية أن تقدر أعلامها – الجادين – وتكرمهم، وترعى جهدهم، خصوصًا أولئك الذين عملوا في هدوء، وحرصوا على أن يفعلوا أكثر مما يقولون، ويعطوا أكثر مما يأخذون، ويصمتوا أكثر مما يضجون.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامى في بيت الدكتور المعايرجي

ابن باز العالم الولي الجواد

ما كُفَّ مَنْ رُزِقَ البصيرةَ والهدى	فغدا لرَكْبِ المبصرين دليلا
إن المكارم إن قَصَدْتَ طِلابها	عند ابنِ بازٍ كُمّلت تكميلا

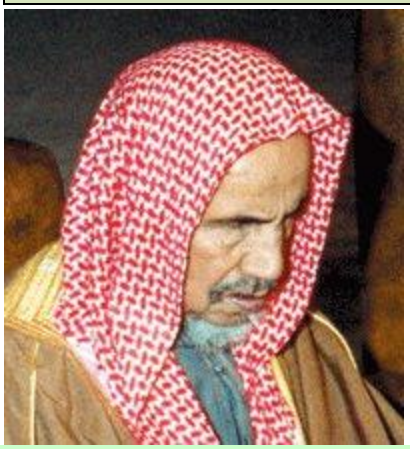

يراه الغلاة المتصوفة والشيعة شيطانًا رجيمًا، ويراه الأكثرون عالمًا ربانيًّا، رقيقًا صاحب خلق ربيع، ودين جم، وسلوك غير مشوب، ولا أزكي على ربي تعالى أحدًا! وهي شهادة أسأل عنها أمامه سبحانه، أرجو أن أكون فيها صادقًا:

هو رجلٌ أمة.. أحسبه والله حسيبه: أمة في العلم.. أمة في الحلم.. أمة في الجلَد.. أمة في الدعوة.. أمة في احتراق القلب لأجل المسلمين..

دخلت مكتبه لأول مرة سنة 1975م (1395هـ) حين كان رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ورأيته آخر مرة في جامِعِه بمكة المكرمة في ذي الحجة 1417هـ (1997).

وبين هذين التاريخين سمعت، ورأيت، وتواتر على سمعي وأسماع غيري أن هذا الشيخ – رحمه الله ونفعنا الله بحبه رأسٌ في العلم والعبادة، ومنارة دعوية هادية، وأنموذج فذ في أعمال الخير والبر، لا أزكيه على الله تعالى، وإنما الناس شهود الله في الأرض، فإذا أحب سبحانه عبدًا كما أخرج مسلم في صحيحه وضع له الحب والقبول في الأرض، ورفع ذكره بين (الصالحين)، وأضفى عليه من المهابة وطيب الأثر ما لا ينال غيره، ممن قصَّروا عن عمله ودأبه.

سمعت الثناء عليه من علماء أجلّة، ومن طلبة علم مميزين، ورأيت أطرافًا من بركاته، وربما نالني طرف خير من دعواته:

جرت العادة عند التخرج في الجامعة أن توزع الشهادات في حفل كبير على المبرزين في الدراسة، وكان الشيخ – سَنَتئذٍ هو الذي يوزع الشهادات على الأوائل، فكان يميل على أذن كل طالب، لِيُسِرَّ إليه بكلام يخصه به لا يسمعه غيره.. ولم أعرف ما يقول حتى جاء دوري في تلقي همسات الشيخ، فإذا هو يحرضني على تقوى الله تعالى، ويحث على العمل بما تعلمت، وينبه عقلي إلى فضيلة أن أكون داعية لله عز وجل على علم وبصيرة.. فكانت كلماته آخر ما تعلمت من الخير، في هذه الجامعة المباركة، التي كانت تحوي خلاصة علماء الأمة في فنون العلم الشرعي آنذاك..

وحسبنا أننا سمعنا فيها للشنقيطي، وأبي بكر الجزائري، وعبد المحسن العباد، وحماد الأنصاري، وعبد الفتاح القاضي، ومحمد سالم محيسن، وأكرم العمري، وعلي جريشة، ومحمود ميرة، والغنيمان، وعبد العظيم الشناوي، ومحمد نايل، ومحمد محمد خليفة، وغيرهم من أهل العلم والفضل.

وأقول شاهدًا، شهادة راءٍ للشمس، عارف بالأحداث: إن الشيخ نفعنا الله بحبه وحب أمثاله تميز بجملة مزايا قلَّ أن تجتمع في غيره من العلماء.

ولقد والله رأيت كبار الكبار، وخالطتهم، فعرفت وأنكرت، وقبلت ورددت لكن ابن باز شيء آخر: في رفقه ولطفه، ورقته وورعه، وسخاء يده ولسانه، وإنفاقه على الدعاة وطلاب العلم، وشدة اهتمامه بأمر الإسلام والمسلمين:

كانت المكافأة التي تعطى لطلاب الجامعة شهريًّا ضئيلة، ولا تكفي إلا الطالب المقتر، خصوصًا إذا كان هذا الطالب متزوجًا، أو يسكن خارج السكن الجامعي، فكان الطلاب المحتاجون يُهرعون إلى الشيخ يأخذون من ماله الخاص ما يعينهم على العيش، والتفرغ للعلم، حتى تنتهي رحلتهم الدراسية.

ومما سمعته آنذاك أن أحد الطلاب احتاج إلى مساعدة "مائتي ريال" فكأن كاتب الشيخ قرأها – خطأ – ألفين فأمر الشيخ بصرف المبلغ له – والألفان آنذاك مبلغ كبير – وعند مراجعة الأوراق اتضح أن الطالب طلب مائتين، فأراد الكاتب تصحيح الأمر،

فنهاه الشيخ قائلاً: لعله كان محتاجًا للألفين، واستحيا فرزقه الله.. أعطه الألفين.

ولم يزل هذا دأب الشيخ إلى أيامنا في الإنفاق على طلاب العلم، وعلى الدعاة خارج المملكة، حتى اختاره الله تعالى فتوفاه.

ولقد رأيت دعاة يعملون في مراكز الدعوة المنتشرة في العالم رواتبهم من مال الشيخ، رحمه الله وأكرمه.

ومن مكارمه في زمن احتجاب العلماء عن الشباب، وصعوبة الوصول إليهم؛ خصوصًا إذا كانوا مشاهير أو "منافيخ" أن باب ابن باز مفتوح دائمًا، ولا يأكل في بيته إلا مع الناس. وهو في أثناء ذلك يأكل، ويجامل، ويسمع للذي يقرأ عليه، ويجيب عن الأسئلة، ويقضي الحوائج.

قال عنه الشيخ المجذوب (المشكاة/3) إن الناس ليتكبكبون حوله أينما وجد: في المسجد، في المنزل، في الجامعة. وإنه ليصغي لكل منهم في إقبال يخيِّل إليه أنه المختص برعايته، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف هو.

ومراجعوه من مختلف الطبقات، ومن مختلف الأرجاء. ولكل حاجته:

هذا يقصد إليه من أطراف المملكة يسأله الفتيا في أمر ضاق به العلماء..

وذلك يفضي إليه بحاجة لا يغني فيها سوى الحلماء الكرماء..

وربما كان بين هذا وذاك من لا يستحق اهتمامًا ولا إصغاء، ولكنه لا يعدم منه الرعاية التي تجبر قلبه.

وقد يكون بين المراجعين من يغلب عليه الحمق، فيسخط ويغلو لغير ضرورة، فلا يغير ذلك من حلم الشيخ، ولا يزيد على الدعاء له بالهداية، ودعوته إلى الأناة. ولم يكن بالنادر أن يزدحم عليه هؤلاء؛ حتى إنهم لا يدعون له متسعًا لراحة، ومع ذلك لا يحاول التخلص من مقامه الضنك، بل تراه يصغي لحاجة كل منهم بهدوئه المعهود، ويجيب كلاً بما يرى أنه الحق.

والشيخ رحمه الله واسع الصدر، حليم إذا جُبه وأوذي، كما مر:

دخل عليه أحدهم فأساء، وسب، وقال: أنتم لا تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا آل بيته، وأنتم.. وأنتم.. فبكى الشيخ.. ثم سكّن الرجل، وهدأه، وانطلق يتحدث عن سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم، وآل بيته الكرام، بما ينبغي من مثله عن سيد الأولين والآخرين، وآل بيته، عليهم الصلاة والسلام.

ومن أهم مزاياه تركه للعصبية، وحبه للعلماء، وثناؤه عليهم مهما كانوا مخالفين في الرأي، ما لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة وحفظه لأقدارهم ومنازلهم، وحرصه على الإصلاح وجمع الكلمة.. وكذا جرأته في الحق، وجهره به لا يخشى لومة لائم: بلغني عن أحد طلاب العلم أن الشيخ أيام فتنة جهيمان الغبية، التي ثارت بالحرم المكي سنة 1979–1399 هـ.

كان حريصًا على أن يناقش هؤلاء الشباب، ويبين لهم خطأ ما هم عليه، حتى إن هذا الشاب اصطحب الشيخ على جلالته، وضعف جسمه، وذهاب بصره في سيارة نصف نقل، مسافة تقارب المائة كيلو متر، في طريق صحراوية شاقة، ليصل إلى هؤلاء الشباب ويناقشهم، عسى أن يراجعوا ما هم عليه من معتقد.

وحين صدر الحكم بإعدام المفكر العظيم الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى غضب الشيخ لذلك، وأرسل برقية شديدة اللهجة، ينكر فيها إعدام (السيد) وختمها بقول الله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (النساء:93).

كما أرسل رسائل لعدد من الزعماء ينكر عليهم عدم تحكيمهم لشرع الله تعالى، وينكر تهجم بعضهم على السنة المشرفة. وحضرت من ذلك موقفًا بنفسي في ختام المؤتمر العالمي للدعوة والدعاة سنة 1977م وكان الشيخ رئيس المؤتمر إذ ذاك، فصاغ مع المؤتمرين برقيات أرسلت إلى عدد من الدول قرئت على الحاضرين جميعًا يومذاك.

ومن المواقف التي تُذكر هنا ما سمعت من الدكتور القرضاوي من الثناء على الشيخ وذكر فضله، والإشادة بموقف له حصل ذات يوم، حين مُنع كتاب القرضاوي (الحلال والحرام في الإسلام) ورفض ما فيه بعضُ العلماء في المملكة، فحصلت مراسلة أو لقاء.. لست متأكدًا بين الشيخين ابن باز والقرضاوي.. أوضح فيها القرضاوي أنه يصر على آرائه، لأنه مقتنع بها، وأنه سيُسأل أمام الله تعالى عن رأي نفسه لا عن رأي غيره، فما كان من الشيخ ابن باز إلا أن أصدر أمرًا بالسماح بدخول الكتاب للمملكة.

وإذا كان من أحد يُجمع الإسلاميون على فضله، وعلمه، وورعه، فهو العلامة أبو عبد الله عبد العزيز بن باز رحمه الله الذي عاش حياة حافلة تقارب التسعين ملؤها التعلم، والتعليم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة، وأعمال البر، والتواضع الشديد، مع مكانته في المملكة والعالم الإسلامي، ومع توليه رئاسة ما لا يقل عن عشرة من المواقع العلمية والدعوية المحلية والعالمية.

فهل يتعلم المستكبرون (والمنافيخ) والمرجفون بين المسلمين، وطوال الألسنة الواقعون في أعراض العلماء؟

الشيخ عبد المحسن العبّاد العالم المتواضع الرفيق

الشيخ عبد المحسن على اليمين

أحيانًا يكون الفم مريضًا، فلا يستسيغ الماءَ العذب الزلال، وأحيانًا يكون البصر كليلاً فيعجز عن رؤية الأشياء على هيئاتها الصحيحة.

وكذلك أحكام البشر على الأفكار والأشياء، حين تسوء طباعهم، وتعوجّ فهومهم، وتلتوي فطرهم، فإنهم يحبون الشيء ملتويًا معوجًّا سيئًا:

العامل النشيط عندهم (حمار شغل)، والطالب المجتهد (صمّيم، وسوسة كتب)، والرجل الصريح المباشر (قفل)، والذي يقول لا ونعم واضحة ولا يقبل المداهنة، هو رجل جافٍ غليظ.. وهكذا.

والحق أن هذه الأحكام عرّية عن الإنصاف والاستقامة وحسن النية، خصوصًا إذا وُجهت ضد العلماء ذوي النسبة الخاصة، أو الفكر المميز، ومنهم شيخي الشيخ العالِم الصالح عبد المحسن العباد حفظه الله وشفاه.

كان اسمه مقرونًا حين سمعته بالشدة والجمود والتعنت، يخافه طلاب الجامعة، ويهابون لقاءه إذا اضطروا إليه، وكذلك تصورته حين رأيته أول مرة، وكان آنذاك نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية وظيفةً، ورئيسها فعلاً، وكانت هيئته العامة توحي بالبداوة، ثم رأيته عن قرب واحتكاك فأدركت كم تخطئ التخمينات الجزافية، وكم تخدع المظاهر، وكم يطلق الشيطان على الصالحين من شائعات.

رأيته ورأيت عجبًا، سافرت معه للحج ضمن بعثة الجامعة، وكان السفر بالأتوبيسات، فصحبنا، وأبى أن يركب الطائرة مثل كبار الشخصيات بل قطع معنا الطريق؛ على طوله.

ولما طال المسير، وأصاب المسافرين العناء، وجدته ينزل من السيارة ليغفو قليلاً فيضع نعله تحت رأسه، ويتغطى بعباءتِهِ، ثم ينام في بساطة عجيبة، وعهدي (بالمعيدين) في الجامعة التي درستُ بها أولاً ناهيك عن الأساتذة، ورؤساء الأقسام، ناهيك عن العمداء، ناهيك عن رئيس الجامعة أنهم نفاخون، شديدو الغرور، وبعضهم يعتقد جازمًا أن الله خلق سعادته من ماء الورد وخلق الناس سواه من ماء البِرَك، فكانت مفاجأة لي مذهلة أن أرى الرجل الكبير يلمسه طلابه بأيديهم، ويرونه نائمًا على الأرض، وذراعه تحت رأسه، في بساطة وتواضع، ومعايشة لا عهد لي بمثلها آنذاك.

ثم عرفته بعد ذلك أستاذًا قديرًا يشرح لنا (بداية المجتهد، ونهاية المقتصد)، فوجدت العلم الوفير، والثقة بالنفس، وحضور الدليل، ومعرفة موارد الخلاف، ورأيته مرحًا بسامًا على غير ما أشيع يداعب طلابه، ويطلق بينهم النكات في بساطة وأخوّة.

أذكر أنهم كانوا يجلسون الطلاب في قاعة الدرس على أساس التفوق، الأول في المقعد الأول، والثاني في الثاني، والأخير في آخر المقاعد، وحين دخل الشيخ أولى محاضراته، ونحن في السنة الرابعة، وجد شابًّا إفريقيًّا يجلس في الصف الأول على الجهة اليمنى، واسمه محمد كسولي (وهو سفير بلاده أوغندا الآن في السعودية والخليج على ما أظن)، فظنه الشيخ يجلس في غير مقعده؛ لأن الموقع متقدم جدًّا، فقال له: ارجع إلى

كرسيك، لماذا تجلس هنا؟ قال الشاب: هذا كرسيي، وأنا في مكاني، فعجب الشيخ وقال: أنت تجلس هنا حقًّا؟ فلماذا سماك أبوك كسولي وأنت ممتاز؟

رائد علم التخريج والأسانيد:

والشيخ شفاه الله وحفظه أستاذ في الفقه، كما أنه عالم في الحديث الشريف وعلومه، بارع في معرفة الرجال، وكان من أول ما درسنا له كتاباه في التخريج والأسانيد من صحيحي البخاري ومسلم، درسناهما تطبيقيًّا سنتي 1395 – 1396هـ (1975 – 1976م) وعلمي أنهما أول ما أُلف في التخريج والأسانيد مطلقًا، تبعتهما بعد ذلك مذكرتان تعليميتان للشيخ عبد الغفار حسن رحمه الله الباكستاني، ثم كتاب للدكتور محمود الطحان السوري، ثم تتالت الدراسات في هذا الفن بعد ذلك، فللشيخ في ظني ريادةٌ في الكتابة في هذا العلم، وله فضل تعليمنا التعامل مع المعاجم الحديثية، وكتب الرجال، ومعالجة ألفاظ الجرح والتعديل، والمراتب والطبقات، والنظر في علل الأسانيد والمتون، ومعرفة غرائب الأسانيد ولطائفها.

كان أيضًا ذا فراسة نفعني الله تعالى بها كل النفع حين أذن بعودتي للجامعة بعد أن فصلت منها بسبب الغياب، ونفعني الله بها حين دخلت عليه ذات مرة غاضبًا مشتعلاً من الانفعال ساعة دخولي مكتبه (مرة ثانية هو رئيس الجامعة)، وكان ذلك بعد أن سمعت عن قرار رأيت فيه إضاعة لجهدٍ كبير كنت قد بذلته في إطار النشاط الطلابي، فلما رأى انفعالي ساعة دخولي مكتبه تفّرس أني غاضب، فتحرك برشاقة، وسحب كرسيًّا وضعه ليس في مواجهته أمام المكتب، بل بجوار كرسيه مباشرة، وراء المكتب، حتى أكون قريبًا منه، ودعاني للجلوس وهو يبتسم ويقول: ما لك؟ قلت: قراركم بكذا وكذا سينسف عملي كله، قال: ولا يهمك، لا تبالِ به؛ اعمل ما شئت، فكأنما غمرني بماء بارد، وذهب عني الغضب كله، وخرجت سعيدًا أكاد أطير من الفرحة.

مرة أخرى أصدر قرارًا بمنع سفر الطلاب لبلادهم في عطلة منتصف العام، فراجعته بشدة وأصررت على رأيي، فأخذ يقنعني بمزايا البقاء بحجج مختلفة، وأنا أدفعها كلها،

وهو يضحك، فصرفني للعميد على سبيل التخلص مني، فذهبت إليه وقلت: يسلم عليكم الشيخ عبد المحسن، ويطلب أن تأذن لنا في السفر، فتعجب العميد بشدة، وقال: لا يمكن، قلت: فاسأله إذن، ولما اتصل به العميد سمعت الشيخ عبد المحسن على الخط يضحك مقهقهًا ويقول له: ائذن له وللآخرين.

كان أيضًا سوسة علم، يدخل الجامعة يوميًّا عقب صلاة الفجر، ويبقى حتى ينتهي الدوام مع أذان الظهر، فنصلي جميعًا: الرئيس والعمداء والأساتذة والطلاب، ثم ننصرف للغداء، والنوم، ومع صلاة العصر يعود ليلزم مكتبه يقرأ ويكتب، ويبقى هكذا حتى صلاة العشاء، لا يخرجه إلا صلاة المغرب وحدها.

مواعيد مضبوطة، وفطرة سليمة، وعلم ورفق، وحسن خلق، لأتأكد بعد المعايشة من بطلان الإشاعات عن الجفاء، والبداوة فيه، وفي رجال نفع الله بهم فعلمونا ما لم يعلمنا (المشايخ الإتيكيت)، وأثروا فينا ما لم يؤثر ذوو الياقات المنشاة (والجِزم الأجلاسيه).

ابن باز والعباد:

يقول الشيخ: كنت آتي إليه يعني الشيخ بن باز رحمه الله قبل الذهاب إلى الجامعة وأجلس معه قليلاً، وكان معه الشيخ إبراهيم الحصين رحمه الله، وكان يقرأ عليه المعاملات من بعد صلاة الفجر إلى بعد ارتفاع الشمس. وفي يوم من الأيام قال لي: رأيتُ البارحةَ رؤيا، كأنّ هناك بَكْرَةٌ جميلة (ناقة شابة) وأنا أقودها وأنت تسوقها، وقال:أوّلتُها بالجامعة الإسلامية، وقد تحقّق ذلك بحمد الله، فكنتُ معه في النيابة مدّة سنتين، ثم قمتُ بالعملِ بعدهُ رئيسًا بالنيابة أربعةَ أعوام.

من عجائب خلقه:

حدثني أخي الدكتور محمد الجمل عن صبر الشيخ وتماسكه في المواقف الصعبة، ومن ذلك أنه كان يعقد الدروس لطلاب العلم في بيته، وذات درسٍ دخل مريدوه وطلابه الذين يختلفون إلى بيته لسماع دروسه كعادتهم، فبقي معهم يشرح، ويقرر، ويستفيض، لكنه على خلاف عادته – كان يترك الدرس بين الحين والحين، يقوم ويرجع، فسأله أحدهم عن السبب، فقال ببساطة: إن بالداخل فتاةً تحتضَر، وإنه كان يتركهم ليعرف حالها ثم يعود ليواصل الدرس، لم يعتذر إليهم، ولم يحسوا شيئًا من النقص، في لهجته أو عطائه، بل صَبَر حتى اكتشف طلابه الأمر بأنفسهم، فقاموا على استحياء وانصرفوا. ولقد قرأت من جمع أحد الإخوة في أحد المنتديات هذه الصور من ورعه فيقول: حدثني أحدهم قصتين عن ورع الشيخ تذكرك بورع السلف الأولين!

قال: سمعت سائق الشيخ الذي يذهب به إلى الجامعة ويعود به أن الشيخ ما كان يرضى أن يوقف سيارة الجامعة على الطريق من أجل شراء حاجة للبيت.

وقال: سمعته أيضا يقول: لما انتهت رئاسة الشيخ للجامعة الإسلامية (والتي تولى رئاستها بعد سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله) رأيت الشيخ واقفًا أسفل ينتظر، فمررت عليه بالسيارة كالعادة لأوصله للمنزل، فأبى الركوب وقال: ما دريت أنا قد انتهت مدة رئاستي، وقد أرسلت لابني يأتي ليأخذني!

ومن الأمور التي تدل على رفعة أخلاقه ورحمته للناس أنه رغم ترئُّسِه للجامعة الإسلامية لم يكن يستغل هذا المنصب الرفيع ليشق على العاملين معه؛ بل كان يتعمد عدم إقلاق راحتهم، وقد روى الشيخ حماد الأنصاري قال: ذهبت إلى الجامعة عصرًا عندما كان الشيخ عبد المحسن العباد رئيسها، ولم يكن في الجامعة إلا أنا وهو، فقلت له: لماذا لا تأتي بمن يفتح لك الجامعة قبل أن تحضر؟، فقال: لا أستخدم أحدًا في هذا الوقت، لأنه وقت راحة، وكان ذلك وقت العصر!

مداعبات:

يقول الشيخ في محاضرته (عمر فلاته كما عرفته):

(ومن الطرائف العجيبة أنّني أداعب الشيخ عمر حول سنّه وأنّه كبير، ولا يظهر عليه الكِبَر، وفي سنة من السنوات كنّا في الحج، ودخلنا مخيم التوعية في عرفات، وإذا فيه رجل قد ابيضّ منه كلُّ شيء حتّى حاجباه، فقلتُ للشيخ عمر: هذا من أمثالك أي: كبار السنّ، وبعد أن جلسنا قال ذلك الرجل يخاطبني: أنا تلميذ لك، درّستني في مدرسة ليلية ابتدائية في الرياض وكان ذلك في سنة 1374هـ تقريبًا، وكنت في زمن دراستي في الرياض أدرِّس مساءً متبرعًا، في تلك المدرسة التي غالبُ طلابها موظفون، فوجد ذلك الشيخ عمر رحمه الله مناسبة ليقلب الموضوع عليّ، فكان يكرّر مخاطبًا ذلك الرّجل:

أنت تلميذ الشيخ عبد المحسن؟).

ويقول: (كنتُ معه الشيخ عمر فلاته رحمه الله في مجلس وفيه أحدُ المشايخ وقد حج فرضه بعد ولادتي بسنة، وكنتُ أعرف ذلك فسألته قائلاً: متى حججتَ فرضَك؟ فقال له الشيخ عمر: انتبه لا يجرّ لك لسانك، يعني بذلك التوصل إلى مقدار عمر ذلك الشيخ).

قالوا عن عبد المحسن العباد:

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله:

لا أعلم له نظيرًا في هذا العصر في العناية بالحديث وسعة الإطلاع فيه، وأنا لا أستغني، وأرى أنه لا يستغني غيري عن كتبه والإفادة منها! وهذه شهادة عجيبة من رجل كالألباني رحمه الله تعالى.

وقال المحدث الشيخ حماد الأنصاري:

ما رأت عيني مثله في الورع..

وقال: ينبغي أن يكتب عنه التاريخ، فقد كان يعمل أعمالاً في الجامعة تمنيت لو أني كتبتها أو سجلتها، وقد كان يداوم في الجامعة على فترتين صباحًا، ومساء بعد العصر،

ومرة جئته بعد العصر بمكتبه وهو رئيس الجامعة، فجلست معه، ثم قلت: يا شيخ أين القهوة؟ فقال: الآن العصر، ولا يوجد من يعملها، ومرة عزمت أن أسبقه في الحضور إلى الجامعة، فلما وصلت إلى الجامعة فإذا الشيخ عبد المحسن يفتح باب الجامعة قبل كل أحد!

ولا يزال عطاء العالم الجليل الشيخ عبد المحسن العبّاد دفاقًا، رغم أنه كاد يفقد بصره، جزاه الله عنا خير الجزاء، وجزى علماءنا ومشايخنا وكل من له يد في تكويننا، والحمد لله رب العالمين.

الشيخ في سطور:

ولد الشيخ عبد المحسن العباد عقب صلاة العشاء من ليلة الثلاثاء من شهر رمضان عام 1353 هـ في بلدة الزلفي، ونشأ وشب فيها، وتعلم مباديء القراءة والكتابة في الكُتاب عند بعض مشايخ الزلفي، ومنهم الشيخ عبد الله بن أحمد المنيع، والشيخ زيد بن محمد المنيفي، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الغيث، وقد أتم على يديه القرآن الكريم وغيرهم

ومن شيوخه بعد ذلك: الشيخ المفتي محمد بن إبراهيم والشيخ العلامة عبد العزيز بن باز والشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي والشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي رحمهم الله أجمعين.

نال الشهادة الابتدائية فيها عام واحدٍ وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية. ثم انتقل إلى الرياض ودخل معهد الرياض العلمي، وكانت السنة التي قدِم العلامة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله من الخرج إلى الرياض، وأول سنة يُدرسُ في هذا المعهد. وبعد تخرجه التحق بكلية الشريعة بالرياض، وأثناء السنة النهائية في الكلية عُين مدرسًا في معهد بريدة العلمي في 1379/5/13هـ، وفي نهاية العام الدراسي عاد إلى الرياض لأداء الامتحان النهائي في الكلية، فأكرمه الله تعالى بأن كان ترتيبه الأول بين زملائه الذين كانوا يمثلون الفوج الرابع من خريجي كلية الشريعة بالرياض، كما كان ترتيبه الأول أيضاً في سنوات

النقل الثلاث في الكلية، وعند حصوله على الشهادة الثانوية بمعهد الرياض العلمي، ودرس الشيخ في الجامعة، وفي المساجد على يد العلماء الكبار ممن سبق ذكرهم.. وفي عام 1380هـ نقل إلى التدريس في معهد الرياض العلمي، وعندما أنشئت الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وكانت أول كلية أنشئت فيها هي كلية الشريعة، اختاره سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ للعمل فيها مدرسًا، وبدأت الدراسة فيها يوم الأحد 1381/6/3هـ وكان الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد أول من ألقى فيها درسًا في ذلك اليوم. وقد حصل على شهادة الماجستير من جامعة الأزهر، وبقي يعمل مدرسًا في الجامعة إضافة لتدريسه في الحرم النبوي الشريف. وفي 1393/7/30 هـ عُين نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية، وقد اختاره لذلك المنصب جلالة الملك فيصل رحمه الله، وكان أحد ثلاثة رشحهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رئيس الجامعة في ذلك الوقت، وبقي في ذلك المنصب إلى 1399/10/26هـ، حيث أُعفي منه بإلحاح منه، وبعد انتقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله إلى رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء كان هو المسؤول الأول، خلال هذه الأعوام الستة لم يتخل عن إلقاء درسين أسبوعيًّا في السنة الرابعة من كلية الشريعة.

من أقواله:

(من أحب أعمالي إلى نفسي وأرجاه لي عند ربي حبي الجم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم، وبغضي الشديد لمن يبغضهم، وقد رزقني الله تعالى بنين وبنات، سميت أربعة من البنين بأسماء الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، بعد التسمية باسم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وسميت بعض البنات بأسماء بعض أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، بعد التسمية باسم سيدة نساء المؤمنين رضي الله عنها. وأسأل الله تعالى وأتوسل إليه بحبي إياهم، وبغضي من يبغضهم، وأن يحشرني في زمرتهم، وأن يزيدهم فضلاً وثوابًا).

من مؤلفاته ودروسه:

تخريج عشرين حديثًا من صحيح الإمام البخاري/ تخريج عشرين حديثًا من صحيح الإمام مسلم/ من أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم/ عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام/ فضلُ أهل البيت وعلوُّ مكانتِهم عند أهل السُّنَّة والجماعة/ عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر/ الإخلاص والإحسان والالتزام بالشريعة/ فَضلُ المدينة وآدابُ سُكنَاها وزيارتِها/ من أقوال المنصفين في الصحابي الخليفة معاوية رضي الله عنه/ رفقًا أهل السنة بأهل السنة.. وغيرها كثير..

وهو مدرس بالحرم المدني فالعام الماضي كانت دروسه يوميًّا عدا الخميس بعد كل صلاة مغرب بالحرم النبوي في شرح سنن أبي داود، وله دروس أخرى في مسجده.

أتم الشيخ شرح عدة كتب من كتب السنة النبوية، وشرح مقدمة ابي زيد القيرواني في العقيدة، وشرح في المصطلح ألفية السيوطي، وشرح كتاب الصيام من اللؤلؤ والمرجان، وكتاب آداب المشي إلى الصلاة، وكلها في الحرم الشريف.

الشيخ عنتر حشاد: حجة الله تعالى على المتكبرين

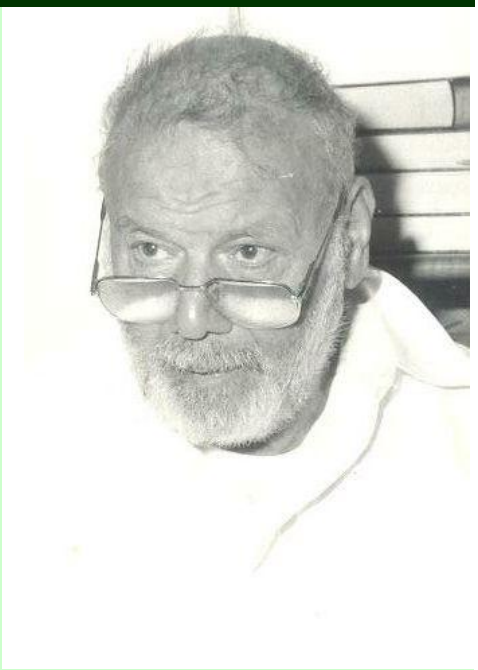

كما أن للبطن شهوة، وللفرج شهوة، فإن للنفس البشرية أنواعًا من الشهوات شتى، السالم من سلّمه الله منها، ومن أخطر هذه الشهوات شهوة الميكروفونات/ شهوة الفلاشات/ شهوة الأضواء التي تجعل الرجل مستعدًا لأن يفعل أي شيء، كي يبقى في البرواز/ في الصدر، يقول له الناس "العظيم أهه".

وهي شهوة يُبتلى بها المثقفون والفنانون، والكتّاب المفلسون، ومعهم للأسف عدد من العلماء الدعاة الذين "أدمنوا" هذا المخدر الذي قد يجلب الشرف الدنيوي، لكنه يقتل شرف النفس، وشرف الروح.

وهي أيضًا مرض صعب العلاج كالإدمان يحتاج إلى قهر للنفس، وتعالٍ على سعارها، ونسيان لحظوظها، والنظر لمن هو أقل شأنًا، وأفقر حالاً، وأخمل ذكرًا..

وما أندر ما تلقى هذا الصنف "العزيز" الذي يرتضي أن ينتحي بنفسه ناحية، تاركًا تكتكة الفلاشات، وغنائم الدنيا لأبطال الجري الماراثوني، وليجلس مع نفسه، أو مع ربه سبحانه، يسمع علمًا، أو يعلّم مسألة، أو يقرأ آية، أو يصلي نافلة، وهو يقول للدنيا بلسان حاله: أنت تحت حذائي، غُري غيري، فأنا في خلوتي في جنة.

ومن هذا الصنف النادر كان الأستاذ الجليل عنتر حشاد عليه رحمات الله الرجل القريب بكل معاني القرب، الذي لم يعرف تكلفًا، ولم يعرف تكبرًا، ولا إضاعة وقت، ولم يستطع أن يجلس دون أن يفيد أو يستفيد.

عرفه طلاب العلم في قطر، ورواد مركز الدعوة، ومسجد عمر بن الخطاب عاشقًا لكتاب الله تعالى، جعله سلواه وهجّيراه، فكان معه من مجلس إلى مجلس، لا ينقطع عنه أبدًا.. حتى عند وقوع البلاء الشديد، حتى يوم ماتت زوجته رفيقة دربه الطويل،

دفنها قبيل صلاة الظهر، وعند صلاة العصر كان موجودًا في جامع عمر في حلقة قرآن، كأنه لم يدفن عزيزةً قبل ساعات قليلة، اندهش الصديق العزيز "الشيخ الشحات فريد" من مجيئه، وسأله: حتى اليوم يا مولانا؟ فقال:

يا بني: وهل يمنع الحزن أو الفرح من تلاوة كتاب الله؟!

كان يحسن التدبر، ويتقن التعامل مع كتاب الله تبارك وتعالى، ويعرف دقائق القراءات، والوقف، والمعاني، وغريب القرآن، بدرجة مدهشة، بذلت ذات مرة جهدًا للمقارنة بين جملة من المصاحف المطبوعة، ولحظت اضطرابًا في قضية الوقف اللازم، في نحو سبعة مواضع، فاتصلت أسأله عنها، وكأني "جبت الديب من ديله" فإذا به يسرد عليّ المواضع ذاتها، وزيادة خمسة مواضع أخرى، سردًا، دون تعمّل، ولا كدّ ذهن، كأنه كان معي في طوافي بهذه المصاحف.

عرفته وصولاً متواضعًا شديد التواضع أول عهدي بالدوحة، مغتربًا وحيدًا، لا أكاد أعرف أحدًا، مع عجزي المزمن عن القيام بأمر نفسي، فكان كثيرًا ما يزورني بعد أن تعرفت إليه في إحدى دور العلم، ويمر بالبيت فيجلس، ويطيل الجلوس مع شاب وحيد، غريب، يحتاج إلى إيناس ومؤاخاة.

في أول عيد مرّ بي لم أكن أعرف تقريبًا غير الأخ الشيخ علاء رجب الذي "عيّد" معي.. وفي وحدتنا الحائرة العاجزة، إذا بضيف يطرق الباب زائرًا، وكان هو الشيخ الذي جلس معنا إلى أذان العصر، يؤانسنا في عيدنا، ويتغدى معنا مما "هبّبناه" نزعمه أكلاً. وكان كثيرًا ما يأتي حيث أعمل، زائرًا ومسلّمًا، ولا تخلو الجلسة من فائدة علمية، أو لطيفة لغوية، أو سؤال أو مناقشة.

كم كنت أناغشه وأسيء الأدب فيحتملني: يا شيخ: اتق الله.. ستموت قريبًا، ومعك هذا العلم فلا ينتفع به أحد.. اكتب شيئًا ينفعك وينفع الله به الناس.

ويرد عليّ: والله معاك حق.. أفعل إن شاء الله.. وتمر السنة تلحق بأختها، دون أن يترك الشيخ إلا حبّه في قلوب عارفيه، وبعض مقالات يسيرة في الصحف ومجلة التوحيد

التي كان يرأس تحريرها قبل الشيخ أحمد فهمي رحمه الله، وبحثًا عن الجانب الخلقي للنبي الكريم شارك به في المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية بالدوحة في محرم الحرام 1400، وكتابًا سمعنا أنه كتبه في الوقوف في القرآن، نرجو أن يقوم عليه أبناؤه، ويطبعوه علمًا نافعًا، ذخرًا للشيخ عند الله تعالى، كما ترك خلفة عالمًا في الاقتصاد هو ابنه الدكتور نبيل حشاد الحاصل على الدكتوراه في الاقتصاد، من جامعة كنكتيكت بالولايات المتحدة الأمريكية، وله العديد من الكتب المنشورة.

كان متواضعًا – ولا أزكيه على الله تعالى – لدرجة مخجلة لمن أمامه في كثير من الأحيان، كان ينادي بعض الشبان الذين لا وزن لهم تقريبًا بقوله يا أستاذي!

ولا يترك محاضرة ولا درسًا في جامع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو غيره إلا حضر واستمع بتركيز كأنما يستمع لأول مرة فإذا انتهى المحاضر فربما علق؛ إن احتاجت مسألة ما لتعليق لا يجامل وربما أثنى على المحاضر ومضى.

كان لآخر لحظة في حياته يعطي بسلوكه وخلقه الدرس تلو الدرس: النهم في طلب العلم، والبحث عنه حيث يكون، والتواضع، ولزوم المسجد، وإدمان التعامل مع كتاب الله، والنظر إلى من هو أقل.

لكن آخر درس تعلمته على يديه كان درسًا عجيبًا، كان رحمه الله من مواليد 1920م، ومات عن 77 سنة، سمع آخر سنةٍ من عمره عن الجامعة الأميركية المفتوحة، لتي وضعت برامج للماجستير والدكتوراه، فبادرني يستفسر عن مناهجها، ونظامها، ومقرراتها، وأساتذتها، وأعبائها الدراسية، ثم عزم على بركة الله أن يتقدم للدراسة فيها، وجهز أوراقه كاملة، واشترى الكتب المقررة من القاهرة مرة ثانية أذكر أنه كان في السابعة والسبعين من عمره وكان يكثر من زيارتي والاتصال بي بهذا الخصوص...

انظر هذا واذكر أن من الشبان حدثاء الأسنان من يظن أنه جمع علم الأولين والآخرين، فهو إذا كلمتّه في مسألة نظر، ثم عبس وبسر، ثم تنفخ واستكبر، ثم تكلم

من طرف أنفه، وأخذ يتجمل بذكر "كم عنوان" لكتب، وأسماء لعلماء، ثم قال بلهجة المعظم نفسه وليس معه غيره: قال شيخنا..حدثنا شيخنا (!).

ومن عجيب تواضعه ما حدّث أحد أئمة المساجد أن الشيخ علم أن هذا الشاب مَكينٌ في القراءات فاستأذنه الشيخ عنتر ليجلس تلميذًا بين يديه، فكان يتوجه إليه بعد الفجر في غرفته بالمسجد، ويتعلم ما شاء الله..

يقول الشاب: ذات يوم كنت في وداع الشيخ عند باب غرفتي بعد نهاية الدرس، وإذا به يمسك يدي ويقبّلها، فخجلت، وتصببت عرقًا، وعاتبت الشيخ فقال لي: وماله.. أنت شيخي وأستاذي، ومن حقك عليّ أن أقبّل يدك ورأسك، لأنك من أصحاب الفضل عليّ (!).

وكان عصاميًّا رحمه الله بشكل عجيب.. علّم نفسه الإنجليزية لما أحس بالحاجة لتعلمها، ودرس أصول الفقه، والفرائض، وعلوم السنّة المشرفة، رغم تخصصه في العربية ومناهج التربية.. وانطلق في آفاق علوم الإسلام معلمًا متواضعًا سمحًا وصولًا بشوشًا مجاملاً.

كان يتمنى أن يدفن بالدوحة قريبًا من رفيقة دربه، ثم شاء الله تعالى أن يموت بعيدًا عن عيون عارفي فضله.. لم يسمع الناس بوفاته إلا بعدها بأسبوع، ليدوس على الفلاشات ميتًا كما داس عليها حيًّا.

لما مات رثاه العلامة القرضاوي على منبر جامع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الدوحة، هو والعلامة محمود شاكر في وقت واحد فقال عنه:

..... من منكم يعرف الشيخ محمود شاكر؟ لا تعرفونه لأن الإعلام لم يتحدث عنه، ليس رجلاً من رجالات الإعلام، ليس ممن تسلطت عليه أضواء الصحافة، رحم الله الشيخ محمود محمد شاكر وتقبله في الصالحين، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي به العلماء العاملين والدعاة الصادقين...

ومات كذلك رجل تعرفونه جميعًا، الشيخ عنتر حشاد، رجل القرآن والتوحيد والعربية، والعالم المتمكن الذي عهدناه في هذا المسجد وفي غيره، رجل دعوة وصدق، مات الشيخ عنتر في مصر، وكنت في مصر، ولم أعرف ذلك إلا بعد أن رجعت إلى هنا، هكذا يموت العلماء والدعاة ولا يكاد أحد يسمع لهم ذكرًا، ولكن الآخرين من أهل الفن والطرب والتمثيل، هم نجوم المجتمع؛ إذا حدث لأحدهم أن شاكته شوكة تتحدث الصحف، إذا مات قامت الدنيا ولم تقعد، حتى إنه من أثر الضجة الإعلامية التي تصاحب واحد من هؤلاء أو واحدة، كثيرًا ما نرى انتحارات، نرى فتاة ترمي نفسها من طابق أعلى فتدق عنقها حزنًا على هذا المطرب أو الممثل، وهكذا، نحن للأسف في عصر يصنع الإعلام فيه الأفكار والأذواق والميول ويكوّن معارفنا ومفاهيمنا وأحكامنا على الأشياء والأشخاص والمواقف والأعمال، وإعلامنا للأسف لا يرتبط بقيمنا.. و ليس مقيدا بعقيدتنا ولا بشريعتنا؛ إلا من رحم ربك، وقليل ما هم..

رحمه الله، وقبِله عنده مع العلماء الذين رفعهم بعلمهم درجات.. اللهم آمين.

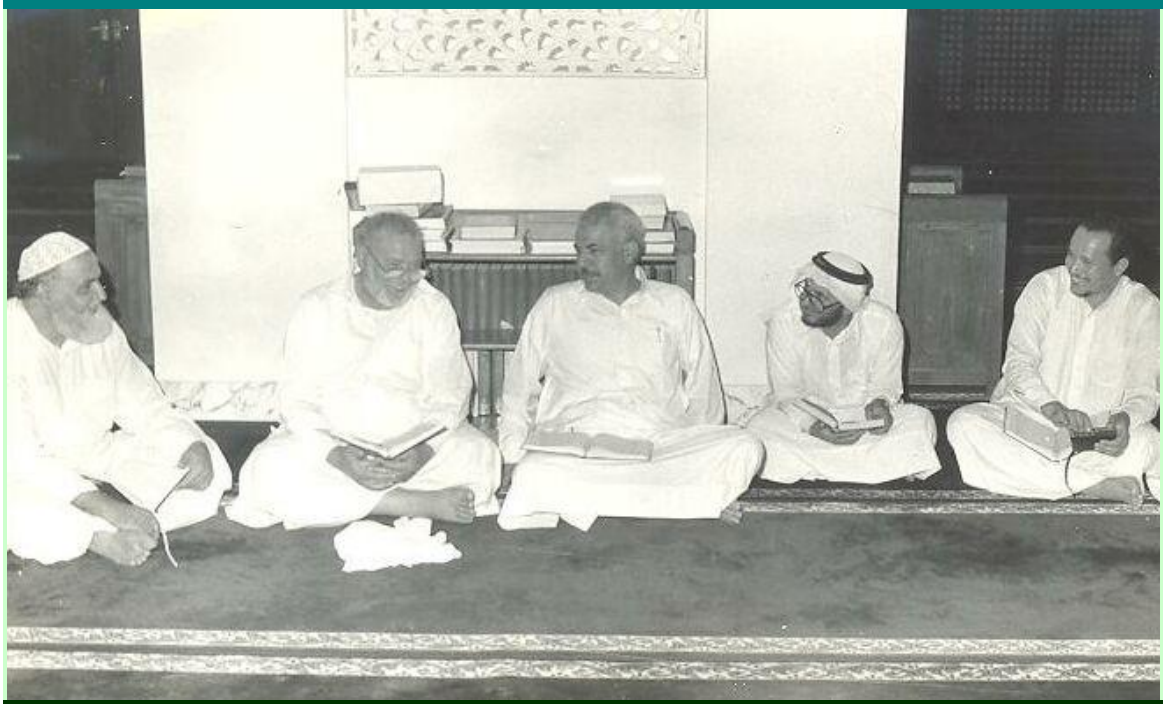

في مقرأة بجامع عمر وأقصى اليمين الأخ الحبيب الشيخ محمود عوض، وأقصى اليسار الدكتور سامي التايه

مع الدكتور عمر بنحمزة في مدينة وجدة بالمغرب

مع المستشرق الفرنسي جيل كيبل في الدوة

الرجل القرآني: حسن عيسى عبد الظاهر

يااااااه.. ويطرق الموت مرة ثانية بابي ليخطف أحبتي.. يا رب إلى فردوسك الأعلى!

لم أفق من موت العلامة الشيخ الدكتور عبد العظيم الديب، حتى مات العالم الجليل الدكتور أحمد العسال، ثم ثلَّث الموت بالأصولي النحرير د. عمر عبد العزيز، عليهم جميعًا رحمات الله ورضوانه!

وها هو يقبض بيده الجبارة على قلبي باختيار العالم الرباني الجليل الأستاذ الدكتور المربي السمح البسام القرآني الرباني المربي الداعية الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر عن ثمانين سنة وسنتين، قضى أواخرها في مرض طويل، أرجو أن يكون له ممحصًا ومخلصًا.. وهؤلاء كلهم فيما رأيت وجربت وعلمت كانوا نماذج للحكمة، والعلم، والمنهجية، وفهم روح الإسلام، ومعرفة الواقع، والسماحة، والرفق، والرحمة، والعذر، والدفع بالتي هي أحسن، أحسبهم والله تعالى حسيبهم، ولا أزكيهم، ولا أزكي على الله أحدًا! ربما كان العلامة حسن عيسى عبد الظاهر غير معروف عند الأجيال الجديدة من المصريين؛ بسبب وجوده في قطر أستاذًا في كلية الشريعة، وإقامته هنا منذ عقود، لكنه كان أزهريًّا صميمًا، ممن خدموا الأزهر، وعملوا في أعلى مراتب التوظيف فيه، بجانب كبار علمائه، وتعرف على حسن البنا والغمراوي والأودن والبهي الخولي ودراز وعبد الحليم محمود وأبو زهرة وغيرهم من الأكابر، كما تولى رحمه الله مناصب عدة منها: رئاسة لجنة الحديث بمجمع البحوث الإسلامية، وعمل على إخراج كنوز الكتب الإسلامية..

شافهه الصديق الإعلامي القدير محمد صبرة الذي استفدت من حواره، فقال:

عندما كنت في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر شاركت في مشروع ضخم هو موسوعة السنة النبوية، الذي أسفر عن إصدار كتاب الجامع الكبير للإمام جلال الدين

السيوطي، وهذا الكتاب الضخم يضم ما لا يقل عن مائة ألف حديث نبوي، وما يزال يصدر حتى اليوم في صورة أجزاء شهرية، واشتركت في اللجنة التي تعد لإصدار ذلك الكتاب الهام مع مجموعة من العلماء حتى الفصل 25، وكنا نقوم بتحقيق تلك الأجزاء قبل صدورها. وإلى جوار ذلك الكتاب ذكر أنه شارك في إصدار التفسير الوسيط الذي ينشره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حتى اليوم، وكان دوره أن يكتب تفسيرًا لسورة النور.

شارك في تفسير القرآن الكريم تفسيرًا تلفزيونيًّا كان يشرف عليه الإذاعي المعروف الأستاذ محمد الطوخي، وكان فيه مجموعة من كبار المشايخ كالشيخ الغزالي، والدكتور القرضاوي، والشيخ سيد طنطاوي، ود. الأحمدي أبو النور، ود. محمد المهدي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، ود. عبد الله شحاته، وهو معهم، رحم الله أحياءهم وأمواتهم..

وقد أذيع هذا التفسير طويلا في تلفزيونات الخليج كلها في وقت واحد في الثمانينيات والتسعينيات. وهو تفسير شفوي للقرآن الكريم شارك فيه نخبة، ولم ينفرد به واحد، كما كان من تفسير الشعراوي وابن عثيمين عليهما رحمات الله ورضوانه.

وكان رحمه الله مشهورًا بالبحث والمثابرة؛ وقدَّم برامج إعلامية كثيرة، بداية مع الأستاذ أحمد فرَّاج، ونهاية ببرامجه التي لا تحصر في الإعلام القطري. وكان أحد المقربين من الشيخ المجاهد حافظ سلامة، تجول معه على وحدات الجيش المصري قبل حرب السادس من أكتوبر، للدعوة إلى الله، وتثبيت الجند، وبث الروح الإسلامية فيهم، فالشيخ تاريخ كامل للحركة الإسلامية، يشهد على ذلك كل من عاش واقترب منه، ودعني من المعلومات المباشرة، واسمح لي أن أصف لك بعض خصاله: جالِسْه خمس دقائق أضمن لك أن ينفتح قلبك على مصاريعه كلها؛ من خلال مهارته في إشاعة جو من الورع، والروح الإسلامية الحية المحيية، النبيهة الموقظة.. أو من خلال طبيعته المرحة التي تأنس للمداعبة اللطيفة، والمزحة الظريفة، التي لا تخل بمهابة العالم،

ولا ورع العابد، ولا تهز صورة الرجل القرآني؛ بل تدعمها، وتمكن لها، وتذهب بجذورها في قلبك بعيدًا إلى أعمق أعماقه. أحسبه والله حسيبه ولا أزكيه على ربي تبارك وتعالى.

ما دخل مسجدًا يصلي فيما رأيته إلا حرص على أن يذكر الناس، الذين يعرفونه ويحبونه، بكلمة وجيزة كثيفة، تنفذ إلى القلوب دون استئذان. ودائمًا ما يلتقط آية أو بعض آية مما يقرأ الإمام، ثم يستخرج منها ما شاء الله له أن يستخرج من الكنوز والدرر، بفقه جميل، وإضافات معجبة، وأداء لا تَعَمُّل فيه ولا افتعال، ولا تأستذ ولا استعلاء، بل هو المتواضع الذي يكرم (الصغار) ويكثر الاستغفار.

كان رحمه الله يحب القرآن الكريم، ويرى أنه يمكنه أن يستخرج منه ما يشاء وقت ما شاء؛ لأن فيه تبيانًا لكل شيء.

(الماهر بالقرآن) فهو بحق من المهرة فيه: حفظًا، وتدبرًا، وتفسيرًا؛ يجول بك من أول المصحف لآخره، في نظرات موضوعية دقيقة، جميلة، تحس معها بالفتح الرباني، وبما يمكن أن يعطيه القرآن الكريم لرجل اتسع واديه، فسال بقدر سعته علمًا نيرًا، ولمحات مشرقة.

وكان ترجمة لكلمة المصطفى صلى الله عليه وسلم: الماهر في القرآن مع السفرة الكرام البررة: في مجلس من مجالس العلماء التي كنا نعقدها بالدوحة وقف أمام قوله

تعالى من سورة الكهف: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً) ساعتين كاملتين يستلهم منهج القرآن في التلقي والتعليم التحمل والأداء مستخرجًا معاني هي غاية في اللطف، والحلاوة، وحسن الفقه، أدهشتني وأسعدتني، وأكدت كم يمكن للقرآن الكريم أن يعطي؛ إذا فرّغنا له القلوب والهمم، وأقبلنا عليه إقبال المحب الشغف.

كان يدرّس في جامعة قطر أستاذًا في أقسامها – للطالبات، ومعلوم أن طول الإمساس يقلل الإحساس، فكم من أستاذ رفع التكلف اللازم بينه وبين طالباته، فنظر، وعلّق، وجامل، وتساهل، أما حسن عيسى على سنه فكان دائمًا غاض البصر واللسان، كما حدثتني بعض طالباته: ما رفع عينيه في طالبة، وما نظر وأمعن، رغم أنهنَّ قد يقعن في مقام حفيداته أو بناته، لكن الحياء خلق يصعب على مثل أستاذنا الشيخ حسن أن ينخلع منه، كما يصعب على غيره أن يحافظ عليه.

كانت يده دائمًا سباقة بالهدية، وجيبه دائمًا كان جيب بابا حسن (مش بابا نويل)، يستخرج مصحفًا لطيف الحجم، أو كتابًا من مكتبته، أو هدية صغيرة، ويعطي من أمامه! أعطاني مرة مصحفًا للجيب، ثم عاد ليعطيني آخر، فلما ذكّرته قال: خلاص.. إديه للسيدة أم العيال..

داعية سهل سمح، يعتمد اليسر دينًا، والحنيفية السمحة منهجًا، ساعده على ذلك عمر مبارك طويل، وخبرة متراكمة، وتجارب حلوة ومرة عاشها بأعصابه، وهمه، وهمته، وعمق أكاديمي وفق إليه، فسار به على محجة بيضاء بلجة، لا خلط فيها ولا شوب؛ ليصوغ تجاربه هذه وعمقه ذلك في كتبه ومحاضراته وخطبه ودروسه ولقاءاته..

ومن مناقبه أنه هو الذي اكتشف الداعية الشهير والخطيب العظيم والمجاهد الفذ في بابه الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله، عندما كان مفتشًا للمساجد بوزارة الأوقاف المصرية، وتنبأ له بمستقبل واعد في مجال الخطابة والدعوة، قبل أن يعرفه أحد.

حسن عيسى كنز ذكريات حملها في طريقه الطويل في هذه الحياة (الدنيا): في أفريقيا في إدارة الأزهر في قطر مع كبار علماء الأمة: حسن البنا، ودراز، والأودن،

والغمراوي، وأبو زهرة، وشيوخ الأزهر، والبهي، وعبد المعز عبد الستار، والراوي، وسيد قطب، والقرضاوي، وعبد التواب هيكل، وغيرهم، يحكي ويحكي لتحس أنك أمام خزانة من خزائن التاريخ التي لا تفرغ؛ ولم يكن ليس مجرد سارد لأحداث؛ بل هو ذلك المستقرئ، المحلل، المتأمل، الناقد، يحب أن يستفيد ويفيد، في بساطة ورفق، وتواضع وحسن خلق يحسد عليه أحسبه والله حسيبه رغم أنه بدأ حياته ثورجيًّا منذ عام 1947م يتفاعل مع المظاهرات التي كان يموج بها الأزهر الله يرحمه بعد صدور إعلان تقسيم فلسطين؛ ليسمع للحاج أمين الحسيني، وعبد الرحمن عزام باشا وحسن البنا ورياض الصلح.. وهم يحضون الناس للجهاد في فلسطين.

خلال دراسته بالجامعة كان له عشرة زملاء آخاهم وآخوه، ودامت عشرتهم حتى قضى منهم من قضى، ومنهم العلامة د. يوسف القرضاوي والدكتور أحمد العسال رئيس الجامعة الإسلامية العالمية في باكستان سابقًا الذي سبقه إلى الله تعالى بعشرين يومًا، وصلى عليه صديقه القرضاوي بالقاهرة والشيخ محمد الراوي حفظه الله تعالى، والشيخ مصباح، والشيخ عبد التواب هيكل شفاه الله وعافاه، وآخرون.

وقد ذكر رحمه الله أنه والشيخ القرضاوي والشيخ هيكل والشيخ الراوي تخرجوا من كلية واحدة هي كلية أصول الدين بالقاهرة.. لكن القرضاوي والشيخ هيكل كانا يسبقانه بعام دراسي واحد، وتخرجا قبله بسنة.

وروى فضيلته كيف جاء إلى الدوحة فقال: خلال مناقشة رسالتي للدكتوراه التقيت بأخي وأستاذي د. يوسف القرضاوي الذي تربطني به صلة زمالة، وأخوة، ومحبة في الله؛ منذ كنا طلابًا لمدة أربع سنوات بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، ويومها عرض علي فكرة المجيء إلى قطر، فقلت له: إن أمامي ثلاث سنوات لا بد أن أمضيها مدرسًا بجامعة الأزهر؛ حتى يحق لي الابتعاث للخارج..

قال: استقل ونتعاقد معك مباشرة، قلت له: إن من حق الجامعة التي منحتني شهادة الدكتوراه أن أوفي لها حقها!

وبعد أن أمضيت المدة المحددة للتدريس بجامعة الأزهر أصبحت الفرصة سانحة أمامي للابتعاث للخارج. وجاء إلى القاهرة أحد الأساتذة الأفاضل، وكان عميدًا لإحدى الكليات بالسعودية، ليتعاقد معي، ولأني أعطيت د. يوسف وعدًا بالسفر إلى قطر، اعتذرت للأخ السعودي، فقال لي: سأستأذن الشيخ يوسف في ذلك، قلت له افعل؛ فلما خاطب د. القرضاوي في ذلك رفض، فكان أن اعتذرت للأخ السعودي، وشاء الله عز وجل أن آتي إلى الدوحة عام 1978 متعاقدًا للتدريس في كلية الشريعة.

حسن عيسى سهل هيْن ليْن، يتمتع بليونة عجيبة، لا يتفلت إذا دعي لخير، ولا يفتش عن حجة ولا يتردد، ولا يفكر مجرد تفكير في الاعتذار، وكان على لسانه دائمًا: أنا خادم للدعوة! كنا ندعوه صبحًا أو مساء، عن قرب أو عن بعد، فجأة أو بترتيب إذا لم يمنعه موعد آخر من التلبية فنجده مبادرًا سبَّاقًا، في حين كنت أجد ألف اعتذار ممن هم أقل منه علمًا، وأصغر سنًّا، وأفرغ حالاً!

تطلبه ساعات فيجيب ويتجاوب ولا يمل، جلس في الأستوديو معنا ذات مرة من التاسعة والنصف صباحًا حتى السابعة مساءً – وهو صائم، يوم عرفة – على الهواء، يتكلم ويتلقى الأسئلة، ويمازح من حوله، ويعلمهم التواضع والبساطة وحسن الخلق.

اتصلت به مرة ذات أضحى، وكعادتي في جفائي وسوء خلقي كان اتصالي في وقت غير معقول ولا مناسب، وكان يتغدى، فلم أشعر إلا وهو يبادرني بيمين بالله العظيم أن آتي لآكل معه (فتة) وسُقط في يدي: يهديك يا شيخنا، يرضيك! والرجل يصر، وذهبت لأجد معه فضيلة الرجل الشيخ المبارك والعالم الجليل الشيخ عبد التواب هيكل، لأسبح معهما والجالسين في حديث ثر ممتع عن ذكريات رحلة طويلة قطعاها معًا، مليئة

بالأشواك، والأشواق، والفِكَرِ، والعبر، والبسمات، والدمعات! وكانت ظهيرة عيد مميزة لم أمر بمثلها قبلها، ونفعتني قلة الذوق لأول مرة لأجلس بين عميدي العلم والظرف، حسن عيسى عبد الظاهر وعبد التواب هيكل عليهما رحمات الله تعالى.

حسن عيسى صاحب (نكتة) بديهية خاطفة: جاءه أخونا الداعية والإعلامي محمد القصاص يدعوه لحضور عقيقة بعد أن (وضعت) امرأته طفلاً ذكرًا، وبسرعة قال الشيخ: (طبعًا القصَّاصُّون مشهورون بالوضع)، فكانت نكتة مرتبة في موضوعها، لا تخرج إلا هكذا! وعندي من (نكته) عشرات، التي كانت تسخو بها طبيعته المرحة، أو التي يرويها عن المشايخ الظرفاء كالشيخ أبي زهرة والشيخ الغزالي والشيخ المعايرجي، وغيرهم! (وقد كتبت عن الشيوخ الظرفاء مقالات كثيرة، أنشرها في المصريون تباعًا إن شاء الله).
حسن عيسى عبد الظاهر كان صورة للعالم القرآني الرقيق الودود، العامل الحريص، الجلْد الكريم، البشوش الورِع؛ أحسبه والله حسيبه ولا أزكيه على الله تعالى.

حسن عيسى عبد الظاهر كان صورة للعالم الذي يحترم نفسه وعلمه، فلا يقتحم المجالس، ولا يضيع فضول وقته؛ بل هو الذي علمنا أن ننتقل بين العمل والعمل، والنصَب والنصب، والخير والخير، وهو الذي نشر في قلوبنا البشرى بنصر الإسلام وقوة الإسلام، وتأبّي الإسلام على الانحناء والانكسار.

أوصاه الشيخ عبد التواب هيكل العالم الجليل الذي يرقد على فراش المرض أن يصلي عليه، فمات الموصَى قبل الموصي، فسبحان الحي الباقي! وصدق من قال: أنت أحد ثلاثة: معزٍّ، أو معزًّى، أو معزًّى فيه..

اللهم ارحمنا وارحمه وسائر شيوخنا برحماتك، ومن علينا برضوانك، وانفعنا بحبه وحب أمثاله يا رب العالمين..

عبد الحميد كشك : الداعية العفيف المترفع

هنا مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم

يسميها الخواجات " كاريزما " وأسميها ظاهرة.. أعني تلك الموهبة التي يتمتع بها شخص من الأشخاص، فتجعل الأنظار تستشرفه، والقلوب تهفو إليه، ويصير بين الآخرين فذًا، يصعب اللحاق به، وإدراك شأوه، رغم كونه شخصًا عاديًا؛ بل ربما كان أقل من الآخرين في إمكاناته الجسدية.. لكنّ ربّك الوهاب سبحانه يكرم من يشاء بما شاء، ويهب من يشاء ما يشاء، ليكون رجلاً أمة، أو رجلاً ظاهرة :

الرافعي – رحمه الله – كان لغويًا ظاهرة، سيد قطب مفكر ظاهرة، الألباني محدث ظاهرة، وعبد الحميد كشك خطيب ظاهرة.

عبد الحميد كشك ذلك الكفيف، الأحدّ بصيرة من المبصرين، النحيف، الأثبت قلبًا من عشرات الرجال "الإكس لارج" العفيف الذي ترفّع على الفلوس والمغريات، ورفض عشرات المرات أن يغادر عرينه، ليبقى مدافعًا عن الإسلام، وعن مصر، من كل تزييف ودنس، محذرًا من كل تلوث فكري، أو تجرثم عقيدي، يسرّبه إليه مهربو الأفكار المخدرة، وتجار الممنوعات العقلية المدمرة.

هابه الساسة فقيدوه، وخشيه المفكرون فحملوا عليه وسبّوه، وعيروه بعماه وضعف حاله، فما قابل التعيير إلا بالاستعلاء الذي تجذّر في نفسه من دينه وعقيدته ومروءة نفسه.. وصبر – رحمه الله – على ما أوذي وجوبه وكُذّب؛ حتى لقي ربه سبحانه ساجدًا مسبحًا، ويا لها من ميتة يبعثه الله عليها مسبحًا ساجدًا.

قال عنه جيلز كيبل المستشرق ورجل المخابرات الفرنسي: "نجح كشك في إعادة رسالة المسجد في الإسلام، حيث تحول مسجده في عين الحياة بحدائق القبة إلى خلية

نحل، تكتظ بحشود المصلين الضخمة، الذين يضيق بهم المسجد، فيفترشون الحصير في الشوارع المحيطة.

وقال عنه محيي الدين عبد الحليم أستاذ ورئيس قسم الإعلام بالأزهر : أسهم بفاعلية واقتدار في جذب الجماهير، واستمالتهم، وأرسى منهجًا في الخطابة جديرًا بالبحث والدراسة، وتناول مختلف الأمور التي تشغل تفكير المسلم في يومه وغده، متحملاً أعباء جسيمة في سبيل الرسالة التي اضطلع بها، وتحمل كراهية المسؤولين، والكثير من عنت السلطة.. وأثبت أن خطبة الجمعة لا تقل أهمية عن وسائل الإعلام المعاصرة كافة، بل تتفوق عليها جميعًا.

كان يرفع صوته المميز "بلوازمه" فتنشقّ حلوق المصلين خلفه، مجيبين نداءاته مهما أطال التكرار : إذا بُليت بظالم فقل : يا الله.. وحّدوا من لا يغفل ولا ينام.. يا حُماة الإسلام ويا حراس العقيدة.. هنا مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم.

ويتفاعل المصلون مع "لازماته" فتقشعر جلودهم، وتعلو أصواتهم، وتتتابع دموعهم.. فقد كان قادرًا على الالتحام بهم، وإشعال مشاعرهم.

كانت به شفافية، لم يغيبها فقده للبصر، حتى إنه ليحس بما لا يحس به المبصرون : كان يخطب ذات جمعة فتوقف فجاة وقال : افسحوا للجنازة.. لم يخبره أحد، بل كان منشغلاً بالخطبة، مستغرقًا في ترتيب أفكارها.. لكن قلبه يقظٌ نبهان ..

وإذا كان الناس يتحدثون عن خطباء لهم جاذبية جماهرية منذ شيشرون الروماني Cicro وقس بن ساعدة العربي، وأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه.. فلا شك أن عبد الحميد كشك كان من الخطباء المميزين، الذين أثروا في أهل زمانهم – محبين وشانئين – بعد أن صار لسان العامة في مصر، يسمعون خطبه في البيوت، وعلى المقاهي، وعلى "نَقْلة الشراقي" وفي الطريق من الغيط وإليه، وعبر ألوف التاكسيات "البيجو" التي تجوب أنحاء القُطر صبح مساء.

لم يكن مجرد حنجرة قوية، بل كان – رحمه الله – رجل مواقف، يجهر برأيه مهما انفرد به، لا يخاف لومة لائم، ولا يعمل حسابًا للنازلات القارعات..

وكم له من مواقف سياسية واجتماعية صارمة وصريحة..

وكم تصدى للتيار الرسمي، واصطدم صراحةً بالمسؤولين، بسبب رفضه لكامب ديفيد، وظل سوطًا لاهبًا على ظهور مرتكبي المخالفات الاجتماعية والإعلامية والفنية.

وانتقد كثيرين من أصحاب المواقع المهمة والأقلام المؤثرة، دون تهيّب أو مواربة.. وكانت مواقفه هذه عربون رواج أشرطته التي انتشرت أكثر من انتشار الصحف المزوّقة، والمجلات الملونة، وكاسيتات التهريج الفني التي بثت السخافة والخدَر..

وبلغت أشرطته التي عبأها أكثر من الألفين عدًّا، لم يخدمها في التوزيع والانتشار غير نبرة الصدق في الأداء، والصدق في العاطفة، والصدق في المواقف، والصدق في النصيحة؛ والله حسيبه.

لم يخدمها أكثر من بركة الغيرة على الإسلام، والحمية للأخلاق، والنفور من السقوط والهبوط والإسفاف.

لذلك كان لا بد أن يتوقف، وأن يكف عن الثرثرة و "وجع الرأس".. وكالسيف الحبيس في غمده حُبس جسده شهورًا أواخر سنة 1981م، وأوائل سنة 1982م، ثم حبس لسانه، وأُصمت قسرًا لمدة أربعة عشر عامًا متواصلة.. كان خلالها أشبه بمن استؤصلت أحباله الصوتية...

أشبه بطائر غرّيد ربطوا منقاره ليكف عن التسبيح الجميل.. صادروا أجمل ما فيه.. وهل في الداعية أجمل من الصوت؟! وهل يملك أكثر من البلاغ؟ فإذا منع من البلاغ فماذا بقي له؟!

كان رحمه الله متعففًا ولا أزكيه على الله، يصرّ على عدم مبارحة شقته ومسجده إلا للدعوة إلى الله تعالى في الداخل – مهما كانت ظروفه المالية – كأنه لن " يلعلع " إلا في مسجده ، وبين جمهوره.. لا يستبدل بهم جمهورًا آخر، ولا يريد لتغريده فضاء آخر..

ضاقت به الظروف جدًا في بعض الفترات حتى إنه – كما سمعت من صديقي وصديقه المرحوم الدكتور رشدي إبراهيم رحمهما الله – لم يكن في بيته إلا التمر والماء.. يعيش عليها نهارَه وليله – وهو المريض بالسكر – مع أن كثيرين عرضوا عليه المساعدة، ومع أن سبلاً كثيرة كانت مفتّحة أمامه للكسب: العمل في الخارج، التسجيلات الإذاعية والتليفزيونية، ومع ذلك كان يرفض بشمم وشدة..

وقد جربت ذلك بنفسي.. ففي نهاية عام 1989م كنت في القاهرة، وحاولت الاستفادة من وجودي هنالك بمقابلة بعض العلماء الكبار، والتسجيل معهم للتليفزيون حول بعض القضايا التي طرحت بعد ذلك في برنامج "الإسلام وقضايا العصر" الذي ضم كبار علماء العالم الإسلامي، وفاز بالجائزة الذهبية في المهرجان الأول للتليفزيون الخليجي.. وطلبت الشيخ هاتفيًا أرجوه المشاركة في البرنامج بجانب الشيوخ الأجلاء : الشعراوي، والغزالي، وصلاح أبو إسماعيل – رحمهم الله جميعا رحمة واسعة – فرد عليَّ بأدب شديد – وبحزم شديد أيضًا – بأنه لا يتعامل مع أي تليفزيون على الإطلاق، وحاولت ترغيبه وتعطيف قلبه بشتى الطرق، لكنه صمم على الرفض، وعلمي أنه ظل يتهرب من الكاميرات حتى مات، في وقت يلهث الكثيرون للجلوس خمس دقائق أمام الأضواء لاستعراض كرافتة جديدة، أو ساعة يد "مهداة".

= لكن هل مات عبد الحميد كشك حقًا؟

= هل مات من ترك وراءه ألفي شريط كاسيت مليئة بالحماسة والغيرة والعلم الذي ينفع الله به الناس؟

= هل مات من ترك وراءه 115 كتابًا وملايين المعجبين؟

= هل مات من خلف وراء ظهره تاريخًا ممتدًا من الدعوة والجهاد في سبيل الله؟!

رحم الله الشيخ كشك (خطيب العلماء)، وقبله عنده في المرضيين.. قولوا: آمين.

الرحماني وعلامات حُسن الخاتمة	
عيني من الوجد قد جفت سوانيها	لما نعى للورى فاروقَ ناعيها
يا رب هبني يقتينًا استفيء به	واربط على مهجتي ربطًا يواسيها
واكتب لفاروق في الفردوس منزلة	بين النبيين والأصحاب تُرسيها
واقبل إلهي من كانت تلوذ به	زوجًا على الحب والإيمان يؤويها
وارزق شهيدينا الرضا يا رب تكرمة	في جنةٍ دونها الدنيا وما فيها

لا تزال نفسي تهفو إلى ريح فاروق الرحماني، عليه رحمات الله تعالى، رغم مرور خمس عشرة سنة على وفاته..

ولا أزال أغبطه على ميتته، والصلاة عليه، ودفنه في مكة المكرمة خير بقاع الأرض وأشرفها.

ولا أزال أتعجب من فضل الله تعالى الذي يساق في ثوب محنة أو بلية، ظاهرها فيه الوجع والدمع والفراق، وباطنها فيه الرحمة والبشرى والإكرام.

ولا أزال أرى تحقيق مقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تهيئة الرحمن الرحيم عبده قبل موته لعمل صالح يلقى ربه الكريم عليه، فهو احتفال واحتفاء وإكرام، وقد قال سيدي المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره بسندٍ صحيح: (إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا عسله)، فقيل: "يا رسول الله: وما عسله؟! " قال: (فتح له عملاً صالحًا بين يدي موته، حتى يرضي عنه من حوله).

الله.. الله.. رب العزة يهيئ من الأسباب ما يجعل الناس يرضون عن فلان، ليطيب ذكرُه وينتشر فضلُه، وليثني عليه من يعرفه ومن لا يعرفه، وليجعل الناس شفعاء له يوم القيامة، وشهودًا له في الأرض.

كان فاروق – رحمه الله تعالى – ذا همة تجعله يستغرق في أعماله ليشغل نفسه عن أن يؤذي الناس أو يؤذوه، أو يزعجهم أو يزعجوه، وكثيرًا ما كان يصل في ذلك الليل بالنهار.

كنتُ أحيانًا أمر بمدرسة الأندلس في ساعات متباينة من النهار والليل، الصبح، الظهر، بعد العصر، بعد العشاء، عند نصف الليل أحيانًا، فأجده هناك حيث يرابط، ويكد نفسه، ويقسو على جسمه المريض بمزيد من الضغط، حيث كان يجد نفسه في البذل والعطاء.

كثير من الصالحين خُتم لهم بسيناريوهات لافتة للأنظار، جعلتهم حديث الناس، وأجرت على الألسنة الدعاء لهم، وفي القلوب الوجع والترحم عليهم:

يموت أحدهم في الجهاد في سبيل الله، أو تحت عجلات سيارة.

يموت ساجدًا أو في ليلة القدر.

يموت مبطونًا أو برشح الجبين.

يموت وهو يقرأ في المصحف، أو في معمعة مناظرة ينصر بها الحق، ويغضب لله الحق.. فطوبى لهم.

سبحان الله العظيم.. عمر الفاروق، والحيي ذو النورين، وعلي أسد الله الغالب، يموتون ميتات كل منها مَثلٌ في الشناعة والقسوة، الأول يقتله مجوسي بخنجر مسموم

وهو في صلاة الفجر، يضبط صفوف المصلين في المسجد النبوي، والثاني يقتله السبئيون المتآمرون المارقون، وهو يقرأ في المصحف، والثالث يغتاله أغبياء التدين من الخوارج، وأسد الله حمزة عم المصطفصلى الله عليه وسلم يُمثَّلُ به ويُبْقَر بطنه، والراشد ابن عبد العزيز يموت في ريعان شبابه مسمومًا على أيدي الطامعين في الخلافة.. و.. و..

امضِ معي في سيرة الصالحين، تجد نماذج فواحة لأناس لقوا الله تعالى وقد أكرمهم بعلامة أو أكثر من علامات حسن الخاتمة.

- الفقيه الشافعي أبو الفتح نصر المقدسي يسمعه تلميذه المصيصي قبل موته بلحظات وهو يقول: يا سيدي أمهلوني، أنا مأمور وأنتم مأمورون، ثم يؤذن المؤذن لصلاة العصر، فيجلسه نصر المصيصي، ويوجهه ناحية القبلة، فيحرم بالصلاة.. الله أكبر.. ويضع يده اليمنى على اليسرى، ثم يتوفى من ساعته.
- الوزير نظام الملك الذي بهر العقول جودًا وكرمًا وعدلاً وإحياء لمعالم الدين وإكرامًا للعلماء والصالحين، يختم الله له بالقتل ليلة جمعة، وهو ماضٍ في طريقه للحج، في شهر رمضان! فيموت صائمًا، ناويًا للشعيرة، إذ أتاه باطني في هيئة درويش يتظاهر بأنه صاحب حاجة، ويمثل أنه يناوله ورقة، فلما همَّ بأخذها انقض عليه الخبيث فضربه بالسكين في فؤاده.

تخيلوا هذه العلامات مجتمعة من علامات حسن الخاتمة: ليلة جمعة، في رمضان، في الطريق إلى مكة، ظلمًا، وغيلة..

ولم يزل التوفيق حليفه حتى آخر لحظة، إذ قال لمن حوله: لا تقتلوا قاتلي، قد عفوت.. لا إله إلا الله، ثم تخرج روحه إلى رحمة الله تعالى، مخلفًا طيب الذكر وحسن الثناء.

- والإمام العماد المقدسي الجماعيلي الحنبلي، يصلي المغرب بالجامع، ثم يعود ليفطر – بعد صيام – ثم يستقبل القبلة وهو يقول: يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، وينطق بالشهادتين، ثم يلقى الله تعالى مختومًا له بالخير.

- والإمام المحدث ابن بقي، يصلي الجمعة في منتصف رمضان المبارك، ثم يدخل داره فتفيض روحه.
- والمظفر سيف الدين قطز، يرفع الله به وبغيرته الإسلامية كابوس التتر عن صدر أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويطهر منهم بلاد الشام، ويأبى الله إلا أن يموت غدرًا على أيدي الطامعين في كرسيه، وهو الذي لم يمت بأيدي التتر، فلم تفته الشهادة – فيما أرجو – في الطريق بعد أن فاتته في أرض المعركة.

وفي زمننا سمعنا بصالحين وصالحات اختارهم الله تعالى بعد أن (عسلهم) وهيأ لهم ما يذكر الناس بهم، ويسيل الألسنة بالترحم عليهم:

أُمُّ إبراهيم عمر حبيب – رحمها الله تعالى – وأبناؤها تموت عائدة من العمرة.

أُمُّ سهيل – رحمها الله تعالى – تموت شهيدة غريقة.

أبو عمر وأم عمر يموتان (مهدومين) في طريقهما لمكة المكرمة.

وقبل هؤلاء يموت جلال كشك وهو يناظر أحد العلمانيين العتاة وفاجأته الأزمة القلبية على الهواء مباشرة وهو يتحدث في الBBC .

وعبد الحميد كشك – رحمه الله تعالى – يموت ساجدًا..

وصفوت نور الدين يموت بعد عودته من الحرم مصليًا المغرب، ناطقًا بلا إله الله، متوجهًا إلى القبلة و..

يا له من ختام.. ويا له من (عسل)!

وأين من هذا التوفيق والعسل الميتات الفاضحة؛ نعوذ بالله منها:

ميتة من كرع من الخمر شرب البعير الهيمان حتى فاضت روحه، أو من تعاطى جرعة زائدة من المخدر حتى لم يحتمل جسمه، أو من سقط من كثرة الإجهاد بالرقص والعنف، أو من اجتالته الشياطين التي يعبدها فدفعته لأن يقتل نفسه، أو عباد الطواغيت الكثيرة التي تبرمج عابديها بالعصبية والخشونة، والجرأة على الدماء، واستسهال قتل البشر، فيموتون ملعونين بغيضين، إذ استراحت منهم البلاد والعباد.

رحمة الله عليك يا أبا عمر، رجلًا جادًا، ذا هم وهمة، عملت والآخرون يلعبون، وسهرت والآخرون نائمون، وكنت صاحب فهم، وصاحب هم، فلعل هذا يكون في ميزانك يوم القيامة.

رحمك الله يا أبا عمر، رجلًا تحب معالي الأمور، وتكره سفسافها، وترتفع فوق قشورها الخُلَّب، فلم تضيع وقتًا، ولم تنشغل بما لا يعنيك، ولم تضع نفسك حيث لا ينبغي.

رحمك الله يا فاروق، داعية دؤوبًا لا تكل، ولا تتردد، ولا يعتريك قنوط، بين الدروس المتتابعة، والخطب الرصينة الماتعة، والسهرات الرمضانية الحافلة، التي كانت تشع توفيقًا ودعوة وشفاء للصدور، وكم امتلأ جامع السودان، وجامع مصعب بن عمير بالمصلين في التهجد حتى إن الرجل لا يجد من شدة الزحام موضع شبر يسجد فيه؛ لنداوة الصوت، وحلاوة الدرس، ونبرة الصدق. فلعل هذا يكون في ميزانك يوم القيامة.

رحمك الله يا فاروق، حازمًا لا تجامل أحدًا حيث لا تنبغي المجاملة، ولا تشتري خاطر أحد حيث لا تجوز المداراة، ربانًا يقود سفينة العمل، في لجة مضطربة من العقليات والنفسيات والهمم المتفاوتة، لتحقق بالأندلس النجاحات تلي النجاحات، فلعل ذلك يكون في ميزانك.

رحمك الله يا فاروق ورعا مراقبًا لله – أحسبك ولا أزكيك على الله – حافظًا للسانك، ساترًا لإخوانك، وكم خاض فيك – بظهر الغيب – مساكين فلم يصيبوا إلا أنفسهم، ولم يُنْكوا إلا أجسامهم.

ولعل ذلك يكون في ميزانك يوم القيامة.

رحمك الله يا أبا عمر، كريمًا جوادًا، برًا بوالديك، وصولًا لإخوانك، خدومًا لمن حولك، غيورًا على دينك، وما كان الله ليضيع إيمانك.

رحمك الله يا أبا عمر، طالب علم، وحِلْسَ كتاب، فصيحًا، شيق الألفاظ، أنيق التعابير.

رحمك الله تعالى، وقافًا إذا ذُكِّرت، لينًا إذا نُبِّهت، حييًا ذكورًا شكورًا صبورًا.

رحمك الله، رجلًا رجلا.. محتقرًا للدنيا – رغم العيون – زاهدًا في زهرتها – رغم الشباب – متخففًا من أثقالها – رغم السعة – وشعارك الذي سمعته منك بأذني أن الزيادة على الحاجة من الدنيا إفراط، وأظنك فعلت ذلك، فوردت على الرحمن الرحيم خفيف الظهر ثقيل الميزان.

رحمك الله يا أبا عمر، فلقد – والله – تركت فراغًا، وتركت ثلمة، وتركت وجعًا، وتركت فجيعة.

وعزاؤنا أن لنا – فيما نرجو – أجرًا بعدك، وأن لك جنة بعدنا:

خيرٌ من (الفاروق) أجرُكَ بعده والله خير منك (للفاروقِ)

وعزاؤنا أن الله تعالى أبقى لنا عمر ونائلة وأمامة وصفية، نسأل الله العلي القدير أن يحسن لهم العوض، ويجزل لهم البركة، ويجعلهم من سعداء الدارين.

اللهم اختم لنا بالخير، واسترنا بسترك الجميل، وإذا أردت بالناس فتنة فاقبضنا إليك غير فاتنين ولا مفتونين.. يا رب العالمين.

الدكتور رشدي إبراهيم: العالِم الشاعر الأديب السوسة

اتصلت ببيته في القاهرة لأعوده في مرضه الطويل فردت عليّ سيدة لا أعرفها مندهشة: إنت عايز مين؟

– عايز رشدي!

– مين؟ رشدي؟! طيب لحظة..

– ثم غابت قليلاً لتجيء بعدها أم أحمد باكية ولهى: الله يرحمه، مات من ساعة واحدة بس!

اندهشت واسترجعت، لكأن القلب كان يحس – على البعد – بفقده.

كان أشبه بشهيد يمشي على الأرض؛ فجسده كان ميدانًا للأمراض: البلهارسيا، وتليّف الكبد (الله لا يوفقه)، أنهكاه وأكلا شبابه، كان سعيدًا متفائلاً بعد أن نال الدكتوراه، لا لشيء إلا أنه سيبتعد عن "العك" المزوق، والكذب المنمق، وسِكَكِ الصحافة الملتوية غير السالكة وغير المستقيمة.

عاد فعلاً إلى كلية اللغة مدرسًا بجامعة الأزهر، ليشرق في مداره الحقيقي، نجمًا ذا ألقٍ وإشراق، لكن الأمراض تواطأت عليه: السكر الذي أضعف بصره، الضغط الذي آد جسده، وثالثة الأثافي، تليف الكبد الذي لم يمهله ليحقق بعض مراده، ويروي شيئًا من ظمأه للعلم والعطاء..

ظل يأكل كبده كهمجي موتور، يأكل كبده، يأكل كبده حتى تركه ميتًا قبل أن يلفظ أنفاسه، وليحرمنا ابتسامته الدائمة، التي لا تغيض ولا تداهن، وليحرمنا لطف معشره، وحلاوة لسانه، فاللهم اقبله مبطونًا شهيدًا واغفر ذنبه، وأكرم نزله، وأجزل قراه.

كان – في زعمي – أحد الفصحاء المعدودين، على صغر سنه، وكم كنت أقول له كثيرًا: إن الفصحاء الذين أحببت لغتهم في هذا القرن أربعة: الرافعي، وعلي الطنطاوي، ومحمد الغزالي، وعبد الرحمن الوكيل، وأنت خامسهم، فيرسل ضحكته الودود، وهو يقول: الله يرضى عنك.. آمين.

كانت عباراته تتهادى رشيقة مطبوعة سليقية، لا افتعال فيها، ولا تكلف، ربما استفاد من شاعريته الرقيقة في أن يطبع نثره – بل كلامه العادي – بميسم أنيق بليغ..

سوسة كتب كان – رغم ضعف بصره وسُمك نظارته – لا يمل القراءة أبدًا، ولا يمل المداخلة والتعليق على ما ينشر في الصحافة أو في الكتب الجديدة..

حتى حين كنا نخرج بأسرتينا إلى المتنزهات، كان لا يطيق أن يجلس كسائر الناس، بل اعتاد أن يحمل معه كتابًا، أو مشروعًا كَتبه، أو بعض قصائده الجديدة، ونجلس لنقرأ بعيدًا عن لغو الأطفال، ومرح الجو الذي نحن فيه، قرأت معه "القوس العذراء" لمحمود محمد شاكر، وعددًا من القصائد والكتابات، وعشنا في منتزه العائلات" ساعات من التذاكر والتفاكر في عزلة لا شعورية عما حولنا.

عمل مدرسًا ثم لم يستمر، فالتحق بجريدة الأخبار، ونال عضوية نقابة الصحفيين، وأتاح له عمله الصحفي أن يفتح عينيه على أفكار ومعلومات أكبر من سنه، لكنه لم يكن ليستريح بعيدًا عن هوى قلبه وعشقه الأول – كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر– ولم يخيب الله رجاءه، وأعانه على الانتهاء من رسالته للدكتوراه في عام واحد فقط.. كان واثقًا كثيرًا بما عنده، مطمئنًا إلى موضوعه، فنالها بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى، رغم أن موضوعها كان وعرًا عزيزًا، حتى قال له مشرفه "أنت كمن يصيد العنقاء"، ولم تكن عنقاء، بالهمة والدأب والاتكال على العزيز الرحيم.

بعد الدكتوراه كانت له طموحات لمشروعات تأليفية كبيرة: إنسان القرآن الغائب المنتظر، الخطاب القرآني: مرتكزاته وغاياته وخصائصه، المرويات النقدية عن العصر

الجاهلي، شعراء أصحاب قضايا من العصر الجاهلي، هذا عدا ديوانه الشعري، ولقاءاته الصحفية المميزة مع كبار الشخصيات الإسلامية.

كان داعية بطبعه، فمنذ تخرج من الأزهر، وهو يدعو ويخطب على المنابر، وحتى حين كان في الدوحة لم يترك الخطابة حتى مات، كان يحب الدعاة ويألفهم ويدعو لهم، وكان قريبًا من الشيخ كشك – رحمهما الله تعالى – ومن أِخِصّائه، وكان دائم الثناء على تدفقه ومنهجه وعلى شفافية روحه.

لم يهتم كثيرًا بالمال – مع استغراقه في القراءة والدراسة – وكان مع ذلك عزيز النفس ذا أنفة، حتى إنه ترك عمله هنا في الصحافة، حيث لم يعجبه موقف من رئيسه، فقال كلمته وترك المكان إلى غير رجعة، وإلى أقدار الله التي حرمتنا رؤيته.

كان رحمه الله مجلاً للعلماء، مكبرًا لكبارهم، لا يستنكف أن ينحني على طريقة الفلاحين على يد العالم ليقبلها إجلالاً وتكرمة.

كتب في قبساته من نور النبوة عن الموت الذي كان يستشعره يدب في أوصاله يقول: "نحن ننسى حقًّا – لا ادعاءً – وكل منا مصروف بكامل همته إلى هموم الحياة، منصرف بلبّه وكامل حواسه إلى تحقيق وجوده، إما بالمال يجمعه من حله وحرامه، أو بالجاه يتذرع به ويتطاول، أو بالتكاثر بالحسب والنسب، وفي خضم ذلك الثبج المتلاطم ينسى الإنسان أن الموت له بالمرصاد، والحقيقة أننا كلنا راحلون، وكلنا مودعون، ثم لا يبقى معنا شيء مما كنا نفاخر به ونكاثر.

يتبع الميتَ ثلاثة: أهله وماله وعمله – بهذا الترتيب من حيث الظهور والخفاء – فالناس حين تنظر تجد أهل الميت هم أول من يتبعه إلى مثواه الأخير – في ظاهر الأمر – ثم يتبعه ماله في صور من الفخامة والأبهة التي قد تحيط بالنعش والكفن، وما قد ينفق

عليه، ثم يرجع بعد ذلك أهله – جميعًا – فلا يجرؤ أحد منهم – أصولاً وفروعًا – أن يبيت معه ليلة واحدة في حفرته تلك.

وأذكر أننا كنا نشيع أحد الموتى، فإذا بابنته تغافلنا وتتشبث بقبره، مصرة على البقاء قربه، وكلما حاول أهلها أن يمنعوها زادت إصرارًا، فأشرت عليهم أن ينصرفوا ويتركوها، وما أن دارت محركات السيارات، حتى خرجت من مكانها تعدو لتستوقف الراحلين.

وكذلك مالُك، الذي بذلت في سبيل جمعه شبابك وعمرك، ورحت تتيه به كبرًا وطغيانًا حين استشعرت الغنى، وحسبت أن المال الذي جمعته من الحلال والحرام، وعشت تَموّله حياة ترف، فيها أطياف الأبهة، وتحيط بها مظاهر الفخامة، لن يدخل معك قبرك، بل إنه قد يكون سببًا لتمزيق أواصر ذوي قرابتك، حين يتشاجرون على الميراث فتتقطع أرحامهم.

وإذا كان المال والأهل يرجعان عند القبر القهقري، فإن الذي يقتحم معه قبره هو عمله، صالحًا أو طالحًا، فإن كانت الأولى فالقبر روضة من رياض الجنة، وإلا فإنه حفرة من حفر جهنم".

اللهم ارحم عبدك رشديًّا، واجعل قبره روضة من رياض الجنة، واجعله عندك شهيد المرض الشديد، واجمعنا به في فردوسك الأعلى.. يا كريم.

مع المؤرخ والمفكر الكبير الدكتور عماد الدين خليل

مع ديدات رحمه الله تعالى

قاسم عبد الحليم صالح يوسف

أعجبت به ونحن زميلان في الجامعة، وأسرتني أخلاقه، وصدقه، ولطف معشره، وتميزه كشاعر، وزميل متفوق، وإنسان مهتم مهموم؛ حتى كتبت فيه قصيدة، تعكس إعجابي به وحبي له.. ولا أعتقد أن هذا عادي بين زملاء الجامعة الأقران في السن، لكني فعلتها؛ لإيماني أنه رجل غير عادي، كزميل، وكإنسان، وكفنان، وصاحب قضية..

كان أبو العز أعمى، لكنه بمائة مبصر، وقد عاش مفارقات عجيبة، تؤكد على أن المرء يسير بأقدار الله تعالى نحو ما يريده الله، وإن ظن أنه حر، ولعل هذا من أسرار قوله صلى الله عليه وسلم: [عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل]!

ومن أعجب المفارقات التي عاشها أبو العز، أنه في مطلع شبابه – لغلبة العاطفة عليه، وتفاعله مع الأحداث – كان شيوعيًّا، متعصبًا لليسار الفلسطيني بشكل شديد، حتى رمته أقدار الله تعالى بين اختيارين، بعدما حصل على الثانوية بتفوق: فإما أن يدرس الحقوق بالفرنسية في تونس، وهو لا يعرف الفرنسية، وإما أن يدرس الإسلام بالعربية في المدينة المنورة، وأمره لله!

واضطره العمى والظروف أن يقبل بما هو في رأيه الأقل، فجاء إلى المدينة، وعاش بها طالبًا شديد الهدوء، شديد الأدب، واسع الثقافة – مقارنة بالزملاء من جيله – محبوبًا بشكل كبير من كل من حوله، ممن خالطه ومن لم يقترب منه، ومنه سمعت الجديد من

قصائد محمود درويش، ومصطفى وهبي التل، وتوفيق الزيّاد، ومظفر النوّاب، ومعين بسيسو، وغيرهم من شعراء اليسار الفلسطيني العجيب، وطالما استعدتُه القصيدةَ السبابية البذيئة لمظفر النواب، وهو يفحش للحكام والدنيا كلها، بألفاظ شديدة الإقذاع والبعد عن الشاعرية؛ غضبًا للقدس السليبة، ويهتف فيهم غضبان متسائلاً:

القدسُ عروسُ عروبتكم؟/ فلماذا أدخلتم كلَّ زناةِ الليلِ إلى حجرتها/ وسحبتم كلَّ خناجرِكم/ وتنافختم شرفًا/ وهتفتم فيها أن تسكت صونًا للعرض؟!/ فما أشرفكم/ أولاد الـ..... هل تسكت مغتصبة؟/ أولاد الـ... لستُ خجولاً حين أصارحكم بحقيقتكم/ إن حظيرة خنزيرٍ أطهر من أطهركم/ تتحرك دكة غسل الموتى/ أما أنتم لا تهتز لكم قصبة!/ الآن أعريكم/ في كل عواصم هذا الماخور العربي قتلتم فرحي/ في كل زقاق أجد الأزلام أمامي.....

إلى آخر القصيدة المقذعة الطويلة!

ذات يوم، وكنا وحدنا والله تعالى ثالثنا، وجدت أبا العز يدمع، ويكلمني بصوت منكسر خفيض، وهو يقول: أنا كنت حمار كبيييييير يا زلمة، كيف قبلتُ مثل هذه الأفكار، وكيف دخلت رأسي؟ أنا لا أفهم!

فتعجبت سائلاً: أفكار إيه؟ خيرًا؟! فقال: والله ما أدري ماذا أقول؟ هل تتوقع أن أعترف لك أنني كنت شيوعيًّا؟ وهل تتوقع أنهم كانوا يبرمجوننا على كره الإسلام، ومخالفته تمامًا؛ حتى في الحمّام أجلك الله، كنا لا نستخدم الماء أبدًا في التطهر مخالفة للمسلمين، وجعلونا نرفض كل شيء عنه، ونهزأ به، ومنعونا تمامًا من القراءة فيه!؟

سبحان الله! انظر الآن إلى نعمة الله عليّ: أجيء إلى هنا، وأدرس الإسلام مضطرًّا، ليتسلل إلى قلبي خفيفًا وئيدًا مقنعًا، بعد ثلاث سنين، حتى صرت أرى بشاعة ما كنت عليه، وأتمثل نعمة الله الجليلة عليّ!

وهتفت: حمدًا لله على السلامة يا أبا العز! أجرًا وعافية إن شاء الله، والعبرة يا زلمة بالخواتيم!

واستوثقت عرى الصداقة، وتمكنت بين روحينا العلاقة، وعشنا ما بقي لنا في الجامعة، وهو يدبر لي المقالب، ويُسمعني أشعاره الظريفة والمتشائمة، ويقدمني لمعارفه، ويخصني بمودته وأحاديثه، حتى حان حين الفراق بعد أن انتهى من الدراسة قبلي – فقد كان أسبق مني في الجامعة بعام – وأصر أن يعود إلى فلسطين – وجنين على التحديد، حيث مسقط رأسه، في عنزة إحدى قراها – داعية لله تعالى وللإسلام، وتوادعنا الله، وقلت له: سأراك إن شاء الله تعالى، مهما كان الأمر.

كان هذا منتصف سنة 1977 ميلادية، أي من قريب من ثلاثين سنة، وحاولت كثيرًا أن أتصل به، حتى نجحت في إيصال ديوان الذئبة التائبة له – وهو ديواني الأول الذي يحوي قصيدتي عنه – مع أحد أهالي جنين، وبدأت الاتصال متقطعًا، حتى زارنا في الدوحة، مع وفد من جمعية الكفيف الفلسطينية، واتصل بمعهد النور القطري، الذي لم

يقصر في مساعدة مؤسسته، كما شاركنا في إحدى حلقات برنامج: أخلاقنا، في تلفزيون قطر، وقضينا أيامًا – على قصرها – كانت من أحلى أيام العمر الغارب..

ولم يضيع الله عهدنا بأن نلتقي، فقد جمعت بيننا الأقدار بعد سبع وعشرين سنة لأجد أبا العز رحمه الله أمامي في مطار الدوحة؛ كالعهد به، دون تغيير يذكر، حتى في شعر رأسه، وليقفز إلى عيني وذاكرتي ذلك الطفل الكبير، والرجل الرقيق، والشاعر المتابع، والكائن المجامل، والصديق الصدوق، والإنسان المهموم بمعالي الأمور!

ورجع أبو العز إلى فلسطين، بعد أن قضينا أيامًا – على قصرها – كانت من أحلى أيام العمر الغارب، ونتهاتف بين الحين والحين، ليقول لي: سلم على عماد/ سلم على زهير/ سلم على فلان/ على فلان... حتى اليوم؛ لأتلقى اتصالاً من أحد معارفه، وجيرانه في عنزة، من الموجودين بقطر، الذين سمعوا عن قوة العلاقة بيني وبينه وخصوصيتها، ليقول لي باقتضاب موجع، وانزعاج ظاهر: أبو العز.. تعيش انت!

هكذا في لحظة، نكون بين مُعزٍّ، ومعزًّىً، ثم يكون أحدنا معزّىً فيه.. أليست هذه هي خلاصة الحياة؟ أليست هي: مُعزٍّ، ومُعزًّىً، ومعزّىً فيه؟

وهكذا يقفز إلى ذاكرته أبيات قصيدته التي كتبها قبل ثلاثين سنة: إني أموت بلا داءٍ.. بلا هرمٍ/ بل في ربيع العمر أذوي خلفَ قضباني/ فيا قبري: أتيتك عريانًا بلا كفنٍ/ لأني قد غزلت من الأسى والوهْن أكفاني!

هل بقي لك حق يا أبا العز علي وعلى معارفك ومحبيك؟ هل لك حق (تاخده وفوقه ألف بوسة)؟ هل تعرف قارئي الكريم أن موتانا في مسيس الحاجة إلينا؟ هل تعرف أننا بوفائنا ببعض هذه الحقوق يمكن أن نغير مصائرهم بشكل كبير؟ هل خطر لك أنك يمكن أن تخفف عن صديقك أو قريبك أو حبيبك المتوفى الكثير من العناء، وترفع عنه الكثير من التقصير، أو تضيف لرصيده من الحسنات الكثير الكثير؟! إنهم فعلاً يحتاجون هذه الحقوق وفوقها بوسة.. واللا أنا غلطان؟!

مما كتبته في (حكاية أبي العز) التي صيغت سنة 1978 م، أي من اثنتين وثلاثين سنة:

أعمى العينينِ/ ولكنْ كلُّ خلاياه بصائرُ وعيون/ جِرْمٌ دقّ بحجم وُريقة وردٍ/ لكنّ جوانحه تخفي ليثًا/ رقةَ طفلٍ/ شوقًا وحنين!

كالزيتونة مدّ جذورًا/ تضربُ تضربُ رغم الغربةِ ونوى الأحبابِ/ وترسخُ ثمَّ بأرض جنين!

يأتي الليل فينظر بعيون القلبِ إلى النجماتِ/ يغازل دُرِّيًّا دار على آفاق فلسطينِ/ ويناديه.. يناغيه/ يحلّفه بالله – بمن خلق الأشواق – بأن ينقل شيئًا من جمر القلبِ إلى الطرقاتِ/ إلى النبعاتِ/ إلى نبْتاتِ "الخرْدَنِ" و"الشومر" و"الجعدي"/ ينفث زفراتٍ حرّى/ لا يدرك ما فيها من أشواقٍ إلا أهلُ التيم وأهلُ الأشواق/ إذ لا يعرفُ ما الحبُّ سوى من ذاق عذاباته...

[أوف.. هاتوا الورق هاتوا القلم/ تَكْتِبْ عن الشوق والألم/ تَكتبْ عن اللي بالنِّفِسْ/ قلمي بإيدي كان يِبِسْ/ نفسي أنجعِ بْضَرْبَةْ شمسْ/ على مدارْ بيِر البَشَمْ/ يا عنزة أنا مشغوفْ واللون مسْوَدّي/ يا عنزة أنا ملهوفْ والله انْهرى كِبدي/ بَدّي دوا مِنْ اللوف.. واللا مِن الجعدي]..

أهمسُ في قلب أبي العزِّ: تَعَزّ../ تَعزّ ففي المنفى لا زيتونَ ولا تينْ/ في المنفى لا شيءَ سوى العلقَمْ/ لا شيء سوى الإغضاءِ على الضيمِ ومضغِ الحِصْرِمْ!

يصرخ في وجهي: صمتًا/ والله ولو شنقوني.. لو سحلوني/ لو غرسوا في الأحشاءِ سكاكينْ/ لا أنسى أبدًا أبدًا أبدًا أبدًا أبدًا أبدًا أبدًا/ أرضًا أزهرَ في القلب بها نوارُ النسرين/ وتفتّق بالروحِ رياضٌ وغياضٌ وبساتين/ يغلبه الوجدُ فيصرخُ من أعماق الروحِ/ يناجي أجفانَ اللوفِ وأهدابَ الشومر:

شومر يا بوُ ثوبِ الحرير اتهَدْوَلي/ والله دموعي مِ الفِراقِ بتهْطُلي/ يا هَلْدرَى

يا هلدرى بَعْدَكْ كما كِنّا سَوَا/ يا هلدرى قلبكْ لَغيري اتحوّلي!؟/ يا للّي على سِدْرك غِفي وارتاحْ عُودِ الشُّوكَرَان/ ونِعْسَتْ على كِتفكِ قْطوفْ عِنْبة الحية/ بابعث سلامي مِ الصُّبْحْ قَبْل الوَذان/ ع راسْ قُذاعة وخْصونْ مِرْمغيّة/ لا طْلَعْ فوقْ راسْ جَبلْ عاااالي/ ومن

قَحِفْ قرني أصيحْ :/ ريتِكْ يا غربَة تموتي بقرصةِ الحية/ وارجعْ على لِدْيار/ واكْوِع بين نَوّارِ السليحْ وِعنوقِ الرباطْ تتمايلْ عليّه]

ومضى/ خلاّني في الدرب وولّى.. غاب عن العينْ/ غاب عن العين ولكنّ له في القلب جذورًا وقرارًا/ راح يُشَعِّلها نارًا/ يزرع بركانًا أسفلَ كلّ شجيرة/ ملأ الأيدي أحجارًا/ ملأَ صدورَ النسوة في بيسان أوارا/ حرّك في الناس رمادَ الآمال/ صرخ بمرِّ الحقِّ وقالْ:/ إن كنا لا نملك أسيافًا مما يلمعُ في الأعياد الوطنية/ مما نسي أريجَ الداناتِ.. وصامَ عن التهديفِ/ وضل طريق الحرية/ فلدينا الحقُّ/ وناصِرُنَا الحقُّ تعالى فانتفِضوا..

فانتفَضُوا/ واشتعلت جنباتُ الضفةِ نارًا!

هَدَموا دارَ أبي العزِّ وقلعوا التيناتِ/ ودفنوا معه أحلامَ الشومرِ وسنينَ التيه/ ولدت يسرا أربعة توائم/ وامتلأت بالثورة أرجاءُ جنين!

سابع محرم الحرام 1427 الموافق 5/ 2/ 2006

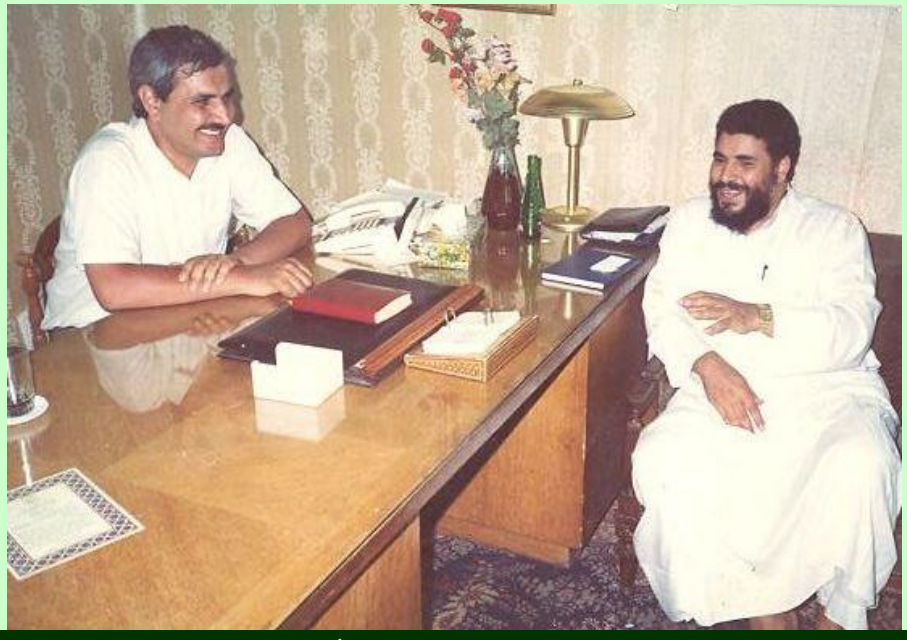

مع د. عبد المنعم أبو الفتوح في نقابة الأطباء عام 1990

الشيخ إبراهيم عزت

الداعية الشاعر النقي

(1)

قبل أكثر من ثلاثين سنة كانت الساحة الدعوية المصرية تمور بالجماعات والتيارات التي حملت أفكارًا متلاطمة، وأحدثت نوعًا من الحراك الديني الفكري والاجتماعي والسياسي – سلبًا و إيجابًا – لا نزال نجد آثاره، ليس في مصر وحده، بل في العالم كله. ولم يكن بد من أن تعثر في طريقك – مهما أردت استقلالًا – بشاب من السلفيين أو الإخوان أو التبليغيين أو الجمعية الشرعية أو أنصار السنة، أو الهجرة، أو غيرهم، يكلمك، أو يفيدك، أو يستنصحك، أو يستفزك، أو حتى يكفرك.

كما حفلت الساحة أيامها بأسماء علماء كبار مؤثرين، من أمثال أساتذتنا الأجلة: القرضاوي، والغزالي، والشعراوي،، وصلاح أبو إسماعيل، وابن باز، ومحمد قطب، ومحمد بن إسماعيل، ومشتهري، وصفوت نور الدين، وغيرهم من الأعلام.

ومما تناهى لمسمعي آنذاك اسم رجل، كان يتكلم عنه من يتكلم بكثير من التوقير والإعزاز، هو الشيخ إبراهيم عزت عليه وعليهم رحمات الله ورضوانه، وياطالما لهج الشباب بلطف منهجه، وحلاوة منطقه، وتفرد خطبه، ورفقه، وافتتان بعضهم به، واجتماعهم عليه في جامع أنس بن مالك، رضي الله تعالى عنه.

وعلى اختلاف آراء الشباب وأنظارهم في بعض الأساتذة، لم أسمع من أحد منهم فيه قدحًا، ولا انتقاصًا، كعادة الشباب المتحمس كل زمان ومكان.

ولأنني كنت قد اختططت لنفسي منهجَ ألا أتعصب للافتةٍ، ولا جماعةٍ، ولا لشيخ، لكثرة ما رأيت الشباب يتعالمون، ويسيؤون، ويأكلون من لحوم العلماء وأعراضهم، لم

تنهزني همتي لألقى الشيخ رحمه الله تعالى، أو لأتعرف إليه، ولم يدر بخلدي قط أنه سكنني، وتربع في قلبي، ورزقني الله حبه، من حيث لا أدري ولا يدري!

كنت آنذاك قد أحببت منشدًا من الشام دارت حوله أقاويل كثيرة، وكنت ولا أزال أعده واحدًا ممن صنعوا – على غير توقع منه – نوعًا من الانبعاث واليقظة، والدافعية العجيبة في نفوس الشباب آنئذٍ، إذ جعلهم – بأناشيده – يتمثلون الكثير من المعاني الروحية والإسلامية العالية كالعزة والبذل وحب الله تعالى، خصوصًا وأنه كان ينتقي أناشيده من كتابات كبار شعراء ومفكري الأمة، أمثال عمر الأميري، وهاشم الرفاعي، ويوسف العظم، ومحمد منلا غزيل، وجمال فوزي، وعبد الحكيم عابدين، وسيد قطب، والرافعي، وإقبال، والقرضاوي، وحمام، والباقوري، وغيرهم.

ولفت نظري حينها أن بعض القصائد التي أنشدها، كانت فريدة في صياغتها وفي لغتها، لأنها – على غير المألوف في النشيد الإسلامي – من شعر التفعيلة، وكانت قصصية الطابع، طويلة النفَس، مشحونة بالعاطفة والشجن؛ لهذا كانت أشد جذبًا لطبيعتي، التي تطرب للصورة والكلمة، من غيرها من القصائد.

وتشغلنا الأيام، ويمر أكثر من ثلاثين عامًا، ونلتفت حولنا لنرى أنني وجيلي لا نزال منبهرين بصوت أبي مازن، الذي جسّد ظاهرةً فذة في زمنه وبعد زمنه، رغم خروج عشرات المنشدين بعده، ورغم اهتمامي بالإنشاد، وكتابتي لعدد كبير من القصائد التي أنشدت وأذيعت، وانتشرت عبر الكاسيتات، في منطقة الخليج، دون أن يهزني منهم أحد، أو يؤثر فيّ كما أثر!

ودائمًا لأقدار الله تعالى تصاريف، وكان من قدري ألا يقَرَّ الفؤاد، فقد زارنا في تلفزيون قطر الأخ الجميل البحاثة المتوقد المشاكس الدكتور أكرم رضا، وهمس في أذني بأمرين، أدخلا على نفسي بهجة عظيمة، أولهما أن أبا مازن موجود وبخير، وأنه قابله، وحاوره، وأثار ثانيةً موهبته، حتى إننا نستطيع الاتصال به، ونستمع له، من خلال (تنوير) برنامجنا التلفزيوني، الذي يعرض في تلفزيون قطر.

وثاني الأمرين أنه مهتم بديوان الشيخ إبراهيم عزت رحمه الله، الذي أنشد بعضه أبو مازن، يريد أن يخرجه للنور، ويعيد طبعه في ثوب جديد.

وسألته: وهل كان الشيخ إبراهيم عزت شاعرًا؟ معقول؟!

وألقى د. أكرم – الله يسامحه – في وجهي ما جعلني أقفز: شاعر؟ انت ما تعرفش؟ دا انت نايم بأه! إنه الذي كتب: مصعب بن عمير/ وبعد/ اليوم عيد/ حبيبتي بلادي/ يا رسول الله جئنا/ ببابك لن أغادره/ الله أكبر، وغيرها من الروائع!

ولا أخفي سرًّا إذا قلت إنني عندها قد ثارت في نفسي غيرة من الدكتور أكرم، وأبيت إلا أن أنازعه هذا الخير، وأشاركه شيئًا من أداء الواجب، وخدمة هذا الرجل المبارك، فهددته: فإما أن يعطيني فرصة خدمة الديوان، وضبطه، وتصحيحه، أو أشكوه للجامعة العربية، وكوفي أنان، وحظّابط كوندوليسا – وطبعًا النظام العالمي الجديد بيتلكّك – فلما رأى جدية تهديداتي، وهو يعلم من هي حظّابط كوكي، خاف المسكين على نفسه من (تورا بورا وأبو غريب واللي ما يتسماش الثالث) وقال: حلال عليك، وربنا يهنيكم ببعض، وكانت فرصتي الماتعة، لأتعامل مع الشيخ الداعية المربي الشاعر الرباني المحلق الثابت الشفيف الرقيق المدهش الرائد السباق المتميز العاشق الفنان؛ أحسبه والله حسيبه، ولا أزكي على الله تعالى أحدًا.

(2)

اسمح لي قارئي المبارك أن أزعم أن هذا الشيخ عليه رحمات الله قد ترك فراغًا في العقل الوسطي المتوازن للصحوة، لم يملأه غيره، وأن مصر كانت في حاجة شديدة له ولأمثاله، لتخرج من دوامات الدم والعنف والقهر والطوارئ والمطاردات والمعتقلات، فقد كان الشيخ رحمه الله تعالى يعتمد الرفق منهجًا، والدفع بالتي هي أحسن أسلوب دعوة، ولعل هذا هو الدواء لمثل هذا الجنون، الذي أضر بمصر وأهلها أيما إضرار.

واسمح لي قارئي المبارك أيضًا أن أزعم أنه ترك فراغًا في بنيان الشعر، يحتاجه صوت الدعوة، فقد بقي الشعراء الإسلاميون المعاصرون للشيخ – في جملتهم – دون الأحداث تعبيرًا وتكنيكًا، ولا تزال قصائد كثير من مشاهيرهم تمر على السمع، فيزلقها لا يعيرها التفاتًا؛ لأنها مرت على الأذن ألف مرة من قبل؛ ألفاظًا وصورًا وبلاغة.

أما هذا الشاعر – ومن ستينيات القرن العشرين – فقد اختار لنفسه أسلوبًا شعريًّا، يعتمد الكلمة الراقية والقريبة التي لا تحوجك لمعجم، والطرح القصصي الذي يشدك من المبتدأ للمنتهى، والصورة الفنية الجديدة على الذهنية الإسلامية، فهو الذي اخترع تعبيرات أنيقة، بليغة في فنيتها ومحتواها الشعوري، مثل:

- ونحن نرتدي الرضا.. ونصنع ابتسامَنا من ذكرهِ..
- حين تعصرُ اليدانِ صرخةً على القيود..
- النظرةُ المعقوفةُ الشعاعِ تقتل الأمانَ في العيون..
- شريكةُ الأسى بدا جناحُها الكسير..
- سترتدي الصقيعَ كي تقدمَ الحياةَ للرضيع..
- في الليلة التي بكى بها الحصى من شهقة الدماء..
- الهولُ يا لقسوتِه: محافلٌ تضم ألفَ سوطْ.. والموت قادمٌ يدوس فوق موت..

- واهتز قلبيَ الذي قد هدهُ العذابْ.. أحسستُ رعشةً بجسميَ الذي يخاف غضبةَ الكلاب.. وجاء ضعفيَ الكريهُ جاء/ عرفتُه في كل لحظةٍ من الضنى قد عشتُها/ أتى يقدم الرجاء! ونحو ذلك من التعبيرات.

ولا شك أن طرح مثل هذه المعاني سنة 65، 66، 67 لم يكن أمرًا مألوفًا في قاموس الشعراء الإسلاميين، لذا كان هذا الرجل – في زعمي – رائدًا سباقًا. ولولا انشغاله الكثيف بالدعوة، ومُضي قدر الله تعالى فيه شابًّا، لكان له والشعر شأن آخر؛ ولاستطاع أن يصنع مدرسة أدبية إسلامية المنهج، تنافس وتتفوق في فنياتها وتطورها، بل وتلغي كثيرًا من الشعراء (المنافيخ) الذين كانوا يظنون أن الإبداع لا يمكن أن يقارنه التزام ولا تدين، وأنه دائمًا (حاوِدْ شمال)!

لذا فإنني أتمنى عليك قارئي المبارك – لتدرك كم كان إبراهيم عزت إضافة حقيقية للدعوة والشعر والأدب – أن تضعه في إطاره الدعوي – وشعره هذا كله في الستينيات، حين كان كثير من الإسلاميين الوعاة أسارى زنازين باردة ومظلمة وكئيبة – لترى كم كان قويًّا في يقينه، وفي آماله، وكم كان يبث في قلوب السائرين الثقة بالله تعالى، والثقة بالانتصار، والثقة بالمستقبل.

ضعه في مرحلته التاريخية، التي خرست فيها الألسنة، واكتظت بأهل الدين السجون، وعز التعبير الحر، وقصفت الأقلام، وحوصرت العقول، ولم يكن يسمح إلا بالتسبيح بحمد اتجاه واحد لا ثاني له، وتعظيم رجل أوحد، لا شريك له، وحيث هتف بعضهم معزوفات من الردح والتجريس الاشتراكي من نوع: (هانْزَمّرْلك كِدَهُه، ونطبّلك كِدَهُه، ونقول لك: يا عديم الإشتراكية!) ثم تأمل كم كان قلب الشاب إبراهيم عزت حديدًا، وكم كان جنانه ثابتًا، وكم كان حرًّا لا يقبل الضيم، عزيزًا لا يرضى بالذلة، مستعصمًا بالله تعالى، مستعليًا بإيمانه، في مواجهة هيافة الاشتراكية، اللي بتزمَّر كِدَهُه!

ضعه قارئي الكريم في مرحلته الشعرية، حين كان أكثر الإسلاميين يتهيبون التطوير، وينفرون من شعر التفعيلة، ويرونه مروقًا على الشعر، وخروجًا على اللغة والأدب،

وأنك لكي تكون شاعرًا ينبغي أن تكتب عن القليب والرشا، والليل الذي ينوء بكلكله، وعن القوام السمهري، والدعص والكثيب، وعيون المها/ البقر (ومش عارف ازاي تكون عيون البنات زي عيون البقر، وتنحب!) ثم يأتي هذا الشاب الإسلامي التوجه، ليتبنى أسلوبًا في التعبير الشعري، كاد يتفرد به آنذاك شعراء اليسار: صلاح عبد الصبور وأمل دنقل ومطر والشرقاوي والخميسي وحجازي وغيرهم. ألم يكن – إسلاميًّا – رائدًا واعدًا، ومجددًا متفردًا!؟

(3)

تشكلت رؤية إبراهيم عزت الشعرية من خلال منابع كثيرة كان أهمها في رأيي أمرين، أولهما:

تنقُّله بين عدة تيارات ومدارس دعوية، ما أكسبه نوعًا من السماحة، واللين، والبعد عن العصبية، والرغبة في تأليف القلوب؛ فقد نهل الشيخ أول ما نهل من بيته الصعيدي المحافظ، الذي أورثه نفحة من التصوف، ومن عمله مذيعًا ومعدًّا للبرامج الدينية والأدبية في الإذاعة المصرية – وهذا يحتاج إلى قراءة وثقافة – ثم تنقله بين الشبان المسلمين والإخوان والتبليغ، ما حباه رؤية متسامحة، وأفقًا متسعًا، ولسانًا مقنعًا، وانتباهًا لكثير من المزالق والمطبات التي يسقط فيها من لم يجمع مثل هذه الخبرة.

وأنا مؤمن إيمانًا جازمًا أن من نوَّع مصادر تلقيه، وفتح للحق عينيه، وبحث عن الصواب بإخلاص نية، دون تشنج، ولا تطاول، لا بد أن يتسع أفقُه، ويتسامح منهجُه، وأعتقد أنه ما صار أمير المؤمنين البخاري عظيمًا إلا لأنه درس على ألف وثمانين شيخًا، كما ورد في تراجمه.

ثانيهما: تعرضه لتعذيب شرس، طالما تحدث عنه في أثناء ديوانه، متنقلًا بين حالات نفسية، تجعلك تنحني له إكبارًا، فلم يكن استعراضيًّا عنتري النزعة، يصنع أساطير حول نفسه أيام السجن والتعذيب، بل لم يستنكف أن يتقلب بنا في أحوال المعذَّب؛ من

ضعف وقوة، ومن خور واستعلاء، لم ير بذلك بأسًا، ولم يعده منقصة، وهذا ما يكسب شعره صدقًا وواقعية مغلفة بصوره القوية:

انظر إليه، ونفسه تؤامره على نفسه، وضعفه البشري يبتزه ويضغط عليه، وآلام التعذيب تساومه على الانحناء، وهو يقول:

واهتز قلبيَ الذي قد هدّه العذابْ/ أحسست رعشةً بجسميَ الذي يخاف غضبةَ الكلاب/ وجاء ضعفيَ الكريهُ جاءْ/ عرفتُه في كل لحظة من الضنى قد عشتُها/ أتى يقدم الرجاء/ تعلقت عيناه بالجواب.

واستعِد معه ذكريات المسلمين الأوائل، الذين آدهم التعذيب، وأثقلهم الاضطهاد الوحشي الأعمى، فجاؤوا يشتكون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستنصر الله تعالى لهم، إنه يرفع شكواه لمولاه – مستعجلًا – لطول ما عانى وأوذي في الله:

سألت خالقي: لمن لمن تركتنا؟/ سألت خالقي؟ إلى متى/ ستطعم الكلاب ما وهبتنا؟/ الهول؛ يا لَقسوتِهْ/ محافلٌ تضم ألف سوط/ والموت قادمٌ يدوس فوق موت!

ثم يستعلي – وهذه أغلب حالاته – على جراحاته، وعلى مصاعب الطريق، فيهتف:

عائدٌ أنا من حيثما أتيت/ عائدٌ أنا لمسجدي/ عائدٌ إلى الصلاةِ والركوعِ والسجود/ عائد إلى الطريقِ خلف أحمد الرسول/ أُطلق الخطى حثيثةً في إثرِهِ/ عرفت قصة الطريق كلها/ وعائدٌ أنا برغمها/ كالفجر، كالصباح....

لذلك فإنك ستجد تنويعات نفسية ووجدانية عديدة، مبثوثة هنا وهنالك، عن التعذيب والجلادين، وعن صبره وتماسكه، وتثبيته لوالديه وأحبته – ثقة بموعود الله تعالى، ويقينًا بالظفر – ولن تخطئ عينك الثاقبة أيها القارئ الكريم هذه الملامح.

ويكاد يغلب على الديوان أيضًا – وربما كان هذه خَصِيصة تلاحظ في القصائد – الروح الدينية العالية، والحب العظيم لله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم – في غير تكلف ولا ادعاء – ويتجلى ذلك في ألفاظه وتعابيره، في عدد من القصائد،

وحسبك أن تقرأ: ببابك، يوم الحبيب/ يا رسول الله جئنا/ دعاء، لتلحظ ذلك في غير ما عناء، وسيأتي!

(4)

من حيث التاريخ نلحظ أن أهم قصائد الشيخ رحمه الله انطلقت بين 1965، 1967، وأن أكثرها وأهمها من وجهة نظري كتب سنة 66، قبل النكسة بعام، وحين كان التعذيب وجباتٍ يومية توزع على المساجين بالحظ، أو بالهوى!

ومن حيث الموضوع نلحظ أن الشيخ رحمه الله بدأ الديوان بالأهم في وجدانه فالمهم، فوضع قصيدة الله أكبر في المقدمة، ثم قصيدة أمي، ثم أبي، ثم صغيرتي، ثم خاطبهم مجتمعين في قصيدة (زيارة) ثم بعد ذلك وضع القصائد بترتيب مختلف، استأثر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصائد حب من نوع خاص، فاقرأها لتكتشف أنه مسكون بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مفتون به إنسانًا ومعلمًا وقدوة، ورسولًا – صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم – يعبر عن ذلك أحيانًا في إيماءات صوفية النزعة، لكنها صوفية راشدة، بعيدة عن التكلف والإغراب، وعن الشذوذ والادعاء. وهو يأخذ من بعض المفاهيم رقتها، ومن بعض الألفاظ حميميتها، دون أن يجعلك تظن أنه (درويش، أو مجذوب) يلبس الخرقة، ويهذي في الشوارع، بل هو اليقظ دائمًا، المحب دائمًا، الطموح دائمًا، الراضي دائمًا؛ الساعي للتغيير دائمًا، حتى وإن استخدم ألفاظًا مثل: المقام والأعتاب والسوى والعشق والشوق والوجد والوصال والأنس والذوب والكأس والمريد، وحاول إن استطعت – ولن تستطيع – أن تجد هذه الألفاظ في موطن يجرح التوحيد، أو يغيِّب العقل، أو يسيء للعلم والاتباع، واقرأ معي هذه المواضع:

يقول في قصيدة أمي:

يا نفسُ: كفي عن سواه لتلزمي أدبَ المقام بساحة الإيمانِ

وفي أرجوزته: دعاء، نراه يقول:

أنتَ الذي أسريت دفئَك في دمي	فبدت ملامحه تَرقرَقُ في فمي

فنطقت باسمك داعيًا وملبيا	وجرى اللسان بما أفضتَ مناجي
فجرت دموعُ العاشقين مهابةً	وبكيت من فيض العطاء إنابة
وعرفت طعمَ الشوق ذقتُ جلالَهُ	لما التقيتُ بمن مُنحت وصالَه
فهناك من بين الوجوه عرفتُهم	كالدر في بحر الحياة نثرتَهم
السر فيهم لا يراه الناظرُ	لكنما هو للبصيرة ظاهرُ

وفي قصيدته (كلنا مسافر) يقول:

زاد الضنى حتى شقِيتُ بغربتي	ففزعت للرحمن أشكو وحشتي
فعرفت أُنْسًا لا يُنَالُ بغيرِهِ	ونَعِمتُ بالشوق الحبيب لنوره
يا ليت كل الحائرين تفكروا	الخير يدعونا إليه فشمِّروا

وفي قصيدة لحظة الوصال يقول:

بعضَ الندى أو قطرةً من المطر/ تردُّ قصة الحياة/ حتى يحين موعدي مع اللقاء/ وعند ذاك سيدي/ سينتهي السؤال/ نذوب سيدي/ في لحظة الوصال.

وفي قصيدته (يوم الحبيب) تظهر هذه النفحة جلية، وإن خففت منها شكواه مرارةَ الواقع، وحرد الكفر، وكلَب الباطل على الإسلام والمسلمين. انظر إليه يقول:

بالباب أُرْسِلُ آهاتي معذبةً	إنا بأعتابكم نشكو.. أجيبون
يا أكرمَ الرُّسْلِ وَجْدٌ في القلوب سرى	فاسترسل الشوق يعصرِنا ويطوينا
يا سيد الخلق فامسحْ غلةً ظمئت	والحبُّ من كأسكم يروي ويرضين
لا شيء نملكه إلا محبتُكم	نرجو بها نسبًا.. بين المريدينا

لا أعتقد أن في طرح الشيخ الرقيق المفعم بالحب لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم شيئًا مما يمجه ذوق الموحد، أو يرده طبعه، بل إنه حذا حذو علماء أجلة كابن تيمية، وابن القيم، والحافظ الذهبي وغيرهم – عليهم رحمات الله تعالى – في استخدام مثل هذه الألفاظ بمقادير متوازنة، خصوصًا أننا في زمن نشكو فيه جفاء بعض الطباع، وغلظة بعض القلوب!

(5)

لقد فاجأتني قصائد الشيخ رحمه الله تعالى، واندهشت أنها له، ولفت نظري ما يتمتع به من نفس طويل، ولغة تسبق زمنه، تغلفها البساطة والوضوح، كأنها أشبه بسهل يمتنع على من لا يملك مثل ذوقه وشاعريته، يؤطر ذلك كله (رومانسية دعوية) إذا صح التعبير. عش معي وانظر ما أروع الشاعرية، وما أبدع الصور، وما أرق الأداء، وما أحلى التعزي، وأجمل السلوان، في قصيدته زيارة:

على مشارفٍ تظل ألفَ يوم/ ونحن نرتدي الرضا/ ونصنع ابتسامَنا من ذكرهِ/ ونرقُب الحياةَ من بعيدٍ/ في جزيرةٍ ببحرهِ/ تفتحت قلوبُنا على نوافذ الخلودْ/ تنفست زَفْرَاتُنَا في واحةِ السجود/ الكفُّ حينما يصيبُها الضنى/ تمد بالرحيق/ حين تعصِر اليدان صرخةً على القيود/ والعينُ حينما يشدها الشرودْ/ تردها عينان عائدتان من حدائق الصمود/ والقلب حينما يزوره الأسى/ تضمه في بُردة الأمان بسمةُ الشهيد/ الصبر يعرف الجميع/ رافق الخطى على الطريق/ والحقُّ بيننا/ وصية الصديق للصديق.

ولم يكن التعزي وحده هو زاده، بل لقد امتلك ما هو أقوى، وما هو أسدّ، لقد تحلى بالثقة الشديدة بالله، والهزءِ مما يعانيه في سجنه، وكانت فلسفته التي تهون كل شيء مما يعاني، رضاه بموعود الله تعالى:

لا تحزني مما يقال عن الجرا	ح وما يقال عن الذي أضناني
فالجرح يبرأ بالمساء.. وبالصبا	ح لنا من الرحمن خَلْقٌ ثان
لا تفزعي إن رق ثوبي في الشتا	ء.. مع الأسى ونحولة الأبدانِ
فالقلب يدفئه إلى الله انتما	ءٌ.. منه تذكو جَذوة ُ الإيمانِ
لا تحزني إن كان زادي معدَمًا	فالجوع يقهر سطوة الشيطانِ
والزاد ما نلقاه في يوم الزحا	م غداةَ تُزْلَفُ جنةُ الرضوانِ

وفي قصيدته: فلنطلق ابتسامنا في ليلة العزاء: يقول في ثقة مستعلية:

لم تفلح الجدرانُ والقضبان/ لم يفلح السجانُ والسلطان/ فنبعُنا يُمدنا بزادنا/ والواحد القهار أمنُنا.. ملاذنا/ يا حسبَنا/ يا حسبنا/ مفاتحٌ للغيب لا تُرى تفيض بالعطاء/ تقدم الغذاء والدواء والكساء/ تخبئ الهناء!

وفي قصيدة الألم يقول:

فلم تزل مزاهرُ الحياة في القلوب/ يصونها من الضياعِ أن ربها كبير/ وأننا بركنه الشديدِ نستجير/ وأننا بظله الحبيب نحتمي/ وفى رياض وعدِه الوفي نرتمي/ وإنه لحق/ البيع رابحٌ.. ورابحُ!

ويقول في القصيدة نفسها:

غدٌ لنا.. غد لنا/ ونحن في مواقع الخلود ننتظر/ فلتحكموا السُّفُنْ/ لأنَّ بحرنا عميقٌ/ واستكثروا من زادنا الأصيل/ فلم تزل بعيدةً نهايةُ الطريق/ لكنّ نبعَنا الرطيبَ مغدِقٌ/ ولم يزل يبلل الظما/ ويطفئ الحريق!

ويرى أنه لا بد من تضحية، ومن عطاء لهذا الدين حتى، ينهض، ويستعيد مكانه ومكانته، يقول في قصيدة الألم:

فلم تزل أقدارُنا تقول:/ لا بد يا أحبتي من الألم/ ليسقطَ الكسيح/ لينتهي تراقصُ الذبيح/ ليختفي في قسوة النيران/ مرهَفُ الطلاءِ والخبث/ ليهتف الجميع:/ الموت للعبث/ ليستبد بالمراوغ القلق/ ليهدأ الشهيدُ إن صدق!

وفي قصيدته/ لا تذكر الحياة يقول:

لكن رعدةً هناك خلف حمرةِ الشفق/ تُنَبِّئُ الغريب عن أمل/ فلنرتقب/ فلنرتقب!

(6)

ولقد اهتم الشيخ رحمه الله تعالى بتنويعات قي قصائده، يقدم من خلالها رؤيته للواقع وللمستقبل، ولطبيعة الدعوة:

فقد كان ذا أمل دائم في النصر، ثقة بالله تعالى: يقول في (زيارة):

سنلتقي بإذنهِ/ في دارنا.. في كل دار/ وسوف يقهر الضنى/ في جوفِ ليلٍ أو نهار/ ونحن نرتدي الرضا/ ونصنع ابتسامَنا من ذكره/ ونرقب الحياةَ من بعيد.

وهو يدعو إلى اليقظة، والانتباه للشعارات الخادعة، والألفاظ الحلوة التي تحمل في أثنائها الموت، وترفض النور والطهارة: انظر إليه في قصيدته: عذابنا، وهو يقول في سخرية سوداء ممرورة:

متى يموت قهرنا؟!/ متى يثور سيدي بركانُنا؟!/ متى نلقب الأشياءَ بالذي يوافق الأسماء؟!/ ونصنع الحقيقة المقدسةْ؟!/ حقائقُ الحياة كلُّها مزيفة/ الخير شرٌّ مطبِقٌ فمزقوا رداءه/ والشر – في عوائه الكئيب – غادةٌ/ يساق في أعقابها المديح/ إياك أن تحب خضرة الزروع/ ما أجمل السواد!/ ما أرَقَّ بومَهُ/ ينوح فوق دارنا/ ولتذبحوا الحمام/ ولتقتلوا الأطفال/ ولتحرقوا الأزهار كلها.

ولأنه يحب بلاده وناسه (كما يقول الصعايدة)، ولأنه يرى أن على المسلمين أن يرفضوا ما هم فيه من انكسار وهوان، فإنك تراه يستنخي ويستنهض أبناء الأمة، ويحرك عزائمهم، دون تيئيس، ولا كسر للهمم:

والخطبُ أكبر مِنْ لهوٍ نُقارفه	والأمرُ أكبر من دعوى نناديها
جِدُّوا لأقدارها؛ فالهزلُ مقبرةٌ	بها سندفن أحياءً ونبكيها
أنتم وقودٌ لحرب ضلّ صانعها	يُجَمِّع الكيدَ كي يطوي غوافيها
أبناؤنا طُعمة لليأس نُسْلمهم	ضلت معالمُهم: من ذا سيجلوها؟
ماذا نقول لربي حين يسألُنا	عن الشريعة لم نحمي معاليها؟
ومن يجيب إذا قال الحبيب لنا	أذهبتمو سنتي.. والله محييها؟
إن لم نردها لدين الله عاصفةً	سيَذهب العرضُ بعدَ الأرض نعطيها
سيذهب الدين والدنيا بلا ثمن	إن لم نقدم دمانا.. كي نزكيها

إنَّا على عهدنا لله.. نحفظه	حتى نقدم أرواحًا.. ونَشريها
طابت نفوسٌ تروم البذل في ثقة	من العطاء.. لربٍّ سوف يرضيها

ومما يلاحَظ في الديوان بقوة: إعلانه المتكرر استعدادَه للشهادة، وعدم مبالاته بها؛ رغم العناء والتعذيب وقساوة السجان، وبنبرة مستعلية، لتربح بيعتُه، وتُبارك تجارتُه:

ففي قصيدة (زيارة) يقول:

لنطلقِ الخطى على الطريق/ أقولُها وأعرف الثمن/ فلنرتدِ الكفن/ فالموت في رحاب طاعته/ أحبُّ يا أحبتي/ من انحناءةٍ خفيفة بغير ساحته!

وفي قصيدة: فلنطلق ابتسامنا، يقول:

يا قرة العيون ساعةَ الجزاء/ سنشترى الخلودَ بالفناء/ فلنطلق ابتسامَنا في ليلة العزاء

وفي قصيدته (أبي) يقول:

ولتقبلِ العزاء/ بلا دموعْ/ فالحاسدون في انتظار دمعِنا/ كي يضحكوا من جُرحِنا.

وفي شهيرته (أسبح ربي) يقول:

أبيعُ.. ورَبِّيَ مني اشترى	أبيعُ الحياةَ ولا أستشير
وكنت بأمسِيَ أخشى العيون	وأهربُ من شرها المستطير
وكنت أخاف حلولَ المنايا	على ظهر عبدٍ مُقِلٍّ فقير
ولما طلبت الحمى في حماهُ	أمنت بحصنِ العزيزِ المجير

بل إنه في (مرثيتي) يستشرف آفاق الشهادة، ويرى نفسه بين في السياق، يحب أن يسمع اسم الله تعالى، وجلاده يصرف على أسنانه: كيف يموت بغير إذني؟ فيقول:

أَغمِضْ عينيَّ ولَقِّني إسم حبيبي/ فأنا سأموت/ سأعود إليه فلا تبكِ/ واضحك

حتى تملأ أصداءُ الفرحة كلَّ الكون/ سأعود إليهْ/ فأنا المشتاقُ إلى لقياه/ والحورُ أُراها يا صاحِ/ الحورُ تنادي سيدها/ تخفي الطرْفَ بطرْفِ الثوب/ وأشمُّ مع العطر شذاها!

ولعل الله تعالى أكرمه بميتته التي ماتها، في رمضان (1404 – 1983) بعد الإفطار وصلاة المغرب، مسافرًا معتمرًا مغتربًا، ناويًا الاعتكاف في الحرم الشريف، لعل في هذا إكرامًا من الله تعالى له، وتوفيقًا ليلقى ربه الكريم – الذي كان يحب لقاءه – على عمل صالح،

ولعل في هذا أجر شهادة يناله بتوفيق الله تعالى، ثم بنيته، وهذه الأعمال الكريمة مجتمعة، فاللهم إذا كنت حرمتنا لقاءه في الدنيا فاجمعنا به في الجنة، مع الحبيب صلى الله عليه وسلم، أنا والدكتور أكرم وحضرتك أيها القارئ الكريم.

والشيخ – بتوفيق الله إياه ثم بثقافته – يحسن توظيف التراث، وتنويع مصادره، ليصل إلى مقصوده، فهو يناجي أمه بلغة، ويخاطب صغيرته بأخرى، وإن جمع بين الخطابين كونهما من التراث الذي يمكن توظيفه للوصول للمقصود، انظر إليه وهو يخاطب أمه:

فِرّي إلى المحرابِ بثي شَكْوَنَا	للهِ.. في ثقةٍ.. وفي إذعانِ
صوغي الدعاءَ مدامعًا ومدامعًا	تهفو إلى غيثٍ قريبٍ دانِ
قولي له: ولدي لديك وديعةٌ	نُذِرَتْ لتحمل راية القرآنِ
ذو النون في بطن الظلامِ حفظتَهُ	سبحانك اللهم، ذا الإحسانِ
وحميتَ موسى حين أُلقيَ عاجزًا	في اليمِّ يحمل آية الرحمنِ

ثم ارجع البصر – حين يخاطب ابنته – تجد اللغة وقد اختلفت، والمضمون وقد رق، والمرجعية وقد تبدلت، تأمله في قصيدته زيارة، وهو يقول:

لا زلتِ تذكرينني؟!/ ولم تزل وَدودَةً ملامحُك؟!/ أما أنا فلم تزل ببسمتي بقيةٌ أزفُّها لبسمتك/ وحينما نُرَدُّ يا صغيرتي لدارنا وتسألين عن هديتِك/ ستسمعين يا أميرتي حكايةَ " الشَّاطِرْ حَسَنْ "/ مضى ليقهرَ الغيلانَ في المدينة السوداء/ وحينما التقى بالأعرج الحقود

هدَّهُ بطعنةٍ من خنجره/ واستخلص الحسناء/ روَى حقولَ قمحِنا بدمعِه/ وجاد بالدماء/ ستعرفين قصةَ الحمامةِ البيضاء/ وقصةَ الطيور والغناء/

وقصة الغرابِ والخراب/ والأسودِ والذئابِ والكلاب/ لسوف تعرفين أن إسمك الحبيب بسمةٌ في ألف قلبْ/ يا بسمةً تُحَب.

وفي قصيدة صغيرتي يوظف القصص؛ في محاولة لتشكيل وعي طفلته، فيقول:

كي تفهمي صغيرتي: هل تذكرين/ حديقة التمساح والأسد؟/ تلك التي ركبتِ فيها ذلك الجمل/ يمضي بنشوتِك الحبيبة ناعمًا/ وهو السعيد بما حمل/ هل تذكرين صاحبَ العرين/ ذاك الذي تزيد عنده الخُطى/ ذاك الذي لا تَجْسُر الوحوش أن تنال ساحتَهْ/ قد نِلْتِهِ صغيرتي/ قذفتِ من يديك ما أصاب هامتَهْ/ العيب يا صغيرتي في قسوة الأغلال/ لا عيبَ في الرجال/ العيب فيمن يعشق انحناءةَ الرجالْ.

وبمناسبة اللغة وطواعيتها بحسب المخاطب، فلن تخطئ عينك – بقليل من التأمل – وجود مقدار من التناص واستلهام القرآن في مواضع عدة: يقول في الله أكبر:

الله أكبرُ: بسم الله مُجريها الله أكبر.. بالتقوى سنُرسيها

وفي أمي يقول:

والغيثُ.. تصنعه يدٌ قدسيةٌ والحبُّ ذو عصفٍ مع الريحانِ

وفي قصيدته: وكان ملحدًا ومات، يقول:

والنور في إصراره العجيب/ يعبر الدجى لفجرِهِ/ فلتخشعِ الأصواتُ للرحمن/ ولتُنْصِتِ الأكوان/ فالشيخ قد بدا/ يرتل القرآن/ يرتل القرآن.. القرآن..

وفي قصيدة الألم يقول:

وفى رياض وعدِه الوفي نرتمي/ وإنه لحق/ البيع رابحٌ.. ورابحُ!

(6)

ولعل من التأكيد وعدم التكرار أن أذكِّر هنا بحبيه الكبيرين:

حبه الأول وهو الحب الجارف لله تعالى، ونبرة التوحيد التي تبدو عالية في خطابه الشعري – ولا نزكيه على الله – فتأمل قوله:

رغبت انتسابًا لرب الجلال	يفوق الطموح بقلب الجسور
فأشهدت خلقَك أنِّيَ عبدٌ	أَحَبَّ المليكَ العزيز الغفور
وأَسْلَم عند رضاكَ الرحال	وألقى لديك عناءَ المسير

وفي (مرثيتي) يعلن فرحته بلقاء الله تعالى:

أغمض عينيَّ ولقِّنِّي إسم حبيبي/ فالطائر يعزف تغريدًا/ لا يطلقه إلا في لحن رحيل!

وفي قصيدته القوية، التي تنضح حبًّا ورضًا بالله تعالى، يقول:

أنا قد وقفت بباب ربٍّ قادرٍ	يُرجى لديه النفعُ والإيواء
وكرهت أن ألقي لعبدٍ حاجةً	فعبيدُ ربي كُلُّهُمْ فقراء
ولقد سئمت سؤالَهم فسألتُه	وتركتُ ساحتَهُمْ بِيَ استغناء
أسلمتُه ضعفي ليقوى عنده	فالضعف عند رحابِهِ استعلاء
يا من وسِعت الكون ربًّا قاهرًا	أشكو إليك بأننا سجناء
أخفى من الإسرار عندكَ ظاهرٌ	ولديك أطمع أن يجاب دعاء
أرنو لواحاتِ الرضا فياضةً	هي للشريد بظلِّها إيواء

وفي رائعته (ببابك) يهتف:

قلوب هزها التوحيدُ.. ردد حيُّها حبَّك

ونهتف في جبين الصبح.. حين يقال: من ربُّك؟

إلهي خالقَ الأكوان.. لا أسعى إلى غيرك

إلهي فالق الإصباح.. أَشْرُف أنني عبدُك

وأما حبه الثاني فكان لوالديه رحمهما الله، إذ عاش الشيخ رحمه الله تعالى معاناتهما، وأحس بمشاعرهما المجروحة لبعده وحبسه، وعايش آلامهما ومواجعهما لفقده، انظر إليه وهو يتحدث عن والدته في قصيدته: لا تذكر الحياة:

لا تقل لي إنها تجففُ الدموعَ في السحر/ تجيب للجميع باسْمِه/ تقبِّل الطيوفَ لا ترى سواه/ تسرق الخطى لموضعه/ تقبل الثياب/ وسمعُها معلَّقٌ بطرقةٍ بالباب/ وحيدةً/ وحولهَا الضياع/ وليلُها ويومُها التياع!

وأرجو أن يكون في هذا المقدار كفاية..

مع الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق

أبا مازن: أنا مدين لك

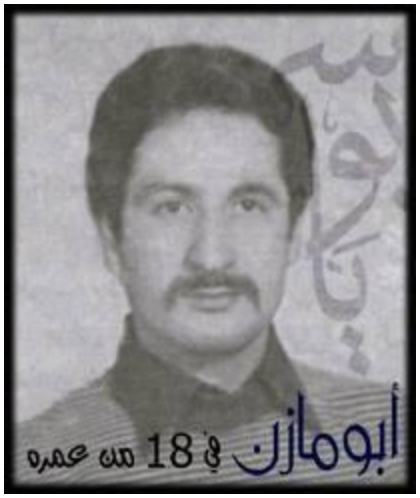

قارئي الحبيب: هل ذقت معنى أن تساق إلى الجنة بالسلاسل؛ غصبًا عن سيادتك؟

أحمد الله تعالى أنني ذقت هذا، وجربته، وأحسست به بخلاياي كلها! وسامحني؛ فلن أقول كيف!

هل احترت من شيء من أقدار الله تعالى لم تفهم حكمته، ولم تدرك مراميه ومغازيه.. ثم بعد عشرين سنة مثلاً انكشفت لك الحكمة؟

أحمد الله أنني جربت هذا غير مرة!

هل عاصرت رجلاً استطاع بالريموت أن يشكل عاطفتك وعاطفة جيل، ويثير أشجانك وأشجان أمة من الشباب والكهول، دون أن يعرفهم أو يعرفوه؟!

أنا جربت ذلك مع هذا الكائن الجميل الذي لم أسعد بلقائه حتى هذا الحين!

هل رأيت عمرَك رجلاً يبني هرمًا، أو ينجز خارقةً دون أن يعرف ذلك، ولا ينتبه له، وهو بين الناس يسعى، إلا بعد خمس عشرة أو عشرين سنة من غراسه؟

إنه هو.. قال كلماته ومضى ليعافس الحياة، ويعيش دنياه، ثم ليلتفت بعد عقدين فيجد الأيدي تشير إليه، والعيون تركز عليه، والقلوب تقول.. أهه.. هوّ ده؟!

هل رأيت رجلاً لا يكتفي أن يَحبوَك من عطاء نفسه، بل يؤمِّن لك عطاءات آخرين، ويتيح لك من خيرات غيره، لتعرف، وتنهل، وتضيف لرصيد نفسك ما أنت في حاجة له، دون أن يمنّ، أو ينتظر منك متشكرين، أو ثانك يو، أو جزاك الله خيرًا؟

لقد فعل هو ذلك.. وأضاف إلى رصيدي شاعرًا ما كنت أعرفه شاعرًا، ونفَسًا دعويًّا أمةً وحده، هو الشيخ إبراهيم عزت عليه رحمات الله ورضوانه!

هل جربت أن ترتبط عاطفيًّا بشخص انبهرتَ به، فطفقت تدعو له، وتترحم عليه، وهو في قارة وأنت في أخرى؛ لم تره، ولا تعرف عنه شيئًا؟ بل ما تظن أنك تعرفه (يصد النفس) ويغرس من لقياه اليأس؟!

يااااه! حصل لي والله!

هل غُصت في المعاني، والنغم، والكلمات الجميلة لأنك خلطة سرية من فنان على إنسان على شاعر على داعية بحيث تبقى أسير الكلمة الحلوة، والانفعال الصادق، والعاطفة التي سالت على الورق نشيدًا أو حداءً عذبًا، يثير في مشاعرك القوة والنشوة؟!

لقد عشتُ ذلك بفضل اللطيف الخبير بأعصابي وأفكاري وهمي وهمتي!

هل تظن أن العلم الجاف الجاد وحده هو الذي يرسم الطريق، ويأخذ باليد، دون أن تحلق في سماء روحك نغمة شجو، أو نفحةُ رَوْح، أو سحابة لون؟!

ستكون في زعمي مخطئًا إن اعتقدت ذلك؛ فكثيرًا ما تغير نفسَك كلمةٌ أو همسة أو نغمة، لتترك بصمتها على وجدانك سلوكًا طيبًا أو شريرًا!

وقد أسرتني نغماته وأداؤه لأتاثر كثيرًا، وأنساق في طريقٍ رسمه لي، من خلال الحداء والكلمة والنغم، كما رسمه العلم والكتب والدراسة المنهجية، والجلوس إلى أهل العلم والدعوة.

ألست أكون بهذا مدينًا له بدين أكبر من المال أو أي شيء ذي ثمن.. لأن ما اكتسبته منه أكبر من أن يقدر بثمن؟

يا سيدي قل: بلى؛ فلقد اكتسبت إضافات غالية إلى ديني ومنهجي ودعوتي، ومساحةً من عمري خضراء ندية؛ جادها الغيثُ إذا الغيث همَى..

وهل يقدَّر ديني ومنهجي ودعوتي بثمن؟!

جزاك الله ألف ألف خير عني وعن جيلي يا أبا مازن!

جزاك الله ألف ألف خير عني وعن جيلي؛ فقد كنت وحدك في ساحة الحداء النظيف، تصنع أفكارنا على التوازي بجانب القرضاوي والغزالي والألباني وابن باز والشنقيطي وسابق والشعراوي وإبراهيم عزت وغيرهم..

وهل أحد أعلى من ذلك منزلة، وأفضل فضلاً؟

جزاك الله ألف ألف خير، فقد كنت تعبر عن لواعجنا، وتترجم آلامنا وآمالنا، وتعزي نفوسنا، وتسرِّي عنا همومنا، بقصائد عذبة، وأناشيد وُفقت كثيرًا في اختيارها، وترجمَتِها إلى لغة عاطفية، لا ترضى بأن تتخذ غير قلوبنا سكنًا، وغير أكبادنا لها مهادًا!

جزاك الله ألف ألف خير، حينما انتقيت لجيلنا كلمات نقية، خالية من شوائب الدروشة العمياء، وتفاهات الشرك الرعناء، وغباوة السطحية البلْهاء، وسرابية الكلام الأجوف، لتجمع لنا بين حلاوة العبارة، وجزالة الكلمة، وطلاوة النغم، ونبل المعنى، وشرف القصد، ثم بتوفيق واقتدار تُعلِّب لنا هذا بصوتك الأعجوبة، ونغمك الشجي الذي تربّع في القلوب والضمائر؛ نهجًا رائدًا مستنيرًا سباقًا!

كم كنت تعزيني على البعد منذ أوائل الثمانينيات، وإلى يومي هذا، والضغوط النفسية والعاطفية تُنيخ بصدورها على كياني وكيانات لِداتي من أبناء جيلي، وأنت تحدثنا عن الرسول القدوة، وعن الشباب ذي العزمات المبرمة، والليل الذي لن يعود، والعيد، والصغيرة نهاد، وعن سيدي مصعب، وعن ملحمة الدعوة، والأم التي ترضع وليدها الجراحَ مع اللبن، وعن ابتهالات المسلم في وسط حلقات التعذيب!

كم كنت تثبّت قلبي وأنت تأتي بهمم كبارٍ أضيفها إلى همتي الكليلة؛ لأمتاح من هديها هديًا، ومن عزمها عزمًا: دررِ كلمات القرضاوي وإقبال والسيد القطب وفوزي وعابدين وغزيّل وأبي الوفا وحمام والأميري والآخرين، ممن رادوا الطريق، ووضعوا الصُّوى،

وثبتوا المصابيح والمشاعل؛ لنسير دون أن نصطدم بجدار، أو نسقط في حفرة، أو نعلق في فخ!

جزاك الله ألف ألف خير عني وعن جيلي يا أبا مازن!

ترى هل أستطيع أن أرد بعض دينك يا رجل؟

أستبعد والله يا أنيس شبابي، وسمير كهولتي، وصديق شيبتي! أستبعد رغم تشرفي بتقديمك علنًا لأول مرة في برنامجي التلفزيوني (تنوير) ورغم نشري الحوارات الرضائية على الشبكة الإسلامية، ورغم المشاجرات والمناقرات والتهديدات بكوندوليسا، والعَوّ، ورمْسِزفْت للأخ الجميل أكرم رضا.. الذي طنش تهديداتي، ولم يأخذها على محمل البتاع، ثم لطيبة قلبه سمح لي، وحتى لا يتفطر قلبي من البكاء، بقراءة هذه المطبوعة الرائدة المتفردة، وتأملها، والتعليق على بعضها،؛ رغم تميزها بحسها الصحفي الحواري الحلو، وسبقِها الذي يدعو للغيرة، وفتحِها لنوافذ من العبير، والذكرى، والألوان البهيجة، على عالمنا الكئيب، الذي تُكدر صفوَ سمائه الغربانُ، والسحاب الأسود، وينخر في بنيانه السوس والعفن..

أيها الجميل أبا مازن.. سامحني على التقصير، وعن عجزي عن الشكر والعرفان، ولا أملك أغلى من دعوة صادقة، أن يجمعني الله تعالى بك في الدنيا على التوحيد والبركة، والنعيم المقيم في الفردوس الأعلى، مع محبيك إخوانًا على سرر متقابلين.. اللهم آمين يا رب العالمين.

أطال الله عمرك، وختم لي ولك بالصالحات، وجمعني بك في دار كرامته؛ من غير سابقة حساب ولا عقاب، مع من حدوتَ لهم، ومن أحبوك، ومع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسيدنا الحبيب المصطفى مسك الختام وطب القلوب، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

محبك المدين لك: عبد السلام البسيوني

سيلية الدوحة.. عصر الثلاثاء/ 16 من جمادى الأولى1427/ الموافق 12 من يونية

العلامة الشعراوي عاشق القرآن

صاحب أول تفسير شفوي في تاريخ الأمة

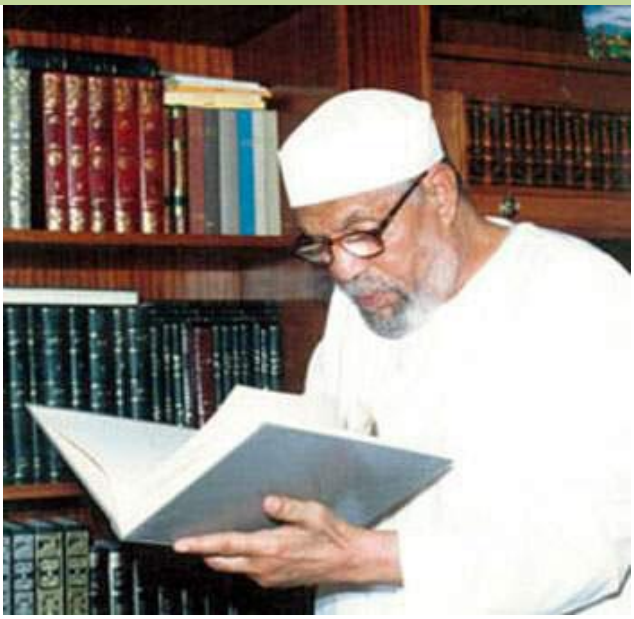

على بعد بضع مئات من الأمتار من جمهورية زفتى، بلدي، وتحت الكوبري الإنجليزي الفاصل بين منية غمر ومنية زفتى.. وسط خضرة "من العيار الثقيل" وماء عذب سلسبيل، قامت بضعة بيوت ريفية متواضعة لتشكل قرية اسمها دقادوس، شهدت مولد الشيخ العالم المفسر اللغوي الشاعر العلامة محمد متولي الشعراوي أوائل هذا القرن العشرين.. وكانت ميت غمر التي نشأ الشعراوي في حواشيها تضم حارة لليهود ذات قوة اقتصادية، وتضم جالية نصرانية لا بأس بها، لوجود بعض الكنائس القديمة بالمنطقة، فضلًا عن الازدهار التجاري والتعليمي في المدينة ذاتها..

وكانت مصر كلها آنذاك تموج بتيارات ثقافية وسياسة واجتماعية هائلة:

الشعب المصري يرزح تحت أعباء ثقال من التخلف والجهل، والإنجليز يحتلون كبرى بلاد الشرق وأعرقها، والمستشرقون: جب، وماسينيون، وإسرائيل ولفنسون، وكارل نللينو وغيرهم يستوطنونها ليزرعوا مناهج فكرية ستؤثر تأثيرات شديدة في الدراسات الدينية والاجتماعية، والسياسات التعليمية والإعلامية. وبعض (أبناء البلد) وافقوا الإنجليز وحطبوا في حبالهم، وخانوا عند معظم المصريين وطنهم مصر، جهارًا نهارًا، كإسماعيل صدقي باشا (بلدياتي) ومحمد سلطان باشا شعراوي رئيس مجلس الأعيان ووالد هدى

هانم شعراوي، ومصطفى فهمي باشا والد صفية زغلول، ولطفي السيد، وغيرهم، كما ظهر وطنيون أبطال كمحمد فريد ومصطفى كامل وغيرهما..

وأخذ نصارى الشام ويهودها ينزحون إلى عاصمة الثقافة ليؤسسوا المسرح، ويوطدوا للموسيقى، ثم للسينما، والصحافة، حيث ظلت المقتطف والأهرام وأخواتهما ترحب بالإنجليز وجودًا وفكرًا وحضارة، ويظهر أقطاب كبار في الفكر والأدب والسياسة بتعاركون، ويوالون، ويعادون، ويثورون ويستثيرون، ويملؤون الدنيا حركة وتأثيرًا: الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وطه حسين، والعقاد، والرافعي، والزيات، وأحمد أمين، وسلامة موسى، وغيرهم..

المخاض الحضاري:

كان الجو كله في حالة مخاض حضاري سلبًا وإيجابًا، وفيه يخرج الشعراوي فلاحًا وابن فلاح، وشاعرًا أزهريًّا "ثورجيًّا" وفدائيًّا يملأ الدنيا ضجيجًا وحركة، لا يرضى أن يكون في الساقة، بل يتقدم المظاهرات النارية.. يعيش من خلالها تفاعلات شكلت صوره مصر حتى تسعينيات القرن العشرين تقريبًا، ويستمر نهر حياته في الاندفاع، ليتمخض نشاطه وجهده أوائل السبعينيات بعد مَوَران وفاعلية داما قرابة ستة عقود لتبدأ إشراقاته العلنية في تفسير القرآن الكريم، من خلال برنامج نور على نور، في التليفزيون المصري، الذي انتشر من خلال حلقاته اسم الشعراوي انتشار النور البازغ، واستمر ارتفاعه بعد ذلك من خلال حلقاته في التفسير التي كان أثرها شديدًا؛ لدرجة أن إسرائيل طالبت بوقفها في فترة من الفترات، بسبب كلامه عن الآيات التي تتناول اليهود عقيدة وشريعة ومسلكًا.. وليفاجأ الناس بمنهج جديد في التعامل مع كتاب الله كأنه ما سُبق إليه فقد نجح هذا الفلاح النحيل الطويل في تقريب الجمل المنطقية العويصة، والمسائل النحوية الدقيقة، والمعاني الإشارية المحلقة، والنزول بها إلى العامة بلغة يفهمها كل أحد، حتى باتت أحاديثه قريبة جدًّا من الناس على المقاهي، وفي البيوت، والمساجد التي ينتقل بينها من أقصى مصر لأقصاها، وعَهْدنا بعلم التفسير ومعلميه أنه دقيق، لا يقدَّم إلا في قوالب منهجية صارمة،

ولغة مترفعة صعبة مع أن الأصل تيسير القرآن للتلاوة والفهم فقلب الشعراوي هذا كله ليوجه خطابه لـ 99% من الشعب المصري الذين لا يعرفون ما الرازي ولا الطبري ولا القاسمي، وليقرّب إليهم القرآن في صورة جذابة سهلة قريبة من العقول والقلوب، لا تفرق بين المنقول والمعقول، والإشاري والإعجازي، واللغوي والفقهي، والعصري والأثري.

ومنذ سمعت به أوائل السبعينيات 1974م لم يُعرف الشيخ إلا بأنه المفسر الأول للقرآن.. يعيش معه، وينفعل به وله.. وبدأ طلاب العلم، والتجار، وأصحاب التسجيلات يتلقفون أحاديث الشيخ، وينسخونها بكل الوسائل، حتى إنني شاهدت في تلفزيون قطر حين كنت رقيبًا فيه الحلقة رقم 1010 من تفسيره التليفزيوني، وإذا كان متوسط الحلقة 40 دقيقة، فإن ذلك يعني أنه سجل أربعين ألف دقيقة، أي 667 ساعة، أي ما يساوي 28 يومًا متصلة من التفسير كل جزء في يوم كامل تقريبًا وقد عرض عليه في بدايات تفسيره مليون دولار من أحد التليفزيونات فرفض إلا أن يكون عمله مجانيًّا، أسأل الله أن يكون في ميزانه يوم القيامة.

خصائص شعراوية:

لا يعنيني هنا أن أؤرخ للشيخ التأريخ النمطي، ولكن يعنيني أن أقف في هذا السرد العجول أمام نقاط:

= أولاها: ما أشرت إليه من أن الرجل سهّل التعامل مع كتّاب الله عز وجل حتى قرّبه للعامة، وهو صاحب أول تفسير شفوي متكامل للقرآن الكريم، في تاريخ أمة محمد صلى الله عليه وسلم.. وخلال 1433 سنة.. فلا أعلم حتى الآن بوجود تفسير شفوي يقترب من سبعمائة ساعة، وهذه خصيصة حباه الله بها، وسبقٌ دعوي أسأل الله أن يكون في ميزان حسناته، رغم أنه قد ظهر في السنين الأخيرة تفسير جديد وعظيم جدًّا للشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى، جدير أن ينتشر، ويَذيع، ويعرفه طلاب العلم خاصة.

= ثانيتها: بساطته الشديدة، وتواضعه، وابتعاده عن النفخة الكدابة التي يعيشها بعض المشايخ نجوم الفضائيات؛ فهو رغم سعة شهرته، وتمكن أمره، واحتفاء الملوك

والأمراء، والوجهاء، والأغنياء به، ورغم كونه من كبار أثرياء المسلمين، فهو لم يزل الرجل البسيط المتواضع، الذي يحيا على طريقة سراة الفلاحين، ولم يزل "يعزم" أصحابه على أكلة ذرة مشوية في مزرعته، ويعيش حياة طبيعية بسيطة تلحظها في المحيط الذي يسكن..

زرته سنة 90 في فندق فلسطين بالإسكندرية فوجدته أبسط ما تجد: الرجل الإلف المألوف، وقد جمع حوله أبناءه وأحفاده.. سجلت معه بعض اللقاءات لتليفزيون قطر، ثم قدمت له مظروفًا فيه مبلغ كبير من المال؛ مكافأة التسجيل، فنهرني: أنا آخد منكم فلوس؟ خبر الله عندي كثير جدًّا (كان في الشهر نفسه قد تبرع بمليون جنيه مصري للمعاهد الأزهرية) وأبى بحزم وشدة، ووبخني كأنما أهنته.

= ثالثتها: كل صاحب توجه يتعصب له، ويراه الأوحد الأمثل الأكمل الأجدر، وكثيرًا ما يقصي غيره، ويرميه في جهنم إن استطاع بلسان الحال أو المقال أو بهما معًا رأيت هذا في أكبر كبار علماء الدنيا الذين عرفتهم واقتربت منهم، لا أستثني أحدًا، إلا الشيخ (أمين) أو محمد متولي الشعراوي عليه رحمات الله، الذي لم يستغل وظائفه الكبيرة الكثيرة، ولا التلفزيونات العربية والعالمية للدعاية لفكر وانتماء يتعصب له، ولا يمل ذكر رموزه، ولم يزعج الناس بالحديث عن مآثره، وأمجاده، وبركات أوليائه في "الطريق" بل كان يدعو للإسلام وحده والقرآن وحده.. وهذه لم أجدها في أحد غيره من أصحاب اللافتات.. مع علمي أن الرجل ذو ميول صوفية واضحة لا ينكرها أحد، وهذه تحسب للشيخ رحمة الله عليه سعةَ أفق، وإنصافًا من النفس قل أن يفعله سواه.. فهل يفهم هذا بعض قادة المناصب العليا في الأزهر الشريف، الذي يتهددون ويتوعدون، ويؤكدون تصفية الحسابات، ويتلمظون لأكل اللحم الحرام المسموم!؟ وهل يفهم هذا بعض قادة التيارات الإسلامية التي لا ترى إلا نفسها، وهي على يقين لا يداخله شك أنها الأعلم بالله، والأفهم لدين الله، والأجدر بالجنة – كأن مفتاح الفردوس في جيوبهم – وأن غيرهم ما بين قاصر أو هالك!؟

= رابعتها: من الأشياء التي لم أجدها في غير الشيخ رغم مقابلتي معظم كبارَ كبارِ علماء الأمة أن له مهابة روحانية عجيبة، متعه الله بها، كأن حوله جوًّا مغناطيسيًّا يجعل له خصوصية روحية فريدة، لعل سببها بساطته، أو صفاء نفسه، أو هبة من الله تعالى.

ومن الجوانب المهمة فيه، التي يطلع عليها المقربون منه، جانب الدعابة وإطلاق النكتة عند اللزوم، ككل أبناء البلد المهذبين، يطلقها عفو الخاطر لتدل على سماحة النفس، ولطف المعشر، وتنفي الصورة الجهمة الغليظة التي كوّنها الناس حول المشايخ..

ودعاباته كثيرة بين أخِصّائه والمقربين منه، لكن قد يظهر طرف من خفة دمه، وميله للدعابة في بعض أشعاره، كهذه القصيدة التي كتبها في الفتاة العصرية، التي يغرر بها الماجنون، ويخطف بصرها بريق الإغراء والإطراء:

قصّرتِ أكمامًا.. وشلْتِ ذيولا	هلاّ رحمت إهابك المصقولا
أسئمتِ من برد الشتاء وسجنه	فطلبتِ تحريرَ المصيفِ عَجُولا؟!
وخطرت تحت غلالةٍ شفّافةٍ	في فتنة تَدَع الحليم جهولا
محبوكةٍ.. لصقت بجسمٍ مشرق	دفعته فورتُهُ، فبان فصولا
ألححتِ في عرض الجمال وغرك الـ	أغرارُ لمّا أسمعوك فضولا
شاهدتُ ضلّيلًا يطارد غادةً	فنهرته حَنقًا.. فقال خجولا:
أبغي الزواجَ بها.. فقلتُ مداعبًا:	هل كان بيتُ وليّها مقفولا؟
يلقاك كالحَمَل الوديع مضللًا	فإذا تمكّن منك أمسى غولا
ورنا فلم يرها.. فجُن وقال لي:	أبُعثتَ فينا يا غيورُ رسولا؟
لم يبقَ لي أربٌ.. فما يضطرني	حتى أكون مكلفًا مسؤولا!؟
قل للفتاة: الغرُّ هذا حبُّه	إن بات ملتاعًا.. وذاب ميولا

كان الشعراوي من الغُير على الأزهر، وله رغبة زائدة في أن يعيد له عافيته التي (هدّها) العسكر، وسدنة الاشتراكية ثم سدنة التغرب، حتى قال عنه العلامة القرضاوي حين نعاه:

لقد رحل الشيخ الشعراوي في وقت كانت الأمة أحوج ما تكون إليه؛ من أجل إنقاذ الأزهر مما يراد به من إضعاف التعليم الديني والجور عليه، وكان يقف على رأس جبهة معارضة قوية للحيلولة دون ذلك. وقد وعده المسؤولون في مصر أن يحققوا له طلبه في تطوير القسم العلمي ما شاؤوا أن يطوروه، والعناية بالقسم الأدبي الذي يخرج علماء أصول الدين، وهم خلاصة الأزهر الذي يعد لتخريج الأجيال المرجوة للأمة، والتي تتفقه بالدين، وتنذر قومها إذا رجعوا إليها. وإننا لنرجو أن يفي المسؤولون للشيخ بعد وفاته بما وعدوه في حياته.

لا شك أنه كان أحد مفسري القرآن الكبار، وليس كل من قرأ القرآن فهمه، ولا كل من فهم القرآن غاص في بحاره، وعثر على لآلئه وجواهره، ولا كل من وجد هذه الجواهر

استطاع أن يعبر عنها بعبارة بليغة، ولكن الشيخ الشعراوي كان من الذين أوتوا فهم القرآن، ورزقهم الله تعالى من المعرفة بأسراره وأعماقه ما لم يرزق غيره، فله فيه لطائف ولمحات وإشارات ووقفات ونظرات استطاع أن يؤثر بها في المجتمع من حوله، وقد رزق الله الشيخ الشعراوي القبول في نفوس الناس فاستطاع بأسلوبه المتميز أن يؤثر في الخاصة والعامة، في المثقفين والأميين، في العقول وفي القلوب، وهذه ميزة قلما يوفق إليها إلا القليلون الذين منحهم الله تعالى من فضله.

وكان لغويًّا كبيرة، اختير منذ عام 1987م عضوًا ب(مجمع الخالدين) أو مجمع اللغة العربية وجاء انضمامه بعد حصوله على أغلبية الأصوات (40 عضوًا).

وكان مما قاله بعد اختياره أمام أعضاء المجمع: ما أسعدني بهذا اللقاء، الذي فرحت به فرحًا على حلقات: فرحت به ترشيحًا لي، وفرحت به ترجيحًا لي، وفرحت به استقبالاً لي، لأنه تكريم نشأ عن إلحاق لا عن لحوق، والإلحاق استدعاء، أدعو الله بدعاء نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أستعيذك من كل عمل أردت به وجهك مخالطاً فيه غيرك. فحين رشحت من هذا المجمع آمنت بعد ذلك أننا في خير دائم، وأننا لن نخلو من الخير ما دام فينا كتاب الله، سألني البعض: هل قبلت الانضمام إلى مجمع الخالدين، وهل كتب الخلود لأحد؟ وكان ردي: إن الخلود نسبي، وهذا المجمع مكلف بالعربية، واللغة العربية للقرآن، فالمجمع للقرآن، وسيخلد المجمع بخلود القرآن.

من بركات الشيخ:

ولعل من بركات الشيخ، وصدق يقينه في الله تعالى هذا الموقف العجيب الذي كتبه الصديق الصحفي الكبير محمد صبرة، ورواه الشيخ بلسانه وطريقته:

كان الرئيس بومدين قد انتهى من بناء سد اسمه "سد غرين" وذهب لافتتاحه.. وعملوا احتفالًا.. وحضرنا هذا الاحتفال.. وقف الرئيس بومدين يخطب ويقول: الحمد لله.. عملنا سد غرين وهذا السد سيحجز كذا مترًا مكعبًا من المياه.. وبذلك يمكنكم أن تقوموا بري زراعاتكم؛ سواء أمطرت السماء أم لم تمطر! (وكان بومدين صديقًا لروسيا والمعسكر الاشتراكي (رغم حفظه القرآن في طفولته، ودراسته بالأزهر الشريف)!

ولم تعجبني عبارة "سواء أمطرت السماء أم لم تمطر" فقلت لعبد العزيز بوتفليقة وزير الخارجية الجزائري في ذلك الوقت، والرئيس الحالي للجزائر:

يا سي عبد العزيز: قل للرئيس بومدين إن هذا الكلام خطأ، ليس فقط من الناحية العقائدية التي تلغي المشيئة، بل حتى من الناحية العلمية، لأنه إذا لم تمطر المساء فما الذي سيحجزه هذا السد؟ السد يحجز مياهًا.. والمياه من المطر.. فإذا لم تمطر.. فما الذي سيحجزه هذا السد؟!

وذهب بوتفليقة وأبلغ الكلام للرئيس بومدين..

وشاء الله بعد أسابيع من كلام الرئيس بومدين أن يحصل جفاف! فقالوا نصلي صلاة الاستسقاء.. وقد استقبل الناس الدعوة لصلاة الاستسقاء، استقبالين: الناس المتدينون المؤمنون أصحاب الثقافة الدينية كانوا يؤمّلون فيها، وينظرون إليها باعتبارها من نُسُكِ الدين، وأن الله سبحانه وتعالى شرعها لوقت الفزع هذا.

أما الناس الآخرون أصحاب الثقافات غير الدينية، بل والمعادية للدين، فقد قالوا في استهزاء: اعملوا صلاة الاستسقاء، وشوفوا حتعمل إيه الصلاة بتاعتكم دي!

ولما أبلغونا أن الرئيس بومدين يريد أن يقيم صلاة الاستسقاء في الجامع الكبير بعد يومين.. قلت لزميلي الشيخ أبو الصفا: احنا واقعين في مطب، وربنا يخرجنا منه على خير! ولن يخرجنا من ذلك إلا أننا نفزع إلى الله من هذه اللحظة، وأن نصلي له سبحانه وتعالى، وأن نطلب منه ألا يفضح أهل دينه أمام هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينظرون إلى دين الله.

وجاء يوم صلاة الاستسقاء، وجلسنا في الجامع الكبير ومعنا وزير الأوقاف الجزائري ننتظر حضور الرئيس بومدين.

جاء الرئيس بومدين، ودخل المسجد. وقبل أن يهم بالجلوس قلت لوزير الأوقاف: "قل للرئيس بومدين ركعتين لتحية المسجد".. وأضفت: احنا جايين هنا نشحت من ربنا.. بنقول يا رب، وبنفزع إليه، فقل له يصلي ركعتين لله تحية للمسجد.

وذهب وزير الأوقاف للرئيس الجزائري وأبلغه الرسالة.. فوقف وصلي ركعتين، ثم صلينا صلاة الاستسقاء.. وقعدنا ساكتين.. وطالت العقدة.. وطال السكوت، فقلت لأحد المشايخ الذين يجلسون إلى جانبي:

احنا قاعدين كده ليه دلوقت؟ موش نقوموا نروّحوا؟

فقال لي: اسكت.. اسكت! فقلت له: فيه إيه؟

قال: أنت موش داري؟ الدنيا بتمطّر.. بِتِشْتِي..

فقلت: صحيح!؟ قال: أيوه، وراحوا علشان يجيبوا مظلة لكي يخرج بها الرئيس بومدين!

فقلت: الحمد لله.. الحمد لله.. ولن أخرج من هنا.. من المسجد الكبير إلا بعد صلاة المغرب.. الحمد لله ربنا سترها معنا..

من تأديبه نفسه:

ومما يروى عن تواضعه، وترويضه نفسه، وكسرها؛ لتبقى مخبتة قريبة خافضة الجناح، ما يحكيه ابنه الحاج عبد الرحيم أن الشيخ عليه رحمات الله كان في محاضرة في جامعة القاهرة. وفتح الله تعالى للشيخ أبوابًا عديدة من أبواب العلم؛ ما أدهش الحضور، وبهرهم بأسلوبه العذب، وأدلته القاطعة، فاندفعوا نحوه، والتفوا حول سيارته وكان الشيخ آنذاك يسكن بحي سيدنا الحسين رضي الله عنه، فلما وصل الشيخ إلى بيته غادره مسرعًا، فأخذ الحاج عبد الرحيم يبحث عنه ليفاجأ به ينظف دورات المياه بمسجد سيدنا

الحسي! فسأله: بتعمل إيه يا مولانا؟ فكان رده: أردت أن أربي نفسي وأهذبها! رحمه الله ورحم علماءنا وأستاذينا ووالدينا.. اللهم آمين.

مع العلامة الدكتور زغلول النجار

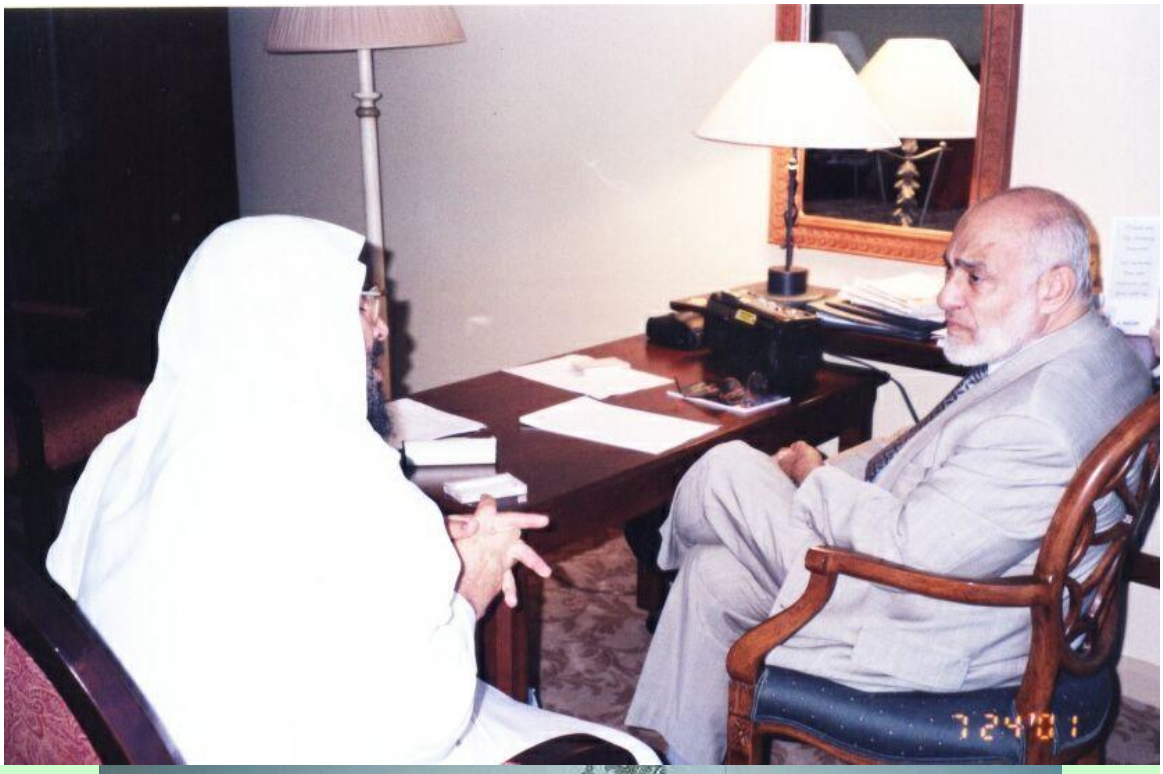

مع الأستاذين الجليلين محمد عمارة، وجمال عطية

الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود عليه رحمات الله

كما تضعف ذاكرة الأفراد إذا دب إليهم الشيب أو المرض فإن الأمم كثيرًا ما تضعف ذاكرتها إذا سقط بعض رموزها العلمية، ممن يحملون في عقولهم بعض علمها وفقهها ومنهج مسيرتها الفكرية والحضارية.

وقد سقط في هذا العام – 1417هـ – أربعة من علماء الأمة الكبار الذين كان لهم تأثيرهم في الفكر الإسلامي والجهاد الدعوي والعلمي والحضور الإجتماعي المؤثر؛ بدءًا بفضيلة الشيخ الغزالي، ثم بفضيلة شيخ الأزهر الشيخ جاد الحق، ثم بالشيخ بالمجاهد عبد الحميد كشك عليهم رحمات الله ورضوانه، ثم في أواخر رمضان المبارك اختار الله سبحانه فضيلة الشيخ العالم الجليل عبدالله بن زيد آل محمود رحمه الله، وأكرم الله نزله، لنحس معنى انتزاع العلم بقبض العلماء. وهو مما يعطي أشباه المتعلمين وأنصاف الفقهاء وأرباع المفكرين فرصة لأن يصولوا ويجولوا، بعد أن خلت الساحة، وأقفرت المرابع.

ولا شك أن أهل قطر والخليج يعرفون جيدًا من هو الشيخ "ابن محمود" عالمًا وفقيهًا وقاضيًا ومفكرًا جريئًا، يكتب ما يظن أن حاجة المسلمين تمس إليه، فكان إذا أحس بحاجة الناس إلى الاستنارة بحكم الشرع في قضية من القضايا سارع بالنظر فيها، وتأمل نصوصها، والاجتهاد في موادر نصوصها؛ حتى إذا وصل فيها إلى قناعة بادر بالجهر بما اقتنع، غير هياب، ولا وجل، ولا متردد!

ولا عجب ينبغي أن يخامرنا إذا استقرأنا عناوين مؤلفاته لنجدها تتراوح بين:

الرسائل الإصلاحية كما في: إدخال الإصلاح والتعديل على مدارس التعليم/ ونهاية المرآة الغربية/ ورسالة الخليج في منع الاختلاط/ والحكم الجامعة/ والمسكرات وعموم ضررها/ وانحراف الشباب عن الدين/ ومنع السفر البنات، وغيرها.

والرسائل الاقتصادية مثل: أحكام عقود التأمين/ وتحريم الربا بأنواعه/ ومحق التبايع بالحرام.

والرسائل التي تتناول العقيدة مثل: الأحكام الشرعية ومنافاتها للقوانين الوضعية/ وتثقيف الأذهان بعقيدة الإسلام والإيمان/ والإيمان بالأنبياء بجملتهم/ والقضاء والقدر/ ولا مهدي ينتظر/ والقول السديد/ والبراهين البيناتوغيرها.

ورسائل في السياسة الشرعية مثل: الأمراء والمسلطون/ والجندية في الإسلام/ والإشتراكية والماركسية/ والجهاد والمشروع/ والأحكام والشرعية ومنافاتها للقوانين الوضعية" وغيرها.

والرسائل الاجتهادية في النوازل العصرية مثل: جواز تحويل المقام/ واجتماع أهل الإسلام على عيد واحد/ وجواز الإحرام من جدة/ واللحوم المستوردة/ والطلاب المبتعثون للخارج/ وجواز تحديد الصداق/ وكراهية التزوج بالكتابيات/ وإبطال التلقيح الصناعي.. وموضوعات أخرى كثيرة ومنوعة تدل على ثراء فكر الشيخ وسعة أفقه وقيمته الفقهية والعلمية.

كان كما أخبرني فضيلة القاضي الشيخ عبد القادر العماري الذي عمل بجوار الشيخ ابن محمود سنين طوالاً، وعرفه عن قرب، واطلع على فقهه وعلمه وقدراته:

*** كريمًا يعطي من فضل الله عباد الله، ويكثر من ذلك مع الفقراء المحتاجين. ولم يقتصر كرمه على ذلك؛ فما أكثر ما أقام الولائم الثرة العامرة للعلماء والقضاة والوجهاء والضيفان.

*** كان حريصًا جدًّا على تربية أبنائه، حفيًّا بذلك، وكان كثيرا ما يدعو لهم في سجوده وصلاته، سائلا الله أن يبارك فيهم، ويحسن إليهم.

ولعل الله تعالى استجاب له رحمه الله؛ فقد خرج منهم ثلاثة وزراء، أحدهم رئيس المحاكم الشرعية برتبة وزير (الأكبر: الشيخ الدكتور عبد الرحمن)، والثاني وزير الدولة للشؤون الخارجية (الأستاذ أحمد) ووزير الأوقاف (الأستاذ فيصل) ورابع رئيس تحرير جريدة الشرق (أ. عبد اللطيف) وضابط كبير لا أذكر اسمه، والباقون من أهل التوفيق لكنني لا أعمد حصرهم..

الشيخ اللغوي:

ومن أهم الجوانب التي تميز بها الشيخ عليه رحمة الله الجانب اللغوي فقد كان ذواقه للشعر والأدب والمطلع على رسائله. ولن تخطئ عيناك كثرة استشهاده بالشعر العذب الجميل. وكانت له أبيات وعبارات يكثر من إيرادها في كلامه وكتاباته مثل قول الشاعر:

وتفاوت العلماء في أفهامهم في العلم فوق تفاوت الأبدان

وقول الشاعر:

مُنعت شيئا فأكثر الولوع به أحب شيء إلى الإنسان ما مُنعا

وقوله:

أراد الله تيسيرا وأنتم من التعسير عندكم ضروب

وقوله:

ألا قاتل الله الضرورة إنها تبيح للمضطر أدنى الضرار

وكثيرا ما كان يردد:

أبن قول الحق في وجه سامع ..... ودعه فنور الحق يسري ويشرقُ

سيؤنسه رشدًا.. وينسى نفاره ..... كما نسي التوثيق من هو مطلقُ

وكان يختم مقالاته بعض رسائله بقول الشاعر:

هذا الذي أدى إليه علمنا وبه ندين الله كل زمان

وقد عددت له 263 شاهدًا من الشعر في كتابة: الحكم الجامعة فقط.

ذاكرته:

كان رحمه الله عليه ذا ذاكرة سيالة، وحافظة نادرة، يستحضر النصوص والأدلة والأشعار وأقوال الأئمة بمنتهى اليسر.

ومن آيات الله تعالى فيه التي تدل عل التوفيق والبركة أنه لما أصابه ضعف الشيخوخة، وبدأ النسيان يقتحم ذاكرته القوية لتهزمه السنين، وتغلبه سنة الله تعالى في كبار السن: أنه في ذات مجلس أمسك أحد أبناء الشيخ بالمصحف ليسمع له ورده من القرآن الكريم، والشيخ يقرأ عليه، وهو في مرضه الذي ضعفت فيه ذاكرته جدًّا.

ودخل عدد من الناس إلى المجلس، وانقطعت القراءة، وطالت فترة الانقطاع، ثم انصرف الناس فأراد الشيخ استئناف التسميع، وحدد لابنه الموضع الذي وقف عنده!

وكان الشيخ حتى آخر أيامه يقرأ القرآن الكريم، ولا ينسى منه شيئًا مع أن القرآن الكريم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم سريع التفلت، لكن كان ذلك بفضل الله أولا ثم بحرص الشيخ على مراجعة محفوظه من كتب الله، من خلال ورد يومي استمر عليه طوال حياته. وفي أثناء فراغه في المحاكم الشرعية لم يكن يشغل نفسه بغير مراجعة القرآن الكريم.

تميزه الفقهي:

ولم يكن الشيخ جامدًا في الناحية الفقهية – مع تقديره للأئمة والعلماء.

وكان – مع حبه الشديد لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكثرة استشهاده باجتهاداته – كان يقول عنه: "ابن تيمية حبيبنا، وليس ربنا ولا نبينا".

وكان إذا جدت مسألة يجمع القضاة يستشيرهم، وفي مجلسة كان يثير المناقشات مستطلعًا آراء الحاضرين من أهل العلم والفقه. وكان إذا لم يجد تخريجًا مقنعًا للمسألة في المذاهب الأربعة، لجأ إلى آراء الأئمة خارج المذاهب، كابن تيمية وابن القيم فيما انفردا به، وعطاء وطاووس وغيرهم.

لقد كان الشيخ رحمه الله ينظر في القضايا نظرة القاضي المجتهد؛ لا نظرة المقيد بنصوص الفقهاء فكان عندما تعرض عليه القضية تنظر إليها نظرة شاملة تعنى بمنطوق النص ومفهومه، وتستوحي روحه ومقاصده، وهذه هي النظرة الصحيحة التي كان ينظر بها قضاة السلف.

وهي لا شك تختلف عن نظرة القانونيين الوضعيين الذي ينظرون نظرة ضيقة مقيدة بحرفية القانون، فلا يخرجون عن النصوص المدونة؛ ولو ترتب على ذلك ضرر بالغ بالمصلحة العامة، أو بالطرف المظلوم أو المجني عليه.

ملامحه الفقهية:

كان الشيخ رحمه الله تعالى يعتمد في نظرته التيسير ورفع الحرج.

وكان يهتم بملاحظة قوة الدليل الذي يستدل به وهو أو غيره مهما كان المخالف، وكان يخرج خارج نطاق المذاهب الأربعة الكبرى بحثًا عن الأدلة. وكانت مرجعياته كلها من فكر السلف رضي الله عنهم، وكان يبتعد قدرة جهده عن تفاصيل الخلافات الفرعية العقيدية والفلسفية. وكان دائم الرجوع للمراجع. وكثيرًا ما كان يأمر بإحضار كتاب ليقرأ عليه استيثاقًا من نص أو رأي أو دليل، فإذا اقتنع بالرأي صمم عليه.. وإذا سمع رأيًا أو قضاءً من غيره فأعجبه أيده..

رحمة الله عليه وعلى علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلينا معهم يا رحيم.

بلا رنتيسي بلا بتاع!

أعتقد أن من العبث المطلق الآن الكتابة عن واحد زي عبد العزيز الرنتيسي.. ونكتب عنه ليه؟ ونزعل ليه؟ ومن هو؟ فلا هو فنان ولا لعيب ولا مغنواتي!

ماذا يساوي هذا الرنتيسي، والدنيا كلها مش عايزاه ولا طايقاه ولا طايقه اللي زيه.! دا حتى اسمه رنتيسي! دا اسم دا؟

وزيادة على ذلك: هو اللي جابه لنفسه؟ مش كان عامل لي بطل، وبيقول احنا طلاب شهادة؟ وما كانش بيستخبا في أي بدروم؟ يستاهل واللا لأ؟!

لو كان يساوي في نفس هذه الأمة فلسًا لاهتمت له، ولغضبت له بحق، ولطالبت بثأره، ولما اكتفت بالتنديد على استحياء، وبالشجب من ورا قلبها، والاستنكار كدا وكدا!

ولولا أن الرهان ضرْب من المقامرة لتنازلت لك قارئي العزيز عن المية ريال اللي في جيبي إذا لم يُغتل – خلال شهور قليلة – طابور طويل من ماركة الرنتيسي من طالبي

الشهادة – ممن تعرف وممن لا تعرف – وسيواسينا الأعدقاء من الاتحاد الأوربي ويقولون: (لا لا، دا عيب خالص، وموش دبلوماسي، وغير مبرر!!) وستنطلق ترساناتنا من الأسلحة الهجومية المرعبة: ستصرخ الإذاعات، وتتسابق الفضائيات، وتتنافس الصحف في وصفهم بالشهداء، والأبطال، وتندد بالاغتيال الجبان، ووحشية القصف، ومخالفة الآنون الدولي، ثم ينصرف السادة المذيعون الأنيقون ليستريحوا من عناء الشجب، ويعود المعلقون الكبار إلى ديارهم غانمين، وتعود الأمة إلى سرير الذلة، ويبقى الحال على ما هو عليه، وكسبنا صلاة النبي!

وأبشركم – قبل أن أنسى أيضًا – أن الصهاينة عن قريب سيوجهون كم صاروخًا من الإف 16 على الأقصى اللي كان من مقدساتنا ذات يوم.. وصار (حتة جامع ممكن نبني غيره!!) ليجعلوا عاليه سافله.. ثم لنواجه ذلك القصف بسلاح الأمة الذي لا يقاوم.. والذي يجعل شارون يبلل فراشه كل ليلة من الرعب.. ويجعل نتنياهو يلف حوالين نفسه من الارتعاش: سلاح التنديدوف، والشجب 16، والاستنكارباتشي، وطبعًا الراجل الغلبان الوديع شارون مضطر أن يلجأ للقانون الدولي، ولعم الحاج كوفي، وأناكل مجلس الأمن، وبوش، وكيري، وبلير، وسيناتورات النظام العالمي ليحموه والمستوطنين الوديعين من سلاحنا النووي الذي لا يجعله ينام: صح يا رجال؟

والحق أننا أمة لها تاريخ في استخدام سلاح الاستنكار المرعب:

أذكر أنني – وأنا طالب قبل 175 سنة – كنت مشاركًا في أمسية شعرية للاحتفال بالسيد الممثل الشرعي والوحيد، في عيده الثوري الينايري بتاع كل سنة، وقام أحد الشعراء يغني:

الفجرُ أقبل في الدروب ولالا وكسا الربوعَ مهابةً وجلالا
قومٌ إذا طلبَ المعالي غيرُهم وأراد خطبتها لقالت لا لا

ولما سمعت ذلك ركبني ميت عفريت، وانفقعت مرارتي، وقمت أعترض على مسارات القصائد التي ألقيت، والشعراء الذين أنشدوا، مذكرًا كبار القوم الموجودين أنني

لم أشهد – منذ وعيت – في قضية فلسطين غير الغم والنكد، بل لم أجد إلا الهزائم والتنديد والشجب والخذلان لهم، ثم ألقيت قصيدتي في نعي المسجد الأقصى – حرسه الله ورد غربته – وكان مما قلته فيها:

أنعى لكمُ الأقصى والباقي ربي سبحانه/ أنعى لكمُ الأقصى وبأيديكم خِطتم أكفانَه/ أنعى لكمُ رمزًا سفحَتْ دمَهُ/ رشاشاتُ خطاباتكم الرنانة/ يا إخواني في التهليل وفي التنديدِ/ وفي تنميق الكلماتِ الطنّانة/ أنعى لكم المسجونَ المظلومَ/ وقد كنتم بتراخيكم سَجّانَه!!

ووجم الناس كأنني ضربت طوبة في الكلوب.. فباظت الليلة، وتفرق الجمع، وقام القوم يترضونني، ويقولون: مش قصدنا والله.. وسامحنا!

لكنني منذ هذا الوقت بدأت أحس بالأرتكاريا من حاجة اسمها الشجب والتنديد، والتغني بالأمجاد، وتعداد المآثر والمفاخر، وحنا للسيف للسيف، حنا للضيف للضيف، وتمنيت أن يخرج الأخ الحريف إمام مصطفى بتاع زجلتير ليكتب للأمة كم أغنية غزل في عيون التنديد والاستنكار ليسجل سبقنا الحضاري لكل الأمم والشعوب في استخدام سلاح الشجب الشامل..

يعني مثلا يكتب أغنية مطلعها: أنا باستنكر حبك يا مْسَخْمَط

أو: هجرني حبايبي وشجبوني/ أو: كفاية بأه تنديد وشقا! (بالمناسبة كان هناك سلاح آخر لم نحسن استعماله حتى الآن ما ادري ليش! ألا تذكر قارئي حين كتبوا على اللافتات في المظاهرات القذافية: طظ طظ في أمريكا؟ وهذا هو السلاح الأشد فتكًا، والذي ينبغي أن نسجله في سويسرا كبراءة اختراع لم تعرفه الأمم من قبلنا)!

ورغم خطورة هذا السلاح فإنني أتعجب جدًّا: لماذا يتجاهلنا الدكتور البرادعي وبتوع الطاقة الذرية، ولا يأتون للتفتيش عن سلاح الدمار الشامل هذا ومصادرته، ومعاقبتنا

على امتلاك ترسانات هائلة منه؟ إيه يا برادعي؟ معقول انت عميل انت كمان؟ وفين بتوع الجرين بيس والإف بي آي والموساد؟ معقول كلهم عُمي؟!

حتى الذين يبحثون عن فرصة للشماتة فينا وشرشحتنا في المحافل الدولية يطنشون؛ فلا أحد من المكتشفين المعادين للعرب والموالين للصهيونية يريد أن يسجل لنا هذا التميز والسبق، كمعلم حضاري ننفرد به؛ حتى عن القطط والحاجات الضالة الأخرى..

يعني لماذا لم تسارع مؤسسة جينيس لتسجل لنا هذا التفرد الذي لا ينافسنا عليه أحد؟ ألم ننفرد – حرسنا الله ورعانا – بإعداد أكبر طبق كبسة في العالم، وإنتاج أطول رباط جزمة في الكون، وأكبر عدد من صيغ الشجب والتنديدات عبر الزمان والمكان؟

يعني بتوع جينيس دول عميان واللا منحازين مثلًا؟

فلنفترض أنهم منحازون.. أوكيه.. إذن أين أكاديميو جائزة نوبل؟ لماذا لا ننال الجائزة عن طول بالنا وحلمنا وصبرنا، وعن كمّ الحبر الهائل الأسود الذي نسوّد به الصحف شجبًا واستنكارًا، وعن عدد الميكروفونات الزاعقة إذا اغتيل أحد.. وكم اغتيل في بلادنا من رموز؟!!

فاكرين أبو جهاد، وإبراهيم المقادمة، والقواسمي، ويحيى عياش، ومحمود أبو هنود، وجمال منصور، وفتحي الشقاقي؟ وقبلهم يحيى المشد وسعيد بدير! فاكرينهم؟

لقد قتل كل واحد منهم مرتين: مرة لأنه إرهابي بمباركة البيت الأبيض، ومرة بشجبنا وتنديدنا، ثم بنسيان الموضوع، وكأنه مش بتاعنا!

فاكرين محاولات تصفية خالد مشعل، والزهار، وصلاح شحادة، وإسماعيل أبو شنب، والرنتيسي الله يرحمهما؟

مش دا يشهد إننا نمبَرْ وَن في الشجب؟ يبقى نستاهل واللا لأ؟ مش من حقنا ناخد نوبل على تميزنا وتفردنا عن الأمم كافة؟ مش دا ظلم برضه لما يتجاهلوا إنجازاتنا؟

نحن أساتذة في الشجب والتنديد.. لا أشك في ذلك لحظة، وفينا ميزة أخرى تظهر عند اللزوم، وتتمثل في تفانينا في تقدير راقصاتنا ولعيبتنا، وأبرز من عندنا من النجوم العوالي، والدرر الغالي، ونتفنن في إكبارهم وإعلاء منزلتهم.. وعندي الأدلة على ذلك!

- ألا تذكرون ماذا فعلنا لما مات العندليب الأسمر الله يرحمه؟
- ألم تر إلينا والأمة كلها في رهان لتفوز الأردن على سوريا بالضربة القاضية في السوبر ستار؟ ولتفوز مصر على الكويت في ستار أكاديمي؟
- ألم تشهد ما أبدينا من الحزن الشديد على موت المرحومة طيبة الذكر الشهيدة ذكرى، التي لم يكن يظهر منها إلا ثلثاها، ثم ماتت يا والداه في عز شبابها دون أن تستطيع أن تكمل رسالتها السامية على طريق محمد صلى الله عليه وسلم؟ (هي اللي قالت كدا مش أنا!).
- ألم تشهد صبرنا وجنين تدك على مدار الساعة واحنا مطولين بالنا، وضابطين أعصابنا علشان ما نتصرفش غلط؛ لأننا بنموت في حاجة اسمها السلام، وعلشان الدبلوماسية تاخد مجراها؟
- ألم تر إلينا واحنا زعلانين خالص لما رسمت يهودية النبي صلى الله عليه وسلم النبي على هيئة خنزير؟ شفت كيف غضبنا وزعلنا ونددنا وخوّفنا طوب الأرض؟

الحقيقة أن الدكتور الرنتيسي كان لا بد أن يرحل؛ لأن أمثاله لا مجال لهم بيننا.. ارحل يا عمي إلى ربك، وتمتع في روضات الجنات مع الشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا! عش هناك (وهيّص) في روح وريحان وجنة نعيم، بين رضا الله تعالى، والحور العين، وابتعد عن وجوهنا التي لم يبق فيها قطرة دم، وجوانحنا التي لم تبق فيها ذرة نخوة، وإرادتنا التي لم يبق فيها ريحة همة، ومستقبلنا الأشد سوادًا من هباب الفرن!

دع الدنيا لنا يا سيدي الرنتيسي، وخلينا نستمتع بالوحل والعطن، ونرتشف من كؤوس الهوان، ونهنأ بسيمفونيات الشجب والتنديد والمعرّة.. وخلينا نطلق الأغاني والأهازيج، ونصرخ مع صوت فهد بلان الحياني: حنا أسود البوادي.. صح يا رجال؟!

من اليمين: د. صلاح سلطان، فالأستاذ سعود أبو محفوظ، ثم القرضاوي، ثم د. حارث الضاري، فالشيخ وجدي غنيم، فالبسيوني، فالشيخ حازم أبو إسماعيل.. في مهرجان مناصرة الأقصى

مع المؤرخ العلامة د. جمال عبد الهادي

محمد المختار الشنقيطي: رجل من القرون الفاضلة عاش بيننا

افترض معي إمكان انبعاث عالم من القرن الثاني أو الثالث، ليجد نفسه معنا في القرن العشرين.. وحاول أن تتخيل كيف يكون حاله، من حيث علمه الشمولي الأثري الرباني، ومن حيث تعشقه الفائق للسنة والاتباع، ومن حيث الصراحة التي لا تعرف الالتواء، والصدق الذي لا يتجمل بالمعاريض، ويكره بتطرف الكذب والمداجاة، ومن حيث اندهاشه مما يدور حوله، وعدم متابعته لإيقاعه السريع، وانزواءه منه! تخيله في بساطته من حيث هيئته: ثوبه الذي قلّما يكون مكويًّا كما ينبغي، ونعله شديد البساطة، ورائحته الطيبة دائمًا، ومشيته الهينة الرزينة.

تخيله ومعلوماته عن القرن العشرين الذي انبعث فيه تساوي صفرًا.. وأنه بذلك سيكون كأهل الكهف، الذين لم ينتبهوا لمّا بعثهم الله من مرقدهم إلى أنهم نهضوا بعد رقاد في بيئة لا تعرف أمثالهم، ولا تقدر فعالهم، وأنهم يتعاملون بنقود نادرة الوجود، صارت أثرًا من الآثار، وبطل التعامل بها ربما من ثلاثة قرون، وأن البضاعة غير البضاعة، والنقود غير النقود، والناس غير الناس.

تخيل أخلاقه من جهة عفة اللسان، والحرص في العبارة، والانشغال بالأهم، والبعد عن صغائر الأمور وسفسافها.

تخيل نهاره الذي يقضيه معلمًا أو متعلمًا منذ الفجر حتى منتصف الليل، ويكون ما بين ذلك قائمًا.

تخيله في غيرته على الإسلام، واحتراق أعصابه؛ لأدنى انتهاك لسنة من السنن..

تخيله في حرصه على نفع طلابه بعلمه الجم، أو بنصائحه الأبوية الصادقة.

تخيل صعوبة واقعه حين يتعامل مع أبناء القرن العشرين المشاغبين غير الجادين، وغير المؤسسين علميًا وخلقيًّا وسلوكيًّا ودعويًّا.

حرك خيالك وذاكرتك، وقدّر معي كم يعاني مثل هذا الرجل المبارك، في أوساط لا ترحّب كثيرًا بالبركة، ولا تريدها، ولا ترجوها، ولا تدير وجوهها إلا نحو أصالة وعمرو دياب والسح الدح إمبو!

هذا هو الأستاذ الشيخ محمد المختار الشنقيطي عليه رحمات الله ورضوانه العالم الوليّ الزاهد الفذ؛ أحسبه والله حسيبه ولا أزكّي على الله تعالى أحدًا..

عالم بمائة عالم: عفة لسان، وتركًا لما لا يعني، وذكرًا دائمًا، وعلمًا دافقًا، ونصحًا منيرًا..

رجل لم تر عيني مثله؛ قبله رحمه الله ولا بعده..

اختار طائعًا أن يكون جوهرة خبيئة مكنونة في قاع التجاهل وسوء التقدير، في أمة تحتفل بعبسلام النابلسي، وكشكش بك، ونابليون ابن بونابرته!

تجاهلوه فتجاهلهم مثل كثير من الخيرين في هذه الأمة، الذين أداروا ظهورهم لمغريات كثيرة، اعتقدوا وحق لهم أن ما عندهم أجلّ وأعظم من أن يبتذلوه من أجلها.

يقول لي الفتى: رأيته قبل أربع وثلاثين سنة، وجلست إليه تلميذًا في الجامعة الإسلامية ثلاث سنين، فنفعني الله به ما لم ينفعني بغيره، على الإطلاق، رغم أنني قبله وبعده رأيت من العلماء كثيرين، لكن لم يبلغ أحدهم شأوه..

فبفضل الله تعالى، ثم بفضل علمه، ونصحه، وتفرّده العجيب، تحوّل القلب مائة وثمانين درجة إلى جهة الالتزام وحب العلم الشرعي، وقت كانت شرّة الشباب تتجه إلى حب الدنيا، وطلب "القشرة الفالصو" التي تلمع كالذهب وليس تحتها إلا الخَبَثُ، والحجارة التافهة التي لا تساوي في سوق الخير نقيرًا.

رأى الفتى "علماء ودعاة" يحرصون بهمة عالية على صرف الإنسان عن الدين، وتقبيح العلم الشرعي إليه: بلسان حالهم، بسلوكهم، بصدهم طلابهم عن الخير! لا تعجب قارئي الكريم فهذا والله موجود، اكتشفت بعدُ أنه كان منهم بسبب قلة العلم، لستر الضحالة العقلية، "والهيافة العلمية" التي تغطيها سلاطة اللسان، وطول رِجْل البنطلون، وقصر الهمة العلمية.

يريد الله تعالى أن ينتزع الفتى مكرهًا من هذا الجو، إلى رحاب طيبة المباركة، وكانت في هذا الوقت بكرًا.. لم تتبرج كالآن بالمباني الشاهقة، والجسور الممتدة، والشوارع الفسيحة، وكانت تتمتع بروحانية عجيبة تأسر القلب والروح. انتقل إلى حيث الشنقيطي: العلم الدقيق، والخلق الرفيع، والحرص على أن يسقي أبناءه كل ما يطيق، وأكثر مما يطيقون!

لماذا أكثر بكتاباتي وكلامي من الإلحاح على فكرة الجلوس إلى العلماء والأخذ عنهم؟

إن طالب العلم يتعلم من أحوال الشيخ كلها، من سمته وهديه، وصمته ونطقه، من غضبه ورضاه، من تدفقه وتأنيه، من نظره وإغضائه..

وهذا ما نفع الله به الفتى الجموح، طالب فائق دراسيًّا، موهوب بعشر مواهب، ينفخ فيه من حوله ليصيِّروه كالبالون، ثم ينفثئ فجأة أمام الجبل الشامخ، ويتأكد بشيء من إنصاف ابتلاه الله به أنه من قبل لم يسمع علمًا، ولم يقابل أحدًا، ولم يستفد معشار ما ينبغي لمثله أن يستفيد.

ويهديه الله تعالى رغم تمرده، ورغم نفخ الشيطان في سَحْره للجلوس في استكانة بالغة، وصمت عميق، وعطش شديد، ليغترف من البحر، فتتحول نفسه، وتنقلب رؤيته، وتصاغ أولوياته واهتماماته بشكل معاكس تمامًا لما كان عليه نُشِّئ..

إن الله قد يسوق عبده للخير رغمًا عنه منةً منه وتفضلاً... ويدوم جلوس الفتى الصامت أمام الشيخ الذي لا يكف عن التدفق والانهمار؛ غيثًا يحيي الله به القلب، ولا ينازع الشيخَ شيخ آخر في قلبه واهتمامه، ولا يبالي بالأسماء الكثيرة المتاحة حوله آنذاك، والتي نَسختها من قلبه شمسُ الشيخ الساطعة، التي تأفل دونها كل الكواكب.

يقول عنه الشيخ الشاعر الأديب محمد المجذوب في كتابه "علماء ومفكرون

عرفته": (ثقافته موسوعية، حتى ليخيل إليك وهو يحضّر تقريراته منها، أنها تخصصه الذي لا يكاد يعدوه، شأنه في ذلك شأن الأسلاف من كبار العلماء، الذين كانوا يرون في العلوم الإسلامية وحدة عضوية، لا يغني منها واحد عن غيره، وأهم محصوله من هذه العلوم هو التفسير، والسنة، ثم الأنساب والرجال، ثم التاريخ خاصة تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ثم اللغة وعلومها وآدابها، وهو أحد القلائل الذين كنت أعجب بذخيرتهم من محفوظات الشعر العربي، الذي كان مولعًا به وبقرضه).

في إنصات وتركيز شديدين يجلس الفتى في مواجهة الشيخ (ليشرب منه) ويسهو مرة فيعتمد بيديه على الطاولة، ويمس بمرفقيه "فتح القدير" فيواجهه الشيخ بعاصفة من الغضب:

ألا تقدّرون العلم؟! ألا تحترمون الكتاب الإسلامي؟! أتعتمد بيديك على فتح القدير.. فتح القدير؟ ما هذا؟! انتبه لنفسك.

ذات مرة غضب الشيخ، وسبق لسانه بكلمة لا يريدها لطالب من طلابه، فغرق في العرق، وتلجلج، وامتصها سريعًا بذكاء شديد، وأخذ كالمذنب يعتذر لتلميذه المرة بعد المرة، كأنما أتى بأكبر الكبائر وأعظم الموبقات، وكان عهد الفتى بأساتذة في كلية الشريعة العريقة متألهين، منتفخين، سبّابين من طراز عال، دخل أحدهم المدرج مرة ليسب أكثر من ألف طالب، ويصفهم بأنهم حمير، لأن أحدهم أراد الدخول بعد سيادته على جهله المنفوخ أو انتفاخه الجاهل والشنقيطي يذوب خجلاً، ويسيل عرقًا، لسبق لسانه بكلمة لم يردها!

حج الفتى معه ومع عدد من علماء الجامعة عام 98هـ، ومنهم الشيخ ابن باز، وأبي بكر الجزائري، وحماد الأنصاري، وآخرون، فوجده فذًّا في كل شيء؛ على بساطته، وانزوائه، وانشغاله بنفسه.

كان ينكر ذاته إنكارًا عجيبًا، ويرى نفسه أقل الناس علمًا، وأهونهم قدرًا.. وكثيرًا ما كان يكرر على مسامع الفتى وأصحابه: "صار أمثالنا علماء لما مات العلماء! رغم أن دروسه في الحرم النبوي كانت عقب الصلوات الخمس كلها، خمسة دروس يومية في علوم مختلفة، فضلاً عن محاضراته الصباحية في الجامعة؛ لذا فلم يترك مؤلفات غير كتابين اثنين: شرح سنن النسائي، ورسالة أخرى صغيرة اسمها: الجواب الواضح المبين في حكم التضحية عن الغير من الأحياء والأموات. أما ما شرحه شفويًّا فقد انتهى الشيخ من تفسير القرآن الكريم في الحرم النبوي أكثر من 10 مرات، كما انتهى من شرح البخاري ومسلم مرات، وشرح سنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن أبي داود، والموطأ، ومات قبل أن يتم شرح ابن ماجه؛ بجانب تدريسه فتح القدير للإمام الشوكاني في الجامعة.

كان أمة، رحمه الله كفاء ما بذل وعلم ودرّس وربى.

كان ينظر للتربية التقليدية والشهادات – وهو ربيب المحاظر (المحاضر، جمع محضرة، وهي المدرسة التقليدية التي تعلم علوم الشريعة المختلفة متونًا وكتبًا وتقاليد) – بكثير من عدم المبالاة، بسبب ما صادف من أصحاب ألقاب طنانة لا يحفظ أحدهم مائة بيت من الشعر، فضلاً عن كتاب الله، فضلاً عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يسميهم: (حَمَلة شهادات الزور المكتوبة بماء الذهب) ولعله محق في الغالب الأعم،

ولعله هو رحمه الله السبب في روح (السَّرْبَعَة) والجموح الذي يندفع به الفتى الذي لم يكن أنبه تلاميذ الشيخ شأنًا.. ولم يكن الشيخ يعيره التفاتًا، لم يحدثه طيلة ثلاث سنين، ثم في آخر اللقاءات قال له كلمة واحدة – وبشكل يبدو عرضيًّا – ألهبت في وجدان ذلكم الفتى حمى العمل والعمل والعمل..

وكأن الفتى ما علم كلمة عابرة تبدو بهذا الأثر، وتعطي هذا الزخم، وتشحن القلب بشحنة هو دائمًا بها في سباق مع نفسه وقدراته وراحة بدنه، لعشرين سنة، وربما ثلاثين، وربما ما تبقى في العمر من السنين!

كان فطريًّا بدويًّا في صراحته، ويكرر دائمًا: "إن الله تعالى قد ابتلاني بالصراحة، فلا أعرف المجاملة"..

عن شيء من أدائه العلمي، وطريقته في التهيئة العلمية لأبنائه، وعن أثره في ضبط مسيرتهم يقول ابنه الشيخ محمد الداعية المعروف، (محمد بن محمد المختار الشنقيطي) وكان زميلي في الجامعة أربع سنين، نفع الله به:

..... أسأل الله أن يجزي الوالد عني كل خير، وأحمد الله تبارك وتعالى أن هيأه لي وسخره لي، وما كان العبد ليصيب ذلك لولا فضل الله. كان رحمه الله حريصًا إلى أخذنا إلى مجالسه في الحرم، وحضور درسه في البيت، وكان يأخذني منذ الصغر معه لدرسه بالحرم، حتى إنني ربما أنام من صغري في حجره في الدرس؛ لأنه كان يدرّس بعد الفروض

كلها، إلا العصر أحيانًا يكون عنده درس في البيت، فلما بلغت الخامسة عشرة أمرني أن أجلس بين يديه، وأن أقرأ عليه دروس الحرم، فابتدأت معه في سنن الترمذي، وتعرفون بداية مثلي في جمع من الناس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم! ولكنه أراد أن يشحذ همتي، وكان يحسن الظن فيّ أسأل الله العظيم إلا يخيب ظنه فيّ فابتدأت بقراءة سنن الترمذي، ثم الموطأ، وختمته عليه، ثم سنن ابن ماجه، وتوفي ولم أكمله عليه، وأسأل الله أن يكتب له أجر إكماله. هذا بالنسبة للدرس الأول بعد المغرب. ثم يأتي طالب ويقرأ عليه درسًا في اللغة، ثم طالب يقرأ عليه درسًا في الفقه، وكنت أحضر معه.

وبعد العشاء كنت أقرأ عليه صحيح مسلم، حتى ختمه، وابتدأ بالختمة الثانية، وتوفي في آخرها، ومن غريب ما يذكر أنه توفي عند باب فضل الموت والدفن في المدينة!

وأذكر أنه في آخر هذا الدرس دعا، ولم تكن عادته الدعاء في هذا الموضع، وقد قرأت عليه هذا الحديث من البخاري ومسلم قرابة أربعة مرات، ما أذكر أنه دعا إلا في آخر مجلس من حياته، وكان صحيحًا ليس به بأس، فبعد أنه ذكر الفضل في الموت في المدينة وأقوال الصحابة، قال: وأسأل الله ألا يحرمنا ذلك، فأمن الحاضرون، وكان تأمينهم لافتًا للنظر كتأمين المصلين في الحرم في الصلاة من كثرتهم.

ثم في الفجر كان يقرأ حتى تطلع الشمس..

وأما بعد صلاة الظهر فكنت أقرأ عليه صحيح البخاري حتى ختمته، ثم ابتدأتُ قراءة ثانية، وتوفي ولم أكملها عليه.

وأما بالنسبة لقراءتي الخاصة عليه، فقرأت عليه في الفقه متن الرسالة حتى أكملته، وشيئًا كثيرًا من مسائل كتاب بداية المجتهد، وكنت أحررها، وكان رحمه الله واسع الباع في علم الخلاف، إلا أنه من ورعه كان لا يرجح.

وأما بالنسبة لعلم الأصول فقرأت عليه، لكن كان رحمه الله لا يحب كثرة الجدل والمنطق التي يقوم علم الأصول، فكان إذا دخلت معه في المنطق يقول: قم، يطردني؛ لأنه كان يرى تحريمه وهو قول لبعض العلماء. وإن كان اختيار بعض المحققين ومنهم شيخ الإسلام التفصيل كما أشار إلى ذلك الناظم بقوله:

وابن الصلاح والنّواوي حَرّمَا **** وقال قومٌ ينبغي أن يُعْلَمَا

والقولة المشهورة الصحيحةْ **** جوازه لكامل القريحةْ

ممارسِ السنة والكتابِ **** ليهتدي بها إلى الصوابِ

المقصود أن أُدلّل على أني ما استوعبت معه جانب الأصول من ناحية النطق والخلافات، وأتممته على بعض المشايخ الذين كان لهم باع فيه، وأسأل أن يكون فيها تعويض لما لم أقرأه على الوالد.

أما المصطلح فقرأت عليه بعض المنظومات، منها البيقونية والطلعة، وقرأت عليه تدريب الراوي.

وأما عن السيرة فقد كان له درس في رمضان فيه البداية والنهاية، وكان في التاريخ شيء عجيب، حتى إن الشيخ محمد العثيمين يقول: كان والدك يحفظ البداية والنهاية. وكان له باع في علم الأنساب، والحقيقة أنني قصّرت فيه ولم آخذه عنه، ويعلم الله ما كان يمنعني منه إلا خشية أن الإنسان يأتي ويقول: هذه القبيلة تنتمي إلى كذا، فيتحمل أوزار

أنساب أمم هو في عافية منه، لكن الحمد الله، في الفقه والحديث والعلوم التي أخذتها عليه غناء عن غيرها.

ومن عجائبِ ما يذكرُ الشيخ محمد عن والدهِ شيخي محمد بن المختار ما حدّث به أحد تلاميذ الابن نقلاً عن الإمامُ: محمّدٍ العُثيمين– برّدَ الله مضجعهُ – أنَّ والدهُ كانَ يحفظُ كتابَ "البدايةِ والنهايةِ" للإمامِ ابنِ كثيرٍ رحمهُ اللهُ كاملاً، وقد كرّرَ شيخُنا نقلَ هذا الكلام غيرَ مرّةً، وأخبرني الشيخُ أنَّ والدهُ كانَ من كِبارِ الضابطينِ لعلمِ التأريخِ والنّسبِ، وذكرَ شيئاً من ذلكَ أيضاً العلاّمةُ: بكرُ بنُ عبدِ اللهِ أبو زيدٍ رحمهُ اللهُ رحمة واسعة، في كتابهِ "طبقاتُ النسّابينَ" وغيرهُ.

ومن فضائلهِ جلَدهُ وصبرهُ، فقد أوتيَ صبرًا عظيمًا على ما ابتلاهُ اللهُ بهِ من الأمراضِ وتقلّبِ الأحوالِ ، وبقدرِ ما كانَ يعظمُ بهِ البلاءُ ويشتدُّ عليهِ الكربُ، كانَ يزدادُ في الثباتِ صبرًا واحتسابًا، من ذلكَ أنّهُ كانَ يكرهُ البنج والمخدّرَ في الجراحةِ، فحصلَ عليهِ حادثٌ اقتضى جراحةً فامتنعَ من قبولِ البنج، وأجريتْ لهُ العمليّة، وخيطتْ جلدةُ رأسهُ وهو في كاملِ وعيهِ، ولم يزدْ على أنْ كانَ يذكرُ اللهَ تعالى، ولهُ في هذا أخبارٌ عجيبةٌ.. رحم الله الولي الصالح محمد المختار الشنقيطي – أحسبه والله حسيبه الذي مات قبل ستة وعشرين عامًا، في 29 من جمادى الأولى 1405" عن ثمانٍ وستين سنة، وأسأله عز وجل أن يجمعني به في مستقر رحمته، وأن يجزيه عني خاصة خير ما يجزي به عبدًا عالمًا صالحًا.. اللهم آمين.

رائد صلاح.. المرابط الزاهد

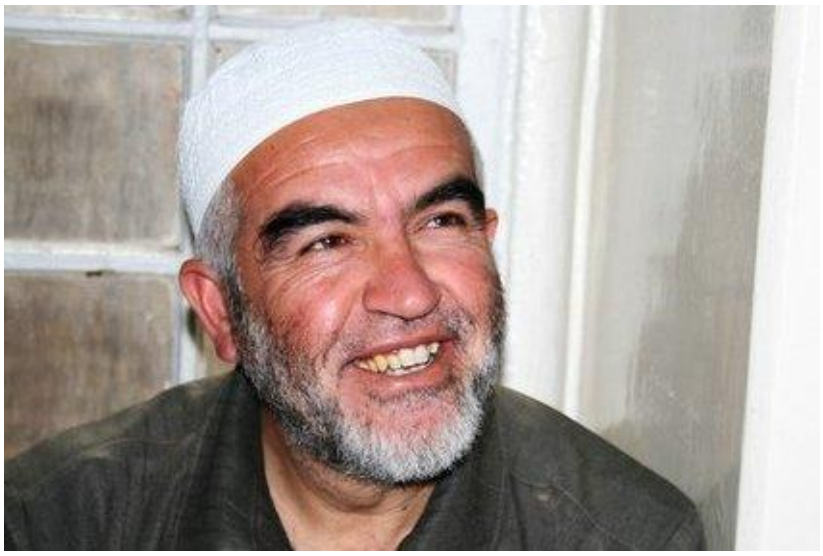

يمكن أن أقول إنه شهيد حي.. أو أنموذج للمرابط المجاهد، الذي لا يرضى بأقل من الشهادة أو الوفاء بما عاهد الله عليه؛ أحسبه والله حسيبه، ولا أزكي على الله تعالى أحدًا.

زارنا في فنار، وأهدانا زجاجة زيت من زيتون القدس، كما أهدانا من دعواته وعلمه ولطف معشره. رأيته وكلمته، وقدمته للجمهور في مناسبتين أو ثلاث بالدوحة، فلمست كبده المحترقة على الأقصى والقدس، وشممت رائحة احتراقها في كلماته، وفي قسماته، وفي ردود فعله!

رأيت والله صدقًا، ودينًا، وعفة، وقضية نذر لها نفسه؛ فإما توفيقًا ونجحًا، وإما شهادة في سبيل الله، بصدر عارٍ، وعجلة إلى الله رب العالمين.

جالست قبله فلسطينيين من نوعية رديئة، يتكلمون ويتكلمون، وواقعهم معاكس تمامًا، بل إن واقعهم يقول إنهم كذبة من طراز رفيع، وممثلون من جنس حقير وضيع، وكثيرٌ ما هم.

قبل أكثر من ثلاثين سنة وعلى التحديد في الرابع من يناير عام 1978 جالست الرجل الرابع أو الخامس آنئذٍ في منظمة التحرير الفلسطينية، بمناسبة مرور 14 سنة على قيام فتح، في غرفة مغلقة، في بلد بترولي كبير، ومعنا رب العزة تبارك وتعالى، واثنان آخران، من نفس الشاكلة، فقال الرجل القائد الكبير بانتهازية فاضحة: يقولوا لنا جهاد، يقولوا لنا نضال.. يسموه زي ما هم عايزين، المهم يدفعوا!

يدفعوا؟ وفزعت، وانشرخت، وخرجت حانقًا على هذه النوعية التعسة من الثوار الأشاوس؛ لأجبههم في الاحتفال، وأهتف حين جاء دوري بين الشعراء، ناعيًا المسجد الأقصى، الذي يخونه الأبوَاتُ الصناديد:

أنعي لكمُ الأقصى والباقي ربي سبحانه/ أنعي لكم الأقصى وبأيديكم خِطتم أكفانه/ أنعي لكمُ رمزًا سفحت دمَه رشاشاتُ خطاباتكم الرنانة/ يا إخواني في التهليل وفي التطبيل وفي تنميق الكلمات الطنانة/ أنعي لكمُ المسجون المظلومً وقد كنتم بتراخيكم سجانَهْ!

ولا داعي لأن أقول ما حصل بعد ذلك، فقد انغلق قلبي، وأظلمت نفسي تجاه أولئكم وما يمثلونه! حتى بل الله ريقي برجال حماس وأسود الانتفاضة، وصادقت من فلسطين أشرافًا أحرارًا ذوي مروءة وطهارة، وغيرة صادقة، وعاطفة موارة!

لكنني بالمقابل ذلك الجشع التعيس والتظاهر الخسيس رأيت الشيخ رائد صلاح حماه الله ومن كيد المجرمين عافاه وقد أوتي مبلغًا مقابل محاضرة، فانفعل وقال: آخذ مقابلاً لكلامي عن الأقصى وبيت المقدس؟ هذه فريضة علي، وأودع المبلغ أمامي صندوقًا للتبرعات، دون أن يراه أحد، وراح!

موقفان عجيبان، يعكسان ويقولان ويدللان!

اتهم بتبييض الأموال لصالح حماس، وحوكم بموالاته لمؤسسة (إرهابية) معادية لإسرائيل في الداخل والخارج، وتعرض قديمًا للاغتيال، أُطلق على رأسه الرصاص وجرح خلال مواجهات انتفاضة الأقصى، في إطار تصفية القادة الإسلاميين في أرض الرباط، لكن الله عافاه. ولأنه هدف مهم للمجرمين، فقد تعرض الخميس القريب هذا 2010/5/27 للاغتيال ضمن قافلة الحرية بيد صهيوني إرهابي مجرم، من وحدة مجرمي الكوماندوز البحري الإسرائيلي حاول اغتياله، وهو في مواجهته الجسور ضمن أعضاء القافلة البحرية الدولية "أسطول الحرية" لكسر حصار غزة الأبية، لكن الله أعمى بصر القرصان الدموي عن الشيخ رائد، فرمى شخصًا آخر يشبهه كثيرًا، أراد الله تعالى له الشهادة، عليه رحمات الله ورضوانه.

وقد نقلت الإذاعة الإسرائيلية عن الشيخ صلاح في إطار تعليقه على محاولة اغتياله هذه قوله إن كل القرائن تؤكد أن الجندي ظن أن هذا الشخص هو الشيخ رائد صلاح، ولذلك "أطلق الرصاص عن سابق إصرار؛ بهدف أن يقتلني أنا ونال هذا الرجل الشهادة في سبيل الله". وكانت إسرائيل قد أعلنت حالة التأهب ونشرت قواتها في الداخل وخصوصا في مدينته أم الفحم، تخوفًا من الاحتجاجات على اغتياله، ليتبين فيما بعد أن شبيهه هو الذي اغتيل. وقد نسبت المحكمة له وللفلسطينيين الثلاثة المعتقلين من القادة معه بعد أسرهم من السفينة أكثر من عشر تهم، منها استخدام سلاح ناري! وإصابة جنديين، واستخدام السلاح الأبيض، وطعن ثلاثة جنود، وتحريض المتضامنين الأجانب على إلقاء جنود البحرية الإسرائيلية في مياه البحر الأبيض المتوسط، وعقد تجمعات غير قانونية، والاشتراك بأعمال مخلة بالنظام!

وقد وصفه البرلماني الكويتي وليد الطبطبائي في الرأي الكويتية بأنه كان «ملح» حملة أسطول الحرية، وأنه أزعج الإسرائيليين بصلابته، ونعتهم بالأغبياء والحمقى، موضحا أنه هيأ نفسه للاحتمالات كافة بعد أن باغتوهم بالهجوم في المياه الإقليمية الدولية. وأعلن الطبطبائي أن الشيخ رائدًا رفض الإجابة عن أسئلة المحقق الإسرائيلي، وصرخ فيه: «أنتم قراصنة؛ لماذا تختطفوننا؟» وأن قتلة الأنبياء «حاولوا إجباري على توقيع ورقة تفيد بأنني مهاجر غير شرعي فأبيت. وأكد أنه لن يتردد في الذهاب إلى غزة مجددًا «إذا طلب مني ذلك؛ فالواجب يحتم موافقتي على الفور».

وقد أعد نزار يونس عنه فيلمًا وثائقيًّا بثته الجزيرة بعنوان: إننا باقون، يروي قصته داخل الخط الأخضر لإبراز أعماله، وأفكاره الدينية والسياسية، وحياته العادية في بيته ومع الناس عامةً، إذ لا تقتصر فقط على المسلمين داخل الخط الأخضر، إنما يعمل من خلال حركته على إبراز جميع النواقص والاحتياجات الإنسانية والاجتماعية للفلسطينيين في مناطق ال48 عامةً دون تمييز ديني. كما يساعد الفقراء والمحتاجين خارج وداخل الخط الأخضر.

ورغم كونه لا يُعرف شاعرًا، فله ديوان شعر مطبوع، أيام سجنه، بعنوان زغاريد السجون طبعه مركز الإعلام العربي، ضمن سلسلة أدب القدس، وقدم له الأستاذ الدكتور جابر قميحة، وقصائده على بعض مآخذي الفنية عليها مشحونة بالعاطفة، وفيها رقة تملؤها دفئًا، اسمعه يقول:

كنْ باسماً متهللاً ..إن ناح غيرك باكيا
ومبشراً متفائلاً ..إن صاح غيرك شاكيا
واصبر على مرّ الليالي شامخاً لا جاثيا
وامسح عن الأيتام دمعًا قد كواهم جاريا
وارسم على كل الشفاه الناحبات أمانيا
كنْ بلبلاً يشدو ويُطرب كل مفجوع حزين

ويضمد الجرحى النيام على المواجع والأنين
ويجفف الآلام تمخر في زنازين السجونْ
هيا وحلق خافقًا.. ومغردًا عذب اللحونْ
ومصفقاً فوق السحاب وصادحًا بين الغصونْ

وقد كُتبت فيه قصائد كثيرة لا أرى المجال مناسبًا الآن لعرضها وتأملها. وقد كتب فيه محمود النبهاني، وأبو شهاب، وعصام المجريسي، ولطفي الياسيني، وأشرف حشيش، والشيخ ولد بلعمش، والأخضر العربي، وغيرهم كثير..

وفي إطار الاحتفال الذي يقيمه ملتقى المثقفين المقدسيين تحت عنوان: "زهرة المدائن للإبداع الثقافي الثالث" تم اختياره الشخصية المميزة لعام 2009–2010 كأفضل شخصية عملت من أجل القدس.

رغم أنه أصغر مني سنًّا بنحو خمس سنين، إلا أنه بجهاده، وصلابته، ومواقفه أكبر مني خمسمائة مرة؛ ولقد تعلمت منه في كل مرة لقيته، ومن أهم ما تعلمته منه بطلان ذلك الفهم القاصر عن المسجد الأقصى الذي يظنه بعض الناس قبة فضية أو ذهبية، ليثبت لي أن الأقصى هو كل ما بين الأسوار من مساجد ومصليات وقباب وأضرحة وزروع ومآذن وبوابات، حتى إن المساجد والمصليات داخله تبلغ خمسة وأربعين مسجًد ومصلى، أما مسجد القبة أو المصلى المرواني أو جامع عمر أو الأقصى القديم فكلها مساجد داخل الأقصى.. وهذا ما حدا بي لإعداد كتاب مصور عن الأقصى الشريف ومعالمه، نشر قبل نحو عامين!

ومن الحقائق التي تعلمتها منه أن:

• عشرات الآلاف من الفلسطينيين خرجوا بأوامر من جيش الإنقاذ العربي عام 48 ولا يزالون بانتظاره.

• أتيح للجيوش العربية أن تقضي على المشروع الصهيوني وتدمر القوات اليهودية أكثر من ست مرات، وفي كل مرة تعلن الهدنة فجأة (!) فيستعيد الصهاينة قوتهم وسلاحهم، واشتهر عن بن جوريون مقولته: (اصبروا ساعات وستحدث المعجزة)!

• قام الاحتلال الصهيوني بتصوير أفلام إباحية بالمسجد الأقصى الشريف والمسجد الأحمر في مدينة صفد، وغيرها من المعالم الإسلامية، كما لم تنج المقدسات المسيحية من الانتهاك فكنائس قرية النصبة قريبًا من مدينة عكا لا تزال تستخدم حظائر لتربية الأبقار!

• الإنسان الفلسطيني كان يملك 27 دونمًا 27000 متر مربع وما يملكه الآن بعد النكبة وفي عام 2001 هو 500 متر مربع فقط، بينما معدل ما يملكه الفرد اليهودي هو 18 ألف متر مربع. وفي الكيبوتزات يبلغ معدل ما يملكه الفرد خمسين ألف متر مربع.

فمن هو هذا الشيخ الجبل؟

هو رائد صلاح محاجنة، من أم الفحم، قضاء مدينة جنين، رئيس الحركة الإسلامية في فلسطين 48. بقيت عائلته في فلسطين، وتشبثت بالأرض، التي شب عليها هذا العملاق المجاهد الجسور، الذي ينتقل من سجن لسجن، ومحاكمة لمحاكمة، وموقف لموقف، وجهاد لجهاد. والذي يعد من أكثر الفلسطينيين مواجهة للسياسات العدائية الاحتلال الإسرائيلي بحق الفلسطينيين ومقدساتهم. وهو مع كل ما يلقى صلب، صامد، جسور، ناطق بالحق، مواجه كرّار، ذو حجة، لا يهاب موتًا، ولا سجنًا، ولا ترويعًا، بل هو الذي روعهم، وأقض مضجعهم!

بدأ عمله الإسلامي مبكرًا، ونشط في مجال الدعوة الإسلامية داخل الخط الأخضر منذ كان في المرحلة الثانوية، وكان من مؤسسي الحركة الإسلامية داخل الكيان اللقيط في بداية السبعينيات. خاض انتخابات رئاسة بلدية أم الفحم عن الحركة الإسلامية، ونجح في تلك الانتخابات بنسبة تفوق 70% وأصبح رئيساً للبلدية في الحادية والثلاثين من عمره، ثم خاض الانتخابات للمرة الثانية عام 1993، ونجح بنسبة تزيد على 70% كذلك،

وللمرة الثالثة عام 1997 ونجح بأكثر من 70%، ثم قدم استقالته في عام 2001 ليتيح المجال لغيره في الحركة الإسلامية!

اهتم اهتمامًا كبيرًا بقضية المقدسات الإسلامية من مساجد ومقابر ومعالم؛ نظرًا لتعمد الإسرائيليين الاعتداء عليها وتحويلها لأغراض أخرى بعد رحيل أهلها عنها، وانتخب في أغسطس 2000 رئيسًا لجمعية الأقصى لرعاية المقدسات الإسلامية، التي ساهمت بشكل فاعل في الدفاع عن المساجد في أراضي فلسطين كافة، ونجحت في إظهار محاولات الاحتلال المتكررة للحفر تحت المسجد الأقصى، لتقويضه، وإبدال الهيكل الصهيوني الدموي المدنس به!

وبدأ نشاط الشيخ في إعمار المسجد الأقصى وبقية المقدسات يتعاظم منذ عام 1996، واستطاع أن يُفشل المخططات الساعية لإفراغ الأقصى من عمارة المسلمين، عن طريق جلب عشرات الآلاف من عرب الداخل إلى الصلاة فيه؛ عبر مشروع مسيرة البيارق.

نجح الشيخ رائد وزملاؤه في إعمار المصلى المرواني داخل المسجد القدسي الشريف، وفتح بواباته العملاقة، وإعمار المسجد الأقصى القديم وتنظيف ساحاته وإضاءتها وهو مصلي تحت الأرض يبلغ أربعة آلاف متر مربع وإقامة وحدات مراحيض ووضوء في باب حطة والأسباط وفيصل والمجلس، وعمل أيضًا على إحياء دروس المصاطب التاريخية، وأبرزها "درس الثلاثاء" الذي يحضره اليوم نحو 5 آلاف مسلم أسبوعيًا في المسجد الأقصى. والمصاطب هي مساحات مكشوفة داخل الأقصى، مرتفعة عن الأرض، وفي كل منها محراب، وكانت دائمًا موضع حلق العلم، يجلس فيها العلماء المختلفون للتدريس بالمسجد الأقصى، ويبلغ عددها أربعين مصطبة!

وساهم رئيس جمعية الأقصى في إنشاء مشروع صندوق طفل الأقصى الذي يهتم برعاية نحو 16 ألف طفل، وتنظيم المسابقة العالمية "بيت المقدس في خطر" التي تجرى أعمالها سنويًّا في رمضان للكبار والصغار، بمشاركة عشرات الآلاف من كافة أرجاء العالم،

بالإضافة إلى مسابقة الأقصى العلمية الثقافية، كما ساعد في إصدار عدة أفلام وثائقية وكتب عن المسجد الأقصى المبارك، كشريط "المرابطون"، وشريط "الأقصى المبارك تحت الحصار، وكتاب "دليل أولى القبلتين".

في الوقت نفسه كان للشيخ رائد دور بارز في الحركة الإسلامية داخل إسرائيل، وهي الحركة التي نظمت مهرجان صندوق الأقصى في أغسطس 2002 وأثار قلق السلطات الإسرائيلية في حينها.

انتخب عام 1996 رئيسًا للحركة الإسلامية، ثم أعيد انتخابه عام 2001، ولم تخل تلك الفترة من تقلده رئاسة مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية إلى حدود عام 2002، وكذلك كان رئيسًا لمؤسسة الإغاثة الإنسانية.

عرف الشيخ رائد بمواقف قوية صلبة عديدة، فقد عبر عن رفضه لاتفاق أوسلو، واعتبره ضربة ثقيلة للقدس والمسجد الأقصى، إذ أعطى فرصة أطول لتهويد القدس. وعبر عن موقفه من أحداث الاقتتال الداخلي في غزة، واعتبره نذيرًا لسلب المسجد الأقصى، ودفعًا للمؤسسة الإسرائيلية إلى التكالب عليه لتنفيذ كل خططها! وعلى مستوى الداخل الإسرائيلي رفض الشيخ رائد التدخل في الشؤون الدينية للمسلمين والمسيحيين من طرف الإسرائيليين، وذلك حين أثيرت مسألة القرار الذي اتخذته لجنة القانون والدستور في الكنيست سنة 2001 بتعديل قانون الأحوال الشخصية، والذي أبقى النظر في قضايا الزواج والطلاق في المحاكم الشرعية والكنيست، في حين سمح بالتوجه إلى المحاكم المدنية في مسائل النفقة والحضانة والتبني وغيرها. واعتبره إكراهًا دينيًّا للمسلمين.

يتفنن الصهاينة في تلفيق التهم له ولأصحابه، ودائمًا يخرج منها بنصرة الله وعونه؛ ومن التهم التي ألصقوها به: الاتصال بجهة معادية (إيران) ودعم الإرهاب (حماس) والتآمر ضد أمن إسرائيل، وتبييض أموال لحساب حماس! وحاكموه بتهمة إقامته علاقات مع تنظيمات معادية لإسرائيل في داخل البلاد وخارجها. وقالت المحكمة الإسرائيلية: إن

حركة المقاومة الإسلامية (حماس) تعتبر شقيقة الحركة الإسلامية التي يقودها هو في إسرائيل.

ولا يزالون يلفقون له التهم، ولا يزالون يحاولون إسكاته بألف طريقة وطريقة، لكن الجبل يأبى إلا الشموخ، ويأبى المجاهد إلا إحدى الحسنيين..

وحمدًا لله على سلامتك أيها الشيخ الجليل.

مع السيد عبد الرحيم الكيب رئيس وزراء ليبيا

محمد فؤاد عبد الباقي المطربش العظيم

من أسوأ الجرائم التي غلّظ القرآن الكريم نتائجها، وشدد العلماء في الكلام عنها، وأنكروا على مرتكبها: جريمة القتل، تلك الجريمة التي تعكس نفسًا همجية مترخصة في النظر لقيمة الحياة الإنسانية، والتي يهون دونها هدم الكعبة، وذهب بعض العلماء إلى عدم قبول توبة مقترفها، وهي مع ذلك من أكثر الجرائم انتشارًا في زماننا!

ويتخذ القتل صورًا شتى يهتم بها الشرع، ويعاقب عليه القانون، وترفضها الفطرة الإنسانية، لكن من الصور التي ربما لا ينتبه لها الناس في غمرة العمل للذات، أو العصبية للأفتات:

صور القتل المعنوي، بالتجاهل والإهمال، وربما بالجحد والإلغاء، وربما بالتشويه والتزييف والإهانة، وهذا النوع من القتل مؤلم شديد، لأن القتيل الذي أزهقت روحه قد استراح، أما الذي يقابل بالتجاهل فهو يُقتل كل يوم، ويداس على عنقه كل يوم، ويحتقر كل يوم.. وليس هذا شأن أهل المروءات والإنصاف، بل إنه حتى ليس من شيم (بتوع السيما) الذين يبدون أكثر وفاءً من بعض أهل الثقافة والالتزام، انظر لمقدمة "تتر" أي فيلم متخلفٍ أو تمثيلية هايفة، لتجدهم يكتبون أسماء كل المشاركين في "اقترافه" ابتداءً من النجمة الملعلعة، والبطل "اللي ما جبتهوش ولاّدة" وانتهاء بالمطيّباتية والفراشين، وعمال الكهرباء، والذي "عدل" كرسيًّا سقط على الأرض!

وهم لا يزالون يستمطرون شآبيب الرضوان على روح المقدس نجيب الريحاني، والحاخام داود حسني، ويحتفون باليهوديات كاميليا ونجوى سالم وراقية إبراهيم، ويكرمون "الراقصة" المحترمة تحية التحفجية، والست الكبيرة، ويستنزلون "ألف رحمة ونور" على نابليون، ولطفي السيد، وعلي عبرازق، وآسم أمين، والصحفي إياه الذي قيل إنه كان

يطالب بإباحة البغاء بعد إلغائه، ويكتبون قصائد الغزل ومقالات الإشادة، وكتب الإعجاب بعبقرية كوميديانات البلاهة إسماعيل يس، والقصري، والنابلسي، والشاويش عطية، وعبرحيم بك كبير الرحيمية قبلي.

وإذا مرض واحد من هذه النخبة تكاتفوا لعلاجه على نفقة الدولة، في أكبر مستشفيات الدنيا، واهتموا، وكتبوا المعلقات المطولات..

وآه لو حصل أن نجمًا من نجوم الشباك، من صناع التاريخ "الصقافي" أصاب ضرسه وجع، أو انكسر أظفر الأصبع الصغير، في يده اليسرى؟!

ولا تعجب إذا رأيت هؤلاء المثقفين أنفسهم بعد أن تحكموا في حنفية الإعلام يقتلون مع سبق الإصرار والترصد كثيرًا من عظماء الأمة بالتجاهل والصمت، إن لم يكن بالتشويه الفكري، والتقبيح الإعلامي، أو باتهامهم بخيانات وطنية وخلقية، ولم يلتفتوا لهم؛ أيًّا كانوا!

حتى إن فضيلة العالم المجاهد الغيور الإمام شيخ الأزهر الشريف الشيخ جاد الحق رحمه الله مات دون أن تجد أسرته أسطوانة أوكسجين لإسعافه كما ذكر د. عمارة (في الوطن 1418/9/25هـ).

وفي قرننا هذا ظهر عشرات المبدعين والعظماء من علماء الأزهر والدراعمة وخريجي جامعة فؤاد الأول، ممن كانوا غررًا في جبين الفكر، وشموسًا في سماء العلم والدعوة، نسينا أسماءهم وكتبهم ومواقفهم وجهادهم، في حين يرتفع من هم دونهم علمًا وسنًّا وفضلاً:

وإلا فأين من عالمنا محمد بك الخضري، ومحيي الدين عبد الحميد، والإسكندري، والغمراوي، وأحمد شاكر، والأودن، وعرجون، وحسنين مخلوف، وعبد العظيم الشناوي، وعباس حسن، وعمر الدسوقي، وأحمد محرم، وباكثير، ومحمد أبو الوفا، وحفني بك ناصف، وأشباههم من المظاليم؟

ويذكّرني حفني بك هنا بفضيلة الإنصاف وإعطاء الناس حقوقهم، ومعرفة أقدارهم. وهو أمر ثقيل على النفوس، يحتاج إلى تدريب كبير، وجهاد للنفس عظيم، وليس مجرد دعاوى وشقشقات.. الإنصاف عمل صعب خصوصًا؛ إذا كان إنصافًا من النفس، أو شهادة لقرين أو منافس. وهو خصلة لا يقدر عليها إلا الموفقون.

وقد تفطّن لها سيدنا عمار رضي الله عنه حين تحدث عن ثلاث خصال يتم بها الحق: الإيمان بالله، والإنصاف من النفس، وبذل السلام للعالم، وإذا كنا الآن لا ننصف العلماء، ونبخسهم عطاءاتهم، وريادتهم، وسبقهم، إعجابًا بما عندنا، واغترارًا بتجاوزنا بعض أفكارهم، فما أتعسنا وأقبح دخائلنا!

إن حسن تقدير العظماء عظمة، لا يقدر عليها إلا العظماء:

كان الرافعي رحمه الله موظفًا في محكمة طنطا، وكان يكثر التغيب عن العمل لأسباب يراها وجيهة، ولما تكرر ذلك منه انتدب رئيسه في العمل مفتشًا إداريًّا ليحقق معه حول تقصيره، وقدر الله أن يكون هذا المفتش هو حفني بك ناصف، الأديب الكاتب الشاعر الخطاط، وهو مبدع يقدّر الناس، وينزلهم منازلهم، فلما ذهب إلى طنطا، وقابل الأستاذ الرافعي، رفع تقريره للإدارة، يأمرها ألا يُقيَّد الرافعي وأشباهُه بقيود الحضور والانصراف، والروتين الحكومي الوظيفي القاتل للهمة، والمثبط لروح العطاء؛ فالمبدع بطبعه ملول، يكره الرتابة، ويحب الانطلاق والحرية، لأنه يرى ذلك أعون له على العطاء والتحليق.

ومن الناس الذين أحس أنهم لا يزالون يقابلون بكثير من التجاهل والجحود المرحوم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي عليه رحمات الله ورضوانه "1882هـ 1967م" ذلك المطربش الضخم الفخم، الذي خدم القرآن الكريم والسنة المشرفة خدمات جلّى، لم يطقها كثيرون غيره، لم يتخرج من جامعة، ولم يحصل على شهادة عالية، كما كتب الأستاذ: محمد سيد بركة، مثل الرافعي والعقاد وابن باز وابن عثيمين، لكنه صنف فريد من الرجال القمم الشوامخ الذين تركوا للأجيال اللاحقة أعمالاً خالدة بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل إيمانهم العميق بخدمة كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله تعالى عليه

وعلى آله وصحبه وسلم. عمل في التدريس، والترجمة، ثم فرغ نفسه بعد ذلك للعلم، والتصنيف.

قام منذ أوائل القرن بما يقوم به الكمبيوتر الآن، حين حاول تيسير البحث في القرآن الكريم وفي دواوين السنة الكبرى بحيث يجد الباحث طلبته بكثير من اليسر، حتى إن الشيخ أحمد شاكر رحمه الله لما أخرج عبد الباقي مفتاح كنوز السنة ذكر أنه كان يمكنه أن يوفر شطر عمره لو كان "المفتاح" قد ظهر قبل ذلك بعدة عقود. يقول هو عنه:

لئن كان كتابٌ من عند غير الله له أوفر نصيب من الصحة، لقد كان هذا الكتاب.. ووالله ما أقدمت على وضعه، وإرهاق نفسي، وإضناء جسمي، وإنهاك قواي في عمله، والدُّؤوب في ترتيبه وتنسيقه، وإعادة مراجعته مرات متعددة، إلا لما أيقنت من شدة الحاجة إليه، وفقدان ما يسد مسده مما ألف في بابه.

لزم الشيخ رشيد رضا، وأفاد منه، ثم تطلع إلى ترجمة كتاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي فأرسل إلى الدكتور فنسنك Wensinck يطلب منه إذنًا صريحًا بالترجمة باعتباره مؤلف كتاب (مفتاح كنوز السنة) Handbook Of Early Mohamedan Tradition واستجاب له الدكتور فنسنك، ولم يكتف بالموافقة فحسب بل أرسل إليه الفصل الأول من المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، فاطلع عليه، ووجد به أخطاء كثيرة، فضمنها كشفًا أرسله إلى الدكتور فنسنك، فسُر لذلك وطلب منه فنسنك تصحيح (بروفات) المعجم، ومضى في ذلك إلى آخر حياته.

وقد تخاطف العلماء هذا المعجم أول ظهوره، حتى إنه كان يباع قبل أكثر من أربعين سنة بخمسة آلاف ريال كما سمعت من بعض المشايخ والمعمَّرين، حين كان الآلاف الخمسة هذه تساوي ثروة كبيرة فعلاً.

وقد بقي هذا المعجم زمنًا طويلاً الذراع الأيمن لطلاب الحديث النبوي الشريف، حيث جمع أحاديث الكتب الستة إضافة إلى الموطأ ومسند أحمد وسنن الدارمي.. وقد حدث أن الشيخ محمد عبده في مطالعته للقرآن الكريم كان يأتي بالآيات

المتشابهات، وسأله الشيخ رضا أنّى له هذا؟ فأجاب الشيخ محمد عبده بأنه يستعين بكتاب عنده باللغة الفرنسية لمؤلفه (جول لابوم).

وبعد موت الشيخ محمد عبده بحث الشيخ رضا عن الكتاب في تركته فلم يعثر عليه، وأفضى بما في نفسه إلى الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، فقال له: هذا الكتاب عندي باللغة الفرنسية، فطلب منه أن ينقله له، فرحب بذلك، وقام بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية، وقدمه إلى الشيخ رشيد رضا سنة 1924م, وفي سنة 1934م جاء أحد أقارب الشيخ محمد رضا وعرض عليه، طبع الكتاب وفعلاً تم طبعه (عن: أ. محمد سيد بركة).

كما جمع عبد الباقي رحمه الله الأحاديث المتفق عليها في "اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان"، وصنف معجم غريب القرآن، كما فَهْرسَ موطأ مالك، وسنن ابن ماجه، وصحيح مسلم، وخرّج وحشّى الكشاف، وصنف (تيسير المنفعة بكتابي مفتاح كنوز السنة) والبخاري ومسلم، ثلاثة أجزاء، و(معجم غريب القرآن) وفهرس (موطأ الامام مالك) و(سنن ابن ماجه) و(صحيح مسلم) وأضاف إليها شروحا، وخرج الأحاديث والشواهد الشعرية في كتاب (شواهد التوضيح والتصريح لابن مالك) وخرج أحاديث (الأدب المفرد للبخاري). وله (جامع الصحيحين) و(أطراف الصحيحين)، و(جامع المسانيد) و(المسلمات المؤمنات: ما لهن وما عليهن، من كتاب الله والحكمة، وأشرف على تصحيح (محاسن التأويل) في سبعة عشر جزءًا للسيد جمال الدين القاسمي. وكان يقول الشعر في صباه..

يقول عنه الأستاذ أحمد تمام رحمه الله:

أطال الله في عمر محمد فؤاد عبد الباقي حتى بلغ العقد التاسع، لكنه ظل متمتعًا بصحة موفورة، ونشاط لا يعرف الكلل، وحياة منتظمة أعانته في إنتاج الأعمال التي يحتاج إنجازها إلى فريق من الباحثين، وبارك الله فيما كتب، فانتشرت كتبه شرقًا وغربًا، وعم الانتفاع بها، وظل يؤدي رسالته حتى لقي ربه في سنة (1388 هـ/1967م). ليموت رحمه الله عن 86 سنة قضاها في خدمة القرآن والسنة، ويترك لنا زادًا لا غنى لأحد عنه.

ولم يكن لمثل هذه الأعمال العظيمة أن ترى النور لو لم يكن وراءها صبر شديد، وعزيمة قوية، ودقة متناهية، وحياة منضبطة، وتوحيد للهدف، وتجرد وإخلاص، وهكذا كانت حياة الرجل، كما كتبت ابنة أخيه اللامعة الأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد تصور حياة عمها بقولها:

"وحياة الرجل الخاصة تدخل في باب الغرائب، فنحن نسميه صائم الدهر، فكان يصوم الدهر كله لا يفطر فيه إلا يومين اثنين هما أول أيام عيد الفطر، وأول أيام عيد الأضحى، وطعامه نباتي، وكان يصوم بغير سحور.. أي إنه يتناول وجبه واحدة كل 24 ساعة، وكان محافظًا في كل شيء، فزيه يتكون من البدلة الكاملة صيفًا وشتاءً.. وكان زاهدًا في الاجتماعات والتعارف، يفسر هذا وكأنه يعتذر: إن التعرف إلى الناس، تقوم تبعًا له حقوق لهم والتزامات واجبة الرعاية والوفاء، وليس عندي وقت لهذا، ولا أنا أطيق التقصير فيه لو لزمتني".

ومما عرفته عنه أنه كان شاعرًا، أدرج اسمه في موسوعة البابطين لشعراء العربية، ومما أوردته من شعره قصيدة بعنوان: صحا القلب:

صحا القلب من ذكرى حبيب ومنزلِ	وبات على وعد من السّعد مقبلِ
فلم يتطرَّبنيْ غزالٌ مربَّبٌ	ولم يُشْجِني قدٌّ ولا طَرْفُ أكحل
فقِدْمًا سَلاهُ القلب وانفك هازئًا	بما بث فيه من جوى وتململ
وإن لم يزن عبدالحميد قصائدي	فلا كنتُ في هذا المقام بأول
وكم لك في إغفاءة الفجر يقظة	لترتيل آيات الكتاب المنزَّل
تمخّض عن فكْرٍ يذبُّ عن الحِمى	ويحمي حماه عن عداةٍ وعذَّل

وقال في قصيدة عنوانها: الله أكبر:

الله أكبر! هذا المجدُ والحسبُ	وذاك قولي! عداه المينُ والكذبُ
سموتَ بالعرش حتى ما يطاوله	سواك تسعده الأرماحُ والقُضُب
بلغت منه الذي يشفَى الفؤاد به	فليس يُثْنيك عنه الحادثُ الأشِب

رُقِّيت أعلى مراقيه وقـــد عجزتْ	عن نَيْلها عَجَمُ الأملاك والعـــرب
قدمت فيها ثلاثينًا ومـــا فتئتْ	ترجوك يا خير من تزهى بـــه العُصَب
كرَّسْتَ نفسك في تأييـــــد مَنْعَتِهِ	ولم يُثَبِّطْكَ لا لهـــــوٌ ولا لعب
شيّدته بالحِجا والحِلم فالـتَزَمتْ	أساسه واستوى الأوتـــادُ والطُّنُب
كم مرةٍ كاده الخُوّان فـــارتصدت	لكيدهمْ خِيرة الإخـــوان والصُّحُب
حتى استقروا وقد باؤوا بخيبتهـــم	يشفيهم المضنيان، البؤسُ والكرب
وأنت أنت على العرش المصون حوا	لَيْكَ النجوم الدراري عنك لا تجـــب

لكن من يهتم الآن بعبد الباقي؟ من كتب عن سيرته؟

من تحدث عن أعماله العلمية، ونوّه بخدماته الجليلة التي نحن عالة عليها، متأكلون منها، في الوقت الذي تطاردنا فيه صور وأخبار الكابتن أحمد لوبيز، والهداف شوسي، والسنترهاف باك لولي عبده؟

لكم أتمنى على الله تعالى أن يهيئ بعض ذوي الهمة، لكي يعدوا تراجم منصفة عن هؤلاء المنسبين، ويترجموا لهم، لعل ذلك أن يكون سدادًا لجزء من حق نبخسه.. وويل للمطففين.

مع فريق مجلة الأمة سنة 1986 وفي الصورة الشاعر الغنائي والفنان مجدي نجيب، والرسام العظيم عصام عزوز، والمفكر الكبير الأستاذ عمر عبيد حسنة

الشيخ صفوت نور الدين.. الحكيم البشوش

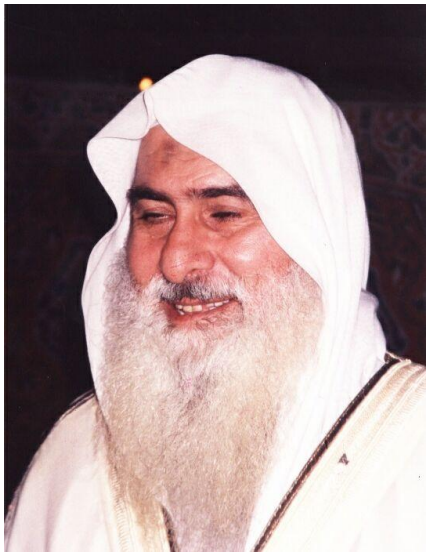

أقل ما يمكن أن أصف به هذا الشيخ الجميل رحمه الله أنه أنموذج للمسلم الهاشّ الباش الودود، الذي تنفتح له القلوب بمجرد رؤيته، فإننا ما كنا نراه إلا مبتسمًا أو ضاحكًا مرحِّبًا.

ويغلب على ظني أن أمه رحمهما الله ولدته هكذا على هيئته،لم يتغير؛ فلا أذكر أنني رأيته منذ عرفته أواخر السبعينيات إلا على ما أعرفه عليه: لحية بيضاء طويلة – كأنه ولد هكذا وابتسامة عريضة، ووجهٍ جاذبٍ مرحِّب، وكلام لطيف، ودعاء بالخير، وسعي في الدعوة إلى الله تعالى، واجتهاد في إصلاح ذات البين.

ورغم أن دراسته كانت بعيدة عن الدراسات الشرعية المباشرة في العلوم، والكيمياء خاصة – وكان يدرسِّها بعد تخرجها في المدارس الثانوية – فقد امتاح الشيخ علمه الشرعي، ورؤيته الدعوية المتسامحة، من عدد من العلماء؛ ابتداء من عمه الشيخ عبد الله أحمد مرسي، ثم داوم على الدروس التي كان يلقيها الشيخ الدكتور محمد خليل هراس، والشيخ البليغ اللسِن عبد الرحمن الوكيل، والشيخ الدكتور عبد الفتاح سلامة، وعدد من شيوخ جماعة أنصار السنة المحمدية.. ثم من خلال رؤيته الشخصية وطبيعته السمحة الودود. وقد خدمه هذا الأمر في مسيرته طوال حياته؛ فكان داعية إلى الله تعالى على بصيرة وتوفيق، ووفق رؤية دعوية مميزة:

فحين تولى رئاسة جماعة أنصار السنة المحمدية كانت مبعثرة ضعيفة، على الأقل في مناطقنا، بلا علماء مستوعبين، ولا دعاة واعين، ولا مسؤولين ضابطين لمساجدها، ولا محتملين واجباتها، ولا قائمين بما ينبغي نحوها، فأحدث بوجوده انقلابًا في مفاهيم الجماعة، وطور من أدائها، ونشط مساجدها، و(ثوّر) شكل منبرها الإعلامي الوحيد (مجلة

التوحيد) وأحدث كثيرًا من الحراك على مستوى مصر والخارج، وتواصل مع المشايخ والعلماء خصوصًا الأزهر وضخ دماء جديدة في الجماعة، حتى صار وجودها أظهر، وقدمها أرسخ، ورؤيتها أوضح، واستشرافها للأمور أفضل؛ رغم أنه رحمه الله تولى قيادتها في فترة شديدة الحساسية، مليئة بالتوتر والتخوف الرسمي من التيارات الإسلامية، بل والتربص بها، ورصد أنفاسها عليها، فقد كان عضو مجلس إدارة الجماعة مع بدايات التوتر ضد الإسلاميين أواخر عهد الرئيس السادات رحمه الله (1977) ثم صار أمين الدعوة بها عام 1988 وكانت مليئة بالأحداث بعد اغتيال الرئيس السادات رحمه الله، وتشديد الضغط على التيارات كلها، وتأميم المساجد ومنها أنصار السنة – ثم تولى رئاسة أنصار السنة سنة 1992، والصخب ضد الإسلام قائم، والعلمانيون الشرسون لا يفتؤون يثيرون الزوابع، ويجتهدون لتحطيم كل شيء، فسار بأنصار السنة وسط ريح هوج، وتربصٍ وإرصادٍ، دون مصادمة، ولا اختلاف، ودون أن يعطي أحدًا فرصة للنيل من الجماعة وتاريخها ودعوتها ورموزها.

كان ينتقل بدعوته كثيرًا للخارج، حتى أوربا وأميركا ودول الخليج، وكان يدعى إلى الدوحة كل رمضان أواخر عمره؛ لإلقاء محاضرات ودروس في مساجدها، فكان ولله الحمد والمنة إذا جاء يجعلني أول من يتصل بهم، وأول من يدخل بيوتهم في الدوحة، لطفًا منه وجبر خاطر رحمه الله وأحسن عزاءنا فيه ثم يكون المجلس بعد ذلك عامرًا بالحوار، والمراجعة، والتصويب، والدعابة اللطيفة الوقور، وأذكر أنه كان يشكو من السكر رحمه الله، فقال لي مازحًا، بمناسبة السكر: واحد راح للدكتور يفحص السكر، فلما حلله فزع، وقال: إيه يا حاج دانت بولك كله سكر! فرد الرجل ببراءة: شكرًا يا دكتور؛ إنت اللي بولك عسل!

وكان دائمًا في حركة أثناء وجوده بالدوحة، يلقي درسًا بعد الفجر، ويدعى للمحاضرة في المدارس في الضحى، ويجتمع عنده المحبون بعد الظهر، ويلقي درسًا بعد العصر، ويفطر عند محب بعد أذان المغرب، ويحاضر بعد العشاء، ويسمر مريدوه معه

هزيعًا من الله، وهو طوال الوقت باسم هاشٌّ باش، يلقي حكمة هنا، وتوجيهًا هناك، وطرفة هنالك، لا يشكو ولا يمل! وهذا هو المعنى الذي أشار إليه الشيخ الألباني رحمه الله، لما لقيه الشيخ صفوت، وشكا له أثقال الدعوة، فقال له: إذا استطعت أن تموت على ذلك فافعل! وقد فعل عليه رحمات الله!

كان رحمه الله تعالى يعتمد الرفق والرحمة منهجًا للدعوة إلى الله تعالى، ويجعل توحيد الرب عز وجل أساس كل خير وغايته، ومبتدأ كل دعوة ومنتهاها، وهدف كل داعية وواجبه، ويرى أن كل كلام، في كل موضوع، على أي مستوىً، سيفضي بالضرورة إلى إخلاص التوحيد والقصد؛ لأنه لا مفر فيه من إخلاص التوحيد والقصد!

وكان حسن التأتي في دعوته، موظِّفًا قبوله وابتسامته ليفتح قلوب الناس، ومما يذكر عن حسن تأتيه ما ذكره الأخ الشيخ محمد حسان أنه كان ذات سفر في أميركا، يجمع مالاً لأحد المساجد، وبعد أن دار على المتبرعين بنفسه، وجمع ما يسر الله به، قال:

من سيدعوني للعشاء الليلة؟

فتسابق الموجودون كل يريد أن يحظى بشرف استضافته، فسأل عن أيهم سيطعمه طعامًا فاخرًا، فارتفعت الأيدي متسابقة متنافسة؟ يعني هاتكلفوا العشا بتاعي أد إيه؟ كم؟

500 دولار. كم؟ 500 دولار؟ كم منكم سيعشيني بهذا المبلغ؟ فارتفعت الأيدي؟ فقال: عايز حقي ناشف، ليضع كل منكم المبلغ في الصندوق لصالح المسجد! وكان أن جمع مبلغًا لا جيدًا، بحسن تأتيه!

ختم الله لعبده صفوت نور الدين بختام عجيب فيه ملامح حسن الخاتمة ولا نزكي على الله تعالى أحدًا ومن أهم هيه الملامح أنه مات بعيدًا عن بلده، وقد ورد أن العبد إذا مات غريبًا، قيس له ما بين مكان مولده ومكان موته في الجنة، كما أنه رحمه الله مات يوم الجمعة، عائدًا من الحرم، ناطقًا بالشهادة، وصلى عليه نحو مليون شخص في الحرم الشريف، مدفونًا في مكة، ورئيت له رؤى حسنة، فأية خاتمة خير، وأية ميتة!؟

وقد تواتر وصف ميتته، وكتبه غير واحد، ومن ذلك ما نشرته مجلة التوحيد في عددها الخاص عنه: إن من المعلوم من دين الإسلام أن الله تعالى إذا أحب عبدًا ادخر له عملاً صالحًا فقبضه عليه، وإن من تمام النعمة على الشيخ أن يسر له أداء العمرة، ومن العجيب أنه خرج من بيته ولأول مرة بلباس الإحرام ورأينا عينيه تذرفان؛ على غير ما تعودنا منه.

وفى يوم الوفاة وكان يوم جمعة صلى الجمعة في الحرم المكي، ثم ذهب إلى المسكن، وبينما هو على بابه إذ شعر، بألم فأخذ يهلل ويقول: لا إله إلا الله ثلاث مرات ثم توجه بنفسه إلى القبلة، ونام على شقه الأيمن، ثم شرب جرعة من ماء، وردد بعدها الشهادة، ثم فاضت روحه رحمه الله.

ويسر الله له رفقاء من أهل العلم والصلاح، فقاموا بغسله وتجهيزه، وقد صلى عليه في الحرم الشيخ صالح بن حميد، في جمع غفير من أهل التوحيد والإيمان، فانظر أي نعمة هذه في بلد الله الحرام، يدفن وفى المسجد الحرام يصلى عليه، وقبلها بأيام لبس ملابس الإحرام، وأدى عمرته، وآخر ما تلفظ به: لا إله إلا الله، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة... ويشهده جمع هائل حتى امتلأت ساحات الحرم عن آخرها، ثم تُرى له الرؤى الصالحة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات؛ إلا الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له) ومن ذلك أن إحدى بناته في اليوم الثاني من وفاته ترى له رؤيا خير:

رأت أنها هي تجلس مع أخواتها، إذ قالت لهن وهي تبكي: وهل يعوض الأب!؟ فدخل الشيخ عليهم، وقال لها اسكتي، فقد أعطوني قصرًا من ذهب في الرياض. فقالت زوجه له: لا تذهب الآن اذهب في رجب.

لقد ترك رحمه الله فراغًا، وخلّف آثارًا، وأبقى في قلوب محبيه اشتياقًا لا يرويه إلا مرآه، وأنى لنا برؤيته؛ إلا أن ندعو أن يجمعنا الله تعالى به، في مجالس فردوسية ناعمة، نزور فيها الدكتور الفقي، والدكتور الهراس، والشيخ عبد الرحمن الوكيل، وابن باز، وابن عثيمين.. والغزالي، والشعراوي، وإبراهيم عزت، وجاد الحق، وغيرهم من أهل الخير والتوفيق، نتزاور، ونتذاكر الدنيا وقسوتها، وتفضل الله علينا بالرضا، وننعم بأنعم النعيم: بالنظر لوجه الله الكريم..

أرجوك قارئي المبارك: ادع لي ولنفسك ولوالدينا وأحبابنا بهذا الفضل العظيم..

صورة عمرها عشرون سنة تجمع الدكتور الديب، والدكتور حسان حتحوت، والعلامة القرضاوي، والدكتور شامة، ومن لا أعرف، وآخر الصف البسيوني وقد طارت الغترة على وجهه بفعل الريح يومذاك

ديدات.. تعيش انْتَ!

يا عين يا ليل.. قُتلت الأخت في الله ذكرى التونسية – فاكرينها – فضجّت وسائل الإعلام الله يحفظها، بالتصريحات الباكية، التي تسيل أسىً ولوعة، تبكى شبابها المغدور به، وتندب حظ الفن العربي البتلّو المشفِّي (اللي ما شبعش منها ومن إبداعْها)، وتؤكد أن الحضارة العربية الشماء – بفقدانها – خسرت خسارة غير عادية..

ولأنها كانت قمة سامقة، وأنموذجًا لا يتكرر للإبداع المتعري (الوقور) تطوع أحد المحسنين الكبار قوي قوي، اللي بيطلعوا في مجلة فوربس بتاعة الحيتان البلاّعة، فأرسل طائرة خاصة، تحت تصرف أهلها وحبايبها، حتى تشيع إلى جنات الخلد.. يا ذكرى!

ويا ليل يا عين.. عانى الفنان الأسمر حبة وجع، فقامت الدنيا – ولسه واقفة – فسال الحبر الأسود أنهارًا، يتتبع حالته يومًا بيوم، وساعة بساعة – حتى آخر لحظات الدفن – وكانت العناية به دقيقة، والمتابعة من أعلى المستويات الرسمية والفنية والإعلامية: دا زاد/ دا انحسر/ دا حرك راسه/ دا طلب شوربة/ دا خلص نص الفيلم/ دا

لسه ما خلصوش/ دا خلصه كله/ دا دخل التواليت/ دا ابتسم/ دا....، وبعد أن أفضى إلى ربه تعالى – أسأل الله أن يرحمه برحمته الواسعة – بدأت التحليلات، والولولات، والمناحات تترحم على الفن الجميل، وما خسرته الأجيال من إبداع وعطاء، كان جديرًا أن يرفع الأمة نحو آفاق المجد والعلاء، والإقلاع الحضاري الذي لا يقفه شيء!

ويا عين يا عين يا ليل.. أذكر أنه لما مات العندليب – رحمه الله – خرجت جنازته الضخمة التي لا مكان فيها لقدم، والحناجر المشيعة تكاد تنشق من البكاء، والبنات المفجوعات يمزقن شعورهن، ويقطعن ثيابهن، ويصرخن: سيبوه.. موديينه فين.. يا حبيبي يا اسمر؟ ونالت إحداهن الشهادة (شهادة الوفاة) بأن قتلت نفسها حزنًا واكتئابًا، على مذهب فضيلة الشيخ نزار أنه: قد مات شهيدًا من مات فداءً للمحبوب.

ويا ليل يا عين اشتكيت.. واحد فنان كبيييييير قوي قبل هذين وبعد العندليب، ما كان يجرؤ أحد أن يمس طرفه بكلمه، لأياديه البيض على الفن الجميل، فلما مات اهتزت الدنيا لموته، وخرج نعشه إلى الجامع الرسمي للصلاة عليه، في جنازة رسمية مهيبة – ولعله كان ملفوفًا بالعلم الوطني – ولأن المرحوم البيه الكبيييييير قوي كان مقطوع الصلة هو وعائلته الكريمة بكل شيء رجعي وظلامي وتاريخاني، اكتشف أحد الصحفيين الحِشَريين البايخين أنهم وضعوه في النعش الله يكرمكم بـ.....، وبكامل ثيابه الأنيقة، دون أن يغسّل أو يكفّن كالمسلمين، فصمم أخونا الصحفي على أن يغسلوه ويكفنوه، وتم ذلك فعلاً، ثم سارت الجنازة الرسمية المهيبة تشيعه إلى جنة الخلد (اللهم آمين)..

صحيح أنه لم تتحدث وسائل الإعلام عن أخذه للدفن بـ..... وبهدومه، لكنها لا تزال تتحدث – بمختلف أطيافها – عن أياديه البيض على الجمال، والفن، والإبداع ع ع ع.. يا ليل يا ليل!

ويا عين يا عين اتلهيت.. وعلشان عيون ماما فلانة، وبابا علان، وقفت الصحف العربية التنويرية، والفضائيات والمجلات الفنية، تتحدث عن قضية ابنهما الجدع (أحمد) وضناه، وفلذة كبده، اللي جابه من (علاقة حب بريئة نقية)، حتى هددت بعض الجهات

بفحص الدي إن إيه بتاع البيبي النونوس، ووقفت الفضائيات التقدمية متعاطفة مع عشيقته، بنت الناس الحلوين النخبة، مطريةً شجاعتها، وتصميمها إن الواد منُّه هو، مش من غيره، مؤكدة معها إن دي علاقة حب مافيهاش أي حاجة، وما حدِّش له كلام معانا.. آه! وكسب الواد وأبوه وأمه – والبيبي الله يحفظه – دعاية تساوي ملايين.. ببلاش.. ولا يزالون نجومًا متلألئة.

وآه وآه وآه.. تعال لأخبار مفكر جاد، أو أكاديمي كبير، أو شاعر مبدع، أو باحث مثابر، أو إنسان نقي غلبان، أو شاب طموح، أو وطني غيور، وأخبرني.. أين أجدها؟

أين أخبار ومتابعات تناسب قامة أحمد زويل مثلاً أو فاروق الباز أو أحمد شفيق أو محمد قطب أو محمد التهامي أو فاروق جويدة أو جمال سلطان أو عبد الوهاب المسيري أو عصام البشير أو عاطف رضوان أو صلاح الصاوي أو البوطي أو سهيلة زين العابدين، أو أحمد الريسوني، أو ألوف غيرهم – لا أستطيع حصرهم – من الكبار في تخصصاتهم وفي عطاءاتهم، وعقولهم، ووطنيتهم، وإنسانيتهم؟

صحافتنا التقدمية تهتم بوشم بيكام اللي اكتشف فجأة ان امه يهودية، وبأخبار الحشاش مارادونا اللي بقي زي الفيل، وبفستان ناعومي كامبل، وعيون إنجلينا جولي، وبراكب يمارس الجنس مع راكبة في الطيارة، وبفحولة الراجل المصري العنيف اللي جنن مراته، وفرقعة سيد القمئي، وبأخبار فيفي عبده وروبي، والأجوان اللي سجلها خيشة الاحول، وإبداع الرفيق عويس طوِّل بالك، وبعدين؟

أنا والله أتقطع حسرة.. وبعدين؟

بأي ميزان نزن؟ ولأي هدف نسير؟ ونحو أي هاوية ننزلق؟ ولحساب من نبيع عقولنا؟

الرجل الكبيييييييييير الشيخ أحمد ديدات مات.. هل سمعتم هذا؟! فكم سنة سنتكلم عنه؟ وكم رسالة أكاديمية ستؤلف فيه؟ وكم بحثًا سيتولى نشر سيرته؟

الرجل الكبيييييييييير الشيخ أحمد ديدات مات: هل سنرى أفلامًا عن رحلته، أو مسلسلاً عن حياته، أو مقالات متخصصة – ليومين اثنين فقط – تغطي جوانب تميزه؟

أحمد ديدات تعيش انتا.. بعد رحلة دعوية دامت قريبًا من 65 سنة متواصلة، ونحو 10 سنوات قضاها مشلولاً بالكامل في سريره، لا يقدر على تحريك أي شيء من جسمه غير عينيه، ولسانه الأشل الذي يخرج أصواتًا لا كلمات.. وخلال هذه السنين العشر التي أصابه فيها العطب الكامل لم تذكره جريدة، أو مجلة، أو فضائية، أو حفلة تكريم إسلامية، أو حفاوة رسمية!

لقد تمزق قلبي حين رأيته قبل سنوات على سريره، والشلل يقيد جسمه كله، والدموع تنهمر من عينيه، والأصوات المبهمة تخرج من حنجرته، لا يستطيع معها تعبيرًا، والعجز يغطيه من أعلاه لأسفله، لا يستطيع معه حركة، وهتفت: يا الله؟!

- أهذا هو ديدات الذي كان يقف – بعد السبعين من عمره – كالرمح المسدد، ثلاث ساعات أو أربعًا، يناقش ويناظر، ويدلل ويحاور، ويسخر ويفحم؟
- أهذا هو الذي واجه القساوسة المعادون للإسلام: جيمس استيوارت، وبيلي جراهام، وأنيس شروش (اللي لفق قرآن من دماغه كان يوزع في الكويت) وغيرهم!
- أهذا هو الذي طلب مواجهة البابا بولس السادس مباشرة في مناظرة مفتوحة، وعلى الهواء، اعتدادًا بما عنده من الحق؟
- أهذا ديدات الذي هزّ جوانب ألبرت هول Albert Hall في لندن، بكلماته البينة، وبإجاباته المفحمة، ومناظرته الدامغة، وبالتصفيق الضاجّ الذي ناله؟
- أهذه حنجرته التي كانت تهدر – في تدفقٍ آسرٍ – ناطقة بشواهده من القرآن الكريم، والكتاب المقدس، والأسفار، والمزامير يحفظها عن ظهر قلب!؟

- **أهذه صلابته التي واجه بها عتاة المنصرين وكبار القساوسة، في قوة، وكبرياء، وثقة، واقتدار، وامتلاك لناصية الحوار؟!**
- **أهذا هو الرجل الذي حاورتُه في الدوحة قبل اثنتي عشرة سنة، وهو يعتب، ويوجه، وينتقد، ويناقش، ويستفسر، ويطلب، ويمزح، ويصول، ويجول؟**
- **أهذه هي ابتسامته العريضة التي طالما أضاءت وجهه، والسماحة التي كانت تكسوه، وشيبه الذي أعطاه المهابة والإشراق؟!**

لقد كان رحمه الله نسيج وحده، صنع نفسه بعصامية فذة، دون دراسة نظامية – كما فعل العملاقان العقاد والرافعي رحمهما الله – واختط لنفسه منهجًا دعويًّا يتفرد به، هو منهج المواجهة والمناظرة، بجانب التأليف والنشر والتوزيع، بل لقد آلى على نفسه أن ينشر مليون نسخة مجانية من ترجمة عبد الله يوسف علي لمعاني القرآن الكريم، وسيوفي الله عنه نيته إن شاء الله تعالى.

صدقوني، إنه رغم معرفتي بأن بعض مشايخي الكرام يتحفظون على منهجه، فإنه مطلوب جدًّا في هذه الأيام، بعد تغوُّل الفضائيات التنصيرية التي تتفنن في سب الإسلام، وإلقاء الشبهات، وبث المغالطات والافتراءات، واستغلال جهل العامة بالدين، وموجة الكراهية التي تنطلق ضد عقيدتنا وقرآننا.

صدقوني إن الأمة في حاجة ماسة له ولأمثاله هذه الأيام، التي لم يعد نشر الإنجيل فيها قاصرًا على نسخ مهربة، بل صار يأتي – بشكل إعلامي مدروس ومتقن – من السموات المفتوحة، والفضائيات الموجهة، التي لا يمكن وضع مراقبين، ولا مخبرين، ولا قوات أمن، لتحول دون دخولها البيوت والعقول.. فمتى نجد مناظراته تبث في قناة إسلامية متخصصة في الدفاع عن الإسلام، بإجادة بديعة، وتقنية رفيعة، وحرفية واثقة، ونية صادقة؟

متى ستقيم دولنا التي تدين بالإسلام قنوات جادة تنصُر هذا الدين، وتقدمه للناس دينًا سمحًا كريمًا نقيًّا، تحتاجه البشرية خلاصًا لها من التيه والحروب والتدمير والإرهاب والطوارئ وأنهار الدم الثجاج؟!

اللهم ارحمه، واقبله عندك في المهديين.. يا كريم.

لفتة أميرية نبيلة

أصدقكم القول سادتي: لقد كنت في غاية الإحباط والانكسار؛ بسبب وفاة الشيخ ديدات رحمه الله تعالى، ومعرفتي الأكيدة أننا أمة مخدوعة، تهتم بالهامش وتترك الصُّلب، وتنشغل بالقشرة، وتهمل الجوهر، وتُعنى بالاحتفال على حساب الإنجاز، كتبت ذلك في الراية صبيحة الجمعة، في سخرية مريرة، ومرارة ساخرة. وذكرتها أيضًا في خطبة الجمعة على منبر أبي بكر الصديق..

وحين كتبت مقالي الوجيع تساءلت:

[الرجل الكبيييييير الشيخ أحمد ديدات مات، هل سمعتم هذا؟! فكم سنة سنتكلم عنه؟ وكم رسالة أكاديمية ستؤلف فيه؟ وكم بحثًا سيتولى نشر سيرته؟

الرجل الكبيييييير الشيخ أحمد ديدات مات: هل سنرى أفلامًا عن رحلته، أو مسلسلًا عن حياته، أو مقالات متخصصة – ليومين اثنين فقط – تغطي جوانب تميزه؟

أحمد ديدات تعيش انت.. بعد رحلة دعوية دامت قريبًا من 65 سنة متواصلة، ونحو 10 سنوات قضاها مشلولًا بالكامل في سريره، لا يقدر على تحريك أي شيء من جسمه غير عينيه، ولسانه الأشل الذي يخرج أصواتًا لا كلمات.. وخلال هذه السنين العشر التي أصابه فيها العطب الكامل لم تذكره جريدة، أو مجلة، أو فضائية، أو حفلة تكريم إسلامية، أو حفاوة رسمية!].

وكان مما زعمته أن أحدًا لن يهتم بوفاته، ولن يفكر في غائب بعيد، يسكن أقصى الأرض/ في جنوب أفريقيا/ في قاع العالم! من سيحس به؟ ومن سيترحم عليه؟!

وحتى لو فعل أحد شيئًا، فغاية الجهد أن يرسل برقية مواساة (عظّم الله أجركم...) ودمتم!

لكن كان لأمير قطر النبيل رأي آخر، لا يستغرب من مثله: فمهما بعدت ديربان عن الدوحة، ومهما غاصت جنوب أفريقيا في قاع المعمورة، فلن تكون بعيدة عن أهل المكارم، الذين يقدرون الناس، ويُنزلونهم منازلهم، و لا عجب فـ (إنما يعرف الفضلَ من الناس ذووه)!

لم يطل إحساسي بالانكسار إلا لصباح السبت – أقل من أربع وعشرين ساعة – لأرى في الجريدة ما خفف عن نفسي وطأة لوعة موت ديدات الموجع، وحرارة صيف الدوحة اللاهب، وقهر إحساسي بالنكران والجحد.

لقد أبى الرجل النبيل – أجزل الله مثوبته – إلا أن يرسل إلى جنوب أفريقيا – قاع العالم – ابنه، سمو الشيخ جوعان؛ ليواسي أهل فقيد الإسلام، ويحمل إليهم تعازي سمو أمير قطر وأهلها في وفاة الشيخ العظيم، ويتجول بينهم في ود وبساطة، وحسن تقدير، فأزال عن القلوب انكسارها، ورسم بسمة في الوجدان، ودعوة له على اللسان.

ووالله إني لأرجو أن تكون هذه اللفتة الأميرية النبيلة في ميزانه يوم القيامة؛ فإنها تحمل في أطوائها توقير الدين، وإجلال العلماء، ومعرفة الفضل لأهل الفضل.. وهذا مما يحبه الله تعالى ويرضاه، ويقبله.

وأزعم واثقًا أن هذا المنهج هو إتمام لمسيرة، وبناءٌ على ما أسسه آباءٌ، عُرفوا بحب العلم والعلماء، واشتهروا بدعمهم وحمايتهم وإكرامهم.

شكرًا لكم – ألف شكر – وليدم بك هذا المنهج أيها الأمير النبيل، وليحفظ الله أهل الخير والأيادي البيض في قطر أجمعين، وليكن هذا إرهاصًا بأن للإسلام والعلم وأهله شأنًا يليق بهم في هذا البلد الطيب..

وهل يُستغرب ألا تفوتكم هذه اللفتة الكريمة؟

أستاذي وأبي عبد العظيم الديب

ورحل أبي الثاني؛ طيبًا ذكره، حميدًا أثره، ممحَّصًا مبتلى؛ لينقيه الله من الذنوب حتى يلقاه تعالى وما عليه خطيئة..

رحل أستاذي وأبي الروحي العلامة عبد العظيم الديب بداء البطن، وداء الهرم، وكلاهما لا دواء له إلا رحمة الله ورضوانه.. وأنعم به من دواء.. هل تعرفه؟

وهذا بعض ما كتبته عنه، وكله حق، ولو أردت أن أزيد عليه ما استطعت، فما زاد عليه وجعي من لوعة الفرق، وأمل في اللقيا في الفردوس الأعلى، في رحاب رب العالمين.. وأرجوك قارئي قل آمين.

أستبعد وحق الله ألا تقع في حبه بمجرد رؤيته، وأستبعد ألا تجزم بمجرد السلام عليه أن تسلِّم بأن الدنيا لا تزال بألف خير.. ما دام فيها أمثال أستاذي المرحوم عبد العظيم الديب أبي محمود، قبله الله عنده في المهديين المرضيين.. اللهم آمين.

لو مر وقت ولم أسمع صوته أحس بالشوق، والفراغ، والجوع الروحي، والتقصير في حق نفسي، وحق العلم والعلماء وأهل الفضل والمكارم..

وهو جزاه الله عني خيرًا صاحب فضل.. لم يكن يدعني أنسي أو أهمل؛ ففضيلته ودودٌ وصولٌ بشوش، ودائمًا ما يغمرني بأدبه الجم، ولطفه الغامر، فلا يعطيني الفرصة لأنسي باتصاله ودًّا منه وفضلا..

ورغم كوننا في الأصل زفتاويين منشأً، ورغم معرفتي بعدد من أقربائه الأدنين، من قريته كفر إبري، التي تتبع بلدي (جمهورية زفتي) فلم أسعد بالتعرف إليه إلا بالدوحة، بسبب فارق السن والفضل والهم والمعطيات.. ومن وقتها وأنا أراه نجمًا في فلك عاااالٍ لا يدرَك ولا يرام؛ علمًا، ورفقًا، وتواضعًا، وحسن خلق.. صلة، وبرًا، وتعظيمًا لأهل الفضل، ومحافظة علي القيم ومكارم الأخلاق..

أستاذي الجليل الدكتور عبد العظيم الديب – رحمه الله ولا أزكيه على الله راهب متبتل في محراب العلم، نهم بشيء اسمه التحقيق.. حتي إنه قضي 20 سنة عقدين كاملين في التنقيب في حروف كتاب واحد كبير لإمام الحرمين الجويني هو نهاية المطلب في فقه الشافعية وهو أحد الكتب التي قام علي خدمتها؛ غير الدرة المضية والغياثي والبرهان، من كتب الجويني الذي عشقه الديب، وافتتن به أيما افتتان..

وأستاذي الشيخ الديب ليس ذلك الدفين في أطواء كتب إمام الحرمين لا يعدوها..

فهو المعنيّ بالتاريخ وتصحيحه.. المتصدي لمؤامرات (مؤلفي الضرار) من المزورين للتاريخ عرض الأمة كما كان يسميه أستاذنا وله في ذلك تحقيقات ثمينة ككتابه في المنهج عند المؤرخين، وكتابه عن الرؤية الجديدة للتاريخ، وتحقيقاته عن الحجاج الثقفي، ويزيد بن معاوية وغيرهما.. كما كانت له عناية لافتة بالتاريخ المعاصر، تغذيها ذاكرته اليقظة ما شاء الله، تبارك الله ومعايشته للعمل الإسلامي، وكبار رموز الفكر كالأستاذ العقاد والأستاذ محمود شاكر وعبد السلام هارون ومحمود الطناحي وأساطين دار العلوم وأعمدة الكتابة والدعوة في هذا القرن.. وله عناية بالشباب والتربية والفقه والأصول..

وذلك كله في إهاب من لغة جزلة، وتعبيرات رصينة، وعفة في القلم تترفع عن جرح الناس حتي اللد أحيانا وما كان الرفق في شيء إلا زانه..

ورغم سنه حفظه الله ومتع به فقد كان محبا للشباب ومجالستهم مع أنه بوقته ضنين يقربهم، ويبش لهم، ويأنس بوجودهم، ولا يبخل عليهم بعلم ولا وقت ولا نفع.. ولذلك لم أجد وربي شهيد أحدًا ممن لقيت من الشباب إلا ويرتضيه، ويحبه، ويثني عليه، ويعتبره أنموذجًا في العلم والرفق والبشاشة والأبوة؛ دون تحفظ، ولا جمجمة والناس شهود الله تعالي في الأرض وكفي بذلك نعمة، ومن الله فضلا ومنة!

كان أستاذي الديب يمقت الخلاف، ويكره العنف، ويكف يده ولسانه أحسبه والله حسيبه ومنذ عرفته وهو أسير كتاب، وأسير مروءات، وأسير مكارم، لا يستطيع فعلاً أن يجهل علي جاهل، أو يرد علي متطاول، أو يدفع ذم ذامٍّ؛ يري ذلك نقصًا، وعيبًا، وضياع وقت، وبذلاً للعرض، وتبديدًا للحسنات..

وطول عكوفه على الكتاب أورثه داءً جعلنا نعاني منه ولا نزال فقد خاصم الأضواء، وآثر البعد عن الفلاشات، وكره لُبْسِ ثياب الزور التي يتجمل بها كثيرون ممن لا يدركون غباره، ولا يحلمون بعشر ما عنده.. حتي إنني رجوته مع ظني أنه يحبني، ويكره أن يردني مرات ومرات ومرات، أن يشارك في برنامج تلفزيوني، أو لقاء صحفي، أو حديث للإذاعة، فكان يمتنع برفقه المعهود؛ حتي لا يدع لي خيارًا ولا فرصة لمزيد من الرجاء والتمني.. ويجمّله في ذلك عفة غير عادية عن الطلب، أو الاستشراف، أو حتي التفكير في شيء من اللعاعات العابرة..

وأذكر حين كنت في إسلام ويب أن فضيلته استحق مبلغًا عن كونه مستشارًا فكريًّا للشبكة، وطلبت منه رقم حسابه في البنك.. وحاولت جهدي أن أصل إليه فأبي.. حتي اضطررت أن أتصل بأحد الأحباب في المصرف لأعرف رقم حسابه، ثم لأودع المبلغ باسمه.. كل ذلك وهو مستحٍ خجِل، يؤنبني من طرف خفي، ويلومني، وأنا باللوم جدير؛ لأني كان يجب أن أتصرف دون أن يحس هو.. لكنها الغفلة..

ولقد عرفته رحمه الله حليمًا ضابطًا نفسه.. شهدت أحد الـ... يتطاول عليه بشكل مفاجئ ويسيء إساءات بالغة، والشيخ الحليم بين الاندهاش والاستغفار والحلم.. وما حرك الموقف إلا انفعال من بعض الموجودين، غاروا علي الشيخ، وحموا له..

ورغم أعباء العمل البحثي، ورغم الاستغراق الشديد فيما يعشق، فلقد كان عليه رحمات الله ورضوانه متابعا عجيبا لما يدور في الدنيا: يسمع، ويري، ويحلل، ويستشرف، ويناقش! وإذا حصل وسرقنا منه بعض وقته الثمين فإنه يستقبلنا بالبشاشة المعهودة، كأنما هو متفرغ لنا، لا يشغله عنا شيء؛ ويبقي المجلس عامرًا بالأفكار والذكريات والمعلومات والملاحظات والتوجيهات الأبوية التربوية الدقيقة، كل ذلك بابتسامة جميلة ودود، وأبوة حانية صادقة..

وكان جمعني الله به مع حبيبه المصطفى بكاء، سريع الدمعة، محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أسرع ما تنحدر دموعه إذا ذكر سيدنا رسول الله بأبي هو وأمي وبني وأهلي أجمعين كما كان يقول دائمًا، شوقًا وحبًّا ورقة..

لكم تعلمنا منك أستاذي عليك رحمات الرحمن:

- تعلمنا من أستاذنا الديب إجلال العلماء، وتقديم العذر، وترك الخلاف، واحترام الاختلاف الراشد.
- تعلمنا منه تقدير جهد الناس، وعدم التفريط في الوقت.
- تعلمنا إعادة القراءة، وإمعان النظر، وتأمل ما وراء الأشياء.
- تعلمنا حب التاريخ، ولزوم النظر فيه، واكتشافه، ونفض بعض المسلمات الناجمة عن محاولات جعله يساريًّا، أو ملونًا بلون غير الحقيقة.
- تعلمنا عدم التسليم بما تقوله الميكروفونات، ولا الإذاعات ووسائل الإعلام، لأنها دائما تتحدث بصوت مالك السلطة لا صاحب الحقيقة، وأن هذه الحقيقة كثيرًا ما تطمر تحت أثقال وأوزار من التعمية والإيهام والليّ والمخادعة، وتغيير الجلود والأشكال..

- تعلمنا اليسر وطلاقة الوجه والتأدب في العبارة، حتى مع الصغير والمخالف..
- تعلمنا الترفع وإكرام النفس والنأي عن السفاسف..
- تعلمنا أهمية العلم، والوقوف أمام مسألة أو موضوع ساعات بل أيامًا؛ لأن العلم يستحق..
- تعلمنا أن الكبير كبير في همه، كبير في همته، كبير في مقصده، كبير في عطائه، كبير في سلوكه..
- تعلمنا أن ساعة نجلسها بين يدي أستاذ يضيف أو يقوّم أو يوجه خير من أسابيع نقضيها في الراحة، وأن العمر لا يقاس بالساعات والأيام، وإنما بالعطاء والعطاء والعطاء..
- تعلمنا أن الذي يحترم نفسه يحترمه الناس، وأن الذي يحب الله تعالي يضع الله تعالي له الحب في الأرض..
- تعلمنا أن البسمة دواء، والبشاشة علاج، والكلمة الطيبة دواء، وطهارة القلب إكسير.. هل أقول أكثر؟

أسأل الله يا سيدي الشيح عبد العظيم الديب في هذه الأيام المباركة أن يرحمك ويتوب عليك، وأن يجمعك بجدك وحبيبك المصطفى عليه السلام/ وأن يأجرنا الأمة في مصيبتها، ويخلنها خيرا منك، وأن يأجرني في مصيبتي فيك، ويخلفني في الدنيا خيرا، وفي الآخرة لقياك على حوض الحبيب نشرب كلانا شربة لا نظمأ بعدها أبدا، ثم يكون منتهانا الفردوس الأعلى من غير سابقة حساب ولا عذاب.. اللهم آمين..

وأسألك بالله قارئي الكريم، أن تخص أستاذي وأنا وأنت معه بدعوة بظهر الغيب، فإن دعاءك أرجى بالقبول من دعائي.. غفر الله لنا أجمعين..

الدكتور جاسر عودة، فالدكتور عبد الستار أبو غدة، فالبسيوني

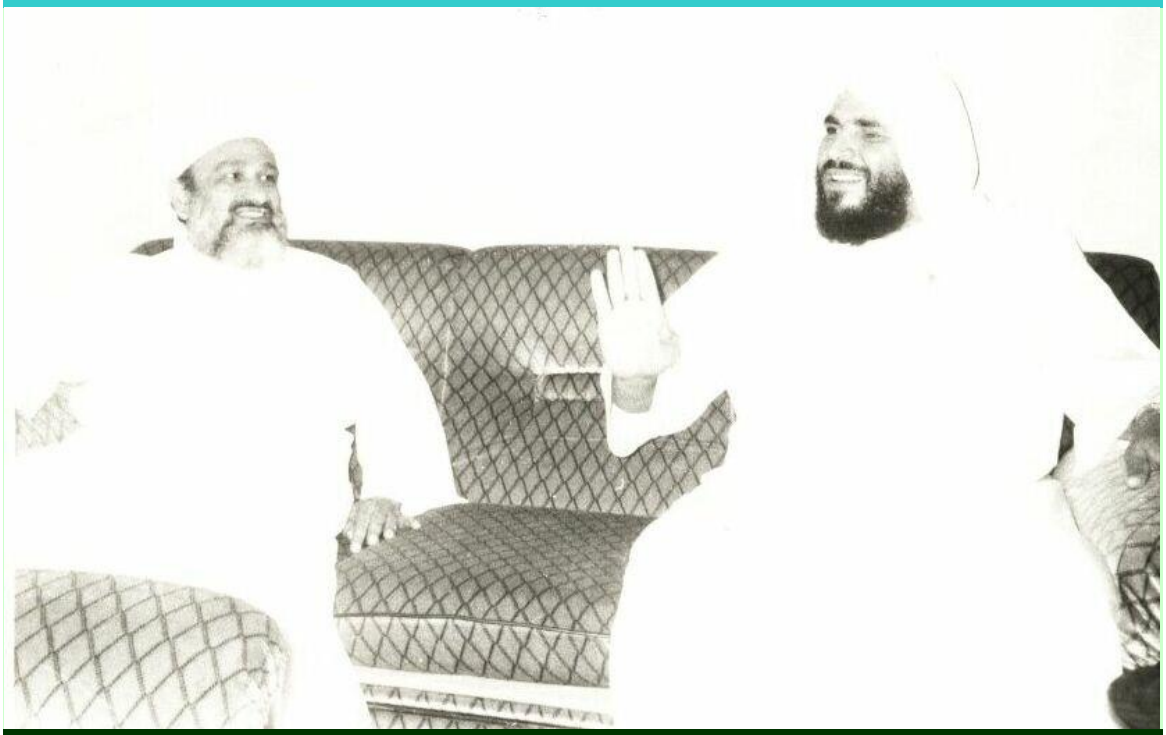

مع العلامة الدكتور علي السالوس

هشام الغراوي: نظرة مختلفة للتعارف وتغيير المنكر

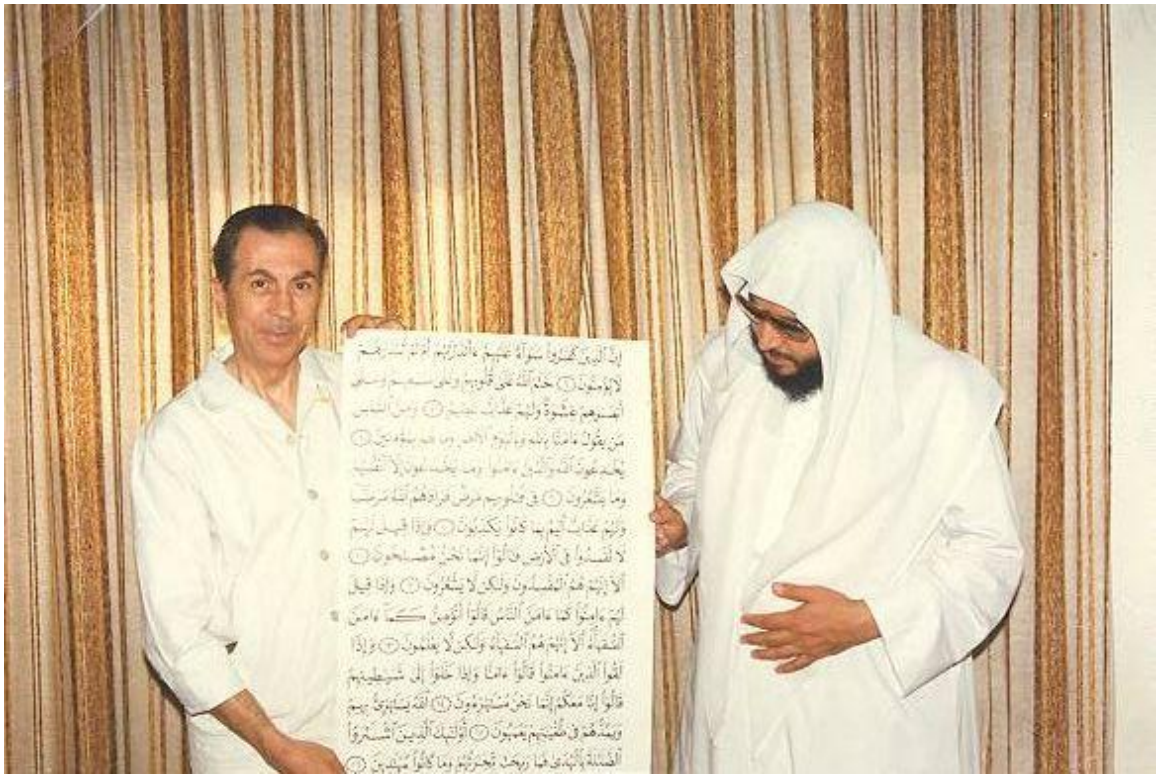

(الموضة) السائرة الآن هي محاولة الوصول للغايات؛ دون بذل أي عناء إن أمكن: الطالب يريد أن ينجح – ولو لم يذاكر – والموظف يريد أن يترقى ويتمكن – ولو لم يداوم – والتاجر يريد المزيد من الكسب؛ ولو من غير استحقاق.

وسرى بين الناس منطق الفهلوة والجدعنة، والتجارة شطارة، ومشِّ حالك ما تحبّكهاش؛ حتى طفا على السطح زَبَدٌ كثير، وعمّت قيم الإهمال، والتفلّت، والمخادعة، وقلة الجدية، وضعف العطاء.

وعهدُنا بالذين يريدون البناء أن يصبروا على رصّ المبنى – طوبة طوبة – وينتهوا من ذلك مرحلةً مرحلة؛ دون إخلال ولا إهمال؛ حتى لا يسقط المبنى على الرؤوس قبل تمامه.

لكن الدنيا – بطبيعة الحال – لن تخلو من أناس مخلصين، مدقّقين، يحرصون على التجويد والإتقان، غير مبالين – في سبيل ذلك – بوقت، ولا جهد، ولا مال، رغم

أن أهل الكسل قد يصفونهم بأنهم "حمير شغل أو حنبلية" ورغم أن الحضارات الساقطة لا تقوم بالصنف الأول؛ بل عمادها هؤلاء المخلصون الذين ربما أصيب أحدهم بـ "الكاروشي" أو الموت من كثرة العمل، على الطريقة اليابانية، بينما يصاب الكسالي بالـ:"كروشي" أو ضخامة البطون، لقلة الحركة والعمل!

وهو – في رأيي – واحد من الصنف الثاني؛ فرغم تقدمه في السن، ورغم البدن الهزيل، الذي يعكس خصومة شديدة مع الطعام؛ فقد كان يعمل مثل خمسة رجال، وكان يمكن أن تجده في المكتب في أية ساعة من الليل أو نهار: في السادسة صباحًا، والثانية ظهرًا، والعاشرة مساءً.. لا فرق عنده.. ولم أعلم له دافعًا لذلك؛ غير كونه مبتلىً بحب العمل، وحب التعلم، وحب التعليم.

كانت له فلسفة خاصة، هي الإتقان لحد الوسوسة – إذا صح هذا – رغم ما كان يسببه هذا من سوء تفاهم، وصدام بينه وبين بعض رؤسائه، الذين لم يصبروا كثيرًا على حرصه، وتدقيقه، فضيقوا عليه، وأحرجوه.

وكانت له فلسفة خاصة وتأوّلٌ لقوله تعالى: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)، فكان يقول: أتظن أن (تعارفوا) معناها: أن أعرف أسمك وتعرف اسمي؟!

هذا تسطيح؛ إن معناها: أن نتبادل المعرفة.. أن تعلمني ما تعرف، وأعلمك ما أعرف، فليست القضية هنا إتيكيت، وتبادل (الكارت فيزيت).

كان يقول ذلك، ويعنيه، ويطبقه، وعلى يديه تعلمت الكثير من فنون وأسرار الطباعة، وتشطيب اللوحات الخطية Retouching وتصميم أغلفة الكتب بحماسةٍ كان يغلّفها بابتسامة راضية حانية.

وكان يسخو كثيرًا في التعليم – ولو على حساب وقته – دون أن ينتظر شيئًا، بل كثيرًا ما كان يقابَل بالجحود والنكران، بل اللوم والمؤاخذة.

وقد عاينت أشياء من ذلك من خلال احتكاكي به، وقلّ من كان يراجع نفسه فيه، ويتراجع عن موقفه معه.

كان يهتم بالعلم – رغم تخطيه السبعين، وانشغاله بالتكوينات الفنية – حتى إنه التحق بالمركز الثقافي الفرنسي ليجوّد فرنسيته، ويكون على رأس المتقدمين جميعًا بامتياز، سنًا، ونتيجة!

ومن ولعه بالعلم، وإخلاصه لإظهار ما يمكنه إظهاره، أنه ملك – ذات يوم – محاضرة صوتية للعلامة (أبو زهرة) ألقاها في حلب سنة 1956م في دار الكتب الوطنية، ولم تكن المسجّلات منتشرة آنذاك، فأحس أنه أمين على المحاضرة، وأنه يلزمه إخراجها للنور حتى لا يأثم بكتم العلم، فلم يهدأ له بال حتى أخرجها مطبوعة سنة 1987م، أي بعد إحدى وثلاثين سنة من حمله الأمانة، وقام هو بتفريغها، ثم جمعها على الكمبيوتر، وتمكيتها، وإخراجها طباعيًّا، وتصميم الغلاف، فضلاً عن بعض التعليقات والحواشي التي كتبها بنفسه.

ومما نفعني الله به – عن طريقه – أن عرفني على أستاذي الدكتور المعايرجي رحمه الله، الذي لا أزال أستفيد من عطائه، وهو الذي عرفني على الشاعر الكبير الأستاذ عمر الأميري – صديق عمره – وهو الذي اهتم بإخراج الدواوين الأميرية منذ ديوانه الأول (مع الله) قبل أكثر من خمسين سنة، وحتى آخر ديوان للشاعر الكبير (نجاوى محمدية) الذي أخرجه له في صورة باذخة شديدة الأناقة.

كما عرفني على أعمال الخطاط العظيم بدوي الديراني – رحمه الله – شيخ الخطاطين الشوام بلا منازعة، وقد كانت بينهما علاقة (وتعارف)، فهذا يصمم الغلاف، وهذا يكتب الخطوط، لتخرج الكتب في أشكال بهية، ودام ذلك بينهما عقودًا حتى فرقتهما الأيام.

وكان ذا غيرة شديدة على الحقيقة – ولو من وجهة نظره – ينفعل لها، ويغضب، ويخاصم؛ دون مبالاة لما يمكن أن يترتب على موقفه؛ حتى إنه تصدى ذات مرة للقائمين على أحد المراكز الثقافية الدولية في استانبول – وذلك أثناء مسابقة الخط الدولية الثالثة،

لما رأى بعض النصوص المقدمة للمتسابقين قد اعتراها التساهل وعدم التدقيق، فهدد بإثارة فضيحة كبيرة وعالمية – تناسب مكانة المركز – إن لم تُسحب النصوص أو تعدّل.

لقد عاش حياة دقيقة أنيقة، شغل معظم ساعاتها بشكل بنّاء، وطوّف في العالم الإسلامي؛ ليستقر به المطاف في تركيا، عاكفًا وسط الثراء التراثي، والخصوبة الفنية، وروح الفن الذي عشقه وأعطاه عمره.

فأين هذا من عطاءات جيل (الكدْب المساوي)؟!

مع د. وهبة الزحيلي

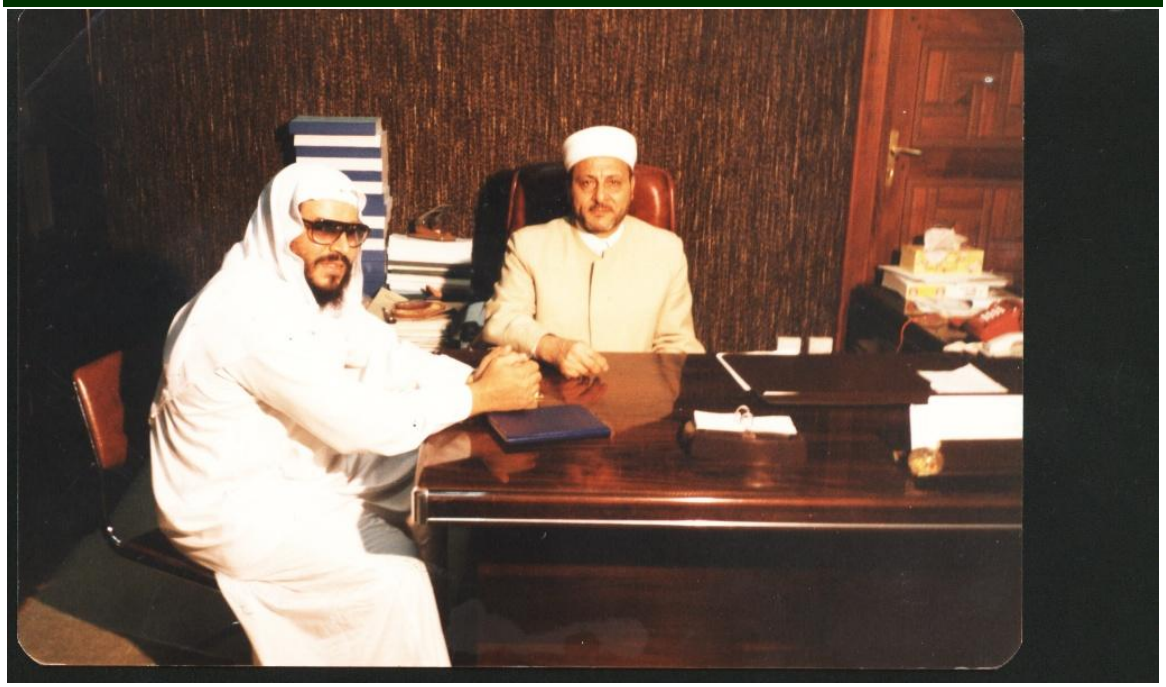

ألبوم قصير

مع الدكاترة محمد عثمان بشير، ومحمد المصلح، ومحمد عياش الكبيسي، وآخرين

مع وجدي غنيم، وحازم أبو إسماعيل

مع الدكتور خالد المذكور

من اليمين أ.محمد زيدان، فالعلامة الدكتور جمال بدوي، فالدكتور أكرم رضا، فالبسيوني، فالأستاذ أبو العلا ماضي، فصلعة الأستاذ داود حسن

في مؤتمر نصرة الأقصى

الموضوع	الصفحة
مقدمة الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب	4
مقدمة المؤلف: شهادات.. للحق.. والتاريخ	7
صلاح أبو إسماعيل: الشيخ الحليم الرشيد	11
الإمام الأكبر: يوسف القرضاوي	24
أ.د. محمد أحمد الغمراوي رائد دراسات الإعجاز العلمي، ورفيق مشرفة	34
الشيخ عبد المعز عبد الستار: أغبطه وهم يدفنونه	54
العلامة الدكتور درويش الفار الجيولوجي الأديب المؤرخ الصحفي	62
أنور الجندي راهب الفكر.. وحارس الثغرة	74
يوسف ذنون الموصلي..خبير الدنيا في الفنون الإسلامية	89
عمر بك الأميري: أميرٌ في إهاب شاعر	97
رجل أمة، اسمه: حسن المعايرجي	108
ابن باز العالم الولي الجواد	113
الشيخ عبد المحسن العبّاد العالم المتواضع الرفيق	118
الشيخ عنتر حشاد: حجة الله تعالى على المتكبرين	127
الرجل القرآني: حسن عيسى عبد الظاهر	133
عبد الحميد كشك : الداعية العفيف المترفع	140
الرحماني وعلامات حُسن الخاتمة	145
الدكتور رشدي محمد إبراهيم.. العالم السوسة	151
قاسم عبد الحليم صالح يوسف	156
الشيخ إبراهيم عزت	162

العلامة الشعراوي عاشق القرآن	183
العلامة عبد الله بن زيد آل محمود عليه رحمات	193
بلا رنتيسي بلا بتاع	198
المختار الشنقيطي:رجل من القرون الفاضلة عاش بيننا	204
رائد صلاح.. المرابط الزاهد	214
محمد فؤاد عبد الباقي المطربش العظيم	223
الشيخ صفوت نور الدين.. الحكيم البشوش	230
ديدات.. تعيش انْتَ	235
أستاذي وأبي عبد العظيم الديب	242
هشام الغراوي: نظرة مختلفة للتعارف وتغيير المنكر	247
ألبوم قصير	251

من أعمال المؤلف:

العقيدة:

1. الألوهية في العقائد الشعبية على ضوء الكتاب والسنة
2. كتاب المحجوبين عن رؤية رب العالمين
3. في ظل عرش الرحمن تبارك وتعالى
4. النعيم المعنوي في الآخرة

دعوة وإعلام:

5. مواجع داعية
6. كتاب الدعوة الجديد
7. قراءة في واقع السلفية المعاصرة
8. الإعلام الإسلامي في مواجهة الغزو الإعلامي الغربي
9. التلفزيون: السم اللذيذ
10. مواصفات في مدرِّسة الشرعية
11. خطيب الجمعة

فقه الواقع:

12. في فقه الواقع: رسائل إلى الإسلاميين
13. لله يا زمري
14. كلام في الثورة
15. إسلاميون ثوار
16. الحاج أستيكة

الأسرة:

17. ماذا يريدون من المرأة؟
18. تفكيك الأسرة: الخطر القادم

19. العنف الأسري: رؤية إسلامية
20. المسنون في منظور الإسلام
21. تجفيف منابع الأنوثة
22. الغيرة: خلق المسلم النبيل
23. العفة وأهل العفاف
24. نساء عديمات الأنوثة
25. حكايات الستات
26. وقال نسوة

فكر وثقافة:

27. العقلانية هداية أم غواية
28. وهل في الإسلام حرية للرأي
29. Freedom of Opinion
30. اليسار الإسلامي: خنجر في ظهر الإسلام
31. التعذيب: عار العصر (مجموعة ملفات)

دراسات إسلامية:

32. التبيان ... تحقيق
33. فقه الأذان والإقامة
34. ملفات ملغومة
35. وأدرك عبسلام الصباح
36. في المراية
37. المقامات

تاريخ:

38. الأندلسي

39. قال الراوي
40. المسجد الأقصى الشريف
41. زفتى التي في خاطري ج1 النشأة
42. زفتى التي في خاطري ج2 التبرعم
43. رمضان في تاريخ المستعين بالله البسيوني
44. شؤون مصرية

سير وتراجم:

45. محمد صلى الله عليه وسلم في أعمال اثنين من المستشرقين
46. دعاة ومشاهير عرفتهم
47. مشايخ لكن ظرفاء
48. رجال أثاروا جدلاً

كتابات ساخرة:

49. رجل اسمه نرجس
50. علي وعلى قرائي
51. حقك وفوقه بوسة
52. نساء عديمات الأنوثة
53. طمع إبليس في الجنة
54. رجال آخر مسخرة
55. أنا ألبي دليلي

الشعر، والدراسات الأدبية:

56. ديوان: عذرًا يا سيد خلق الله
57. ديوان: صلاة قلب
58. ديوان مراميات

59. الذئبة التائبة (ديوان شعر)
60. يا سادتي (ديوان شعر)
61. زهرة (ديوان شعر)
62. القرضاوي شاعرًا
63. نونية القرضاوي (مستلة)
64. أبو مازن: الصوت الساحر
65. الشعراء
66. الشواعر

مسرحيات شعرية:

67. الأعظم (مسرحية شعرية)
68. القرضاوي شهيدًا (مسرحية شعرية)
69. الحراني (مسرحية شعرية)
70. الحرباء (مسرحية شعرية)
71. ليلى حلمي (مونودراما شعرية عامية)
72. أحمد ياسين (ملحمة شعرية عامية)
73. المسرحية الجديدة

كتب مصورة:

74. التماثيل الشعبية الأوربية: رؤية مختلفة للإنسان
75. الرسول صلى الله عليه وسلم في الرسوم والمنحوتات الأوربية عبر التاريخ
76. التعذيب: عار الحضارة المعاصرة
77. الله تعالى في ثقافات الشعوب (باور بوينت)
78. فن الخط العربي: (باور بوينت)
79. الخطوط العربية والفنون المنبثقة عنها: (باور بوينت)

كتب تعليمية:

80. أيها المهتدي أحبك في الله
81. الحج من الألف للياء
82. العقيدة
83. الأخلاق....
84. منهج الشرعية، للصف الأول الإعدادي: الدحيل الإعدادية

تحت الإعداد:

85. يا دوحة رايتك بيضا
86. أيام المدينة الطيبة
87. المعجم القرآني الأكبر
88. القلب: دراسة شرعية
89. محمد صلى الله عليه وسلم: رؤية قرآنية
90. العقائد المصورة
91. الحياء
92. حبيب قلبي